

لِلَّهِ

فِي الْعِرْفَانِ

المنهج العرفاني ودوره
في معرفة الله



السيد عباس نورالدين



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان و إيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله في العرفان
السيد عباس نور الدين
مركز باء للدراسات

الطبعة الأولى - بيروت - 2014
بيت الكاتب للطباعة والنشر
جميع الحقوق محفوظة

www.baa-center.com

009611477233

76862741

لِللّٰهِ فِي الْعِرْفَانِ

المنهج العرفاني ودوره
في معرفة الله



السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات

7	تقديم
35	أ. نحو معرفة الله: خارطة الطريق
39	ب. غاية الله: ظهور الكنز المخفي
79	ج. أهمية معرفة الله وآثارها
91	د. إلى أي مدى يمكننا معرفة الله؟
113	هـ. مصادر العرفان: أين نحصل على معرفة الله؟
137	و. أعظم التجليات الإلهية أو الاسم الأعظم
157	ز. التجلي الذي استأنثره الله لنفسه: سرّه ومن يعرفه؟
165	ح. الإنسان الكامل ودوره في معرفة الله
171	ما معنى مظهرية الاسم الأعظم
181	ط. الوحدة في عين الكثرة أو علاقة الذات بما سوى
201	ثمار التوحيد وآثاره

209	ي. التجليات الأسمائية والصفاتية والذاتية
223	ك. تجليات الجمال والجلال
235	ل. تكثر المظاهر وأسماء الله
249	م. العوالم والحضرات الإلهية
265	في بيان العوالم الكلية والحضرات الإلهية الخمس*



تقديم

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ،
وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ
الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يَذْرُكُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ،
وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطْنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ
حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلَا نَعْتٌ مُوجُودٌ، وَلَا وَقْتُ
مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ".



تقديم

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

تجربة المعرفة بين الواقع والكتب

من التوفيقات الإلهية في حياتي أنني خضتُ كثيراً في مجال الأبحاث العقائدية تحقيقاً وتعليماً. وقد كانت هذه التجربة الممتدة على أكثر من ثلاثة عقود كفيلة بملاحظة طبيعة التجربة المعرفية التي يعيشها المسلم المتعلم المهتم بدينه على صعيد معرفة الله من خلال التعلم والمطالعة؛ فوجدتها تجربة مقيدة إلى حد كبير بتجربة أخرى عاشها أهل الفكر الإسلامي على مرّ العصور. لهذه التجربة المهمة ميزة أساسية أودّ أن أشير إليها نظراً لدورها الكبير في صياغة أفكارنا حول الله. وهي أنها كانت في معظمها جدلية دفاعية، فخرجت دون المأمول منها.

لقد ابتلي المجتمع الإسلامي بعد وفاة رسول الله ﷺ بحالة من تخبّط القيم أدّت إلى افتقاد الرؤية الواضحة لمنظومة القيم الإسلامية الأصيلة، فقد جعل الجهاد والفتح - الذي يُعدّ وسيلة - أولى من طلب العلم الذي يُعدّ ثمرة وغاية لوجود الإنسان في هذا العالم.

وبالرغم من أنّ المجتمع الإسلامي الفتّي لم يتنكر لقيمة معرفة الله التي تقع على رأس المطالب العلمية، إلّا أنّ عدم الالتفات إلى موقعيّة هذه القيمة في المنظومة التي تبنّاها هذا المجتمع نتيجة وصول عدم المؤهلين إلى السّلطة أدّى إلى الإطاحة بها وجعلها نسيّاً منسياً، فما كان هدفاً للبعثة النبويّة الشريفة، أضحي وكأنّه قد تم وفرغ منه.

تقلّص الاهتمام بمعرفة الله إلى الدّرجة التي جعلت أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد رجوعه إلى منصب قيادة المجتمع الإسلامي يتأوّه كثيراً جرّاء إغراض المسلمين عن العلم والمعرفة. واستطاع تيار القتال والجهاد من أجل الفتوحات والغنائم أن يتقدّم ويتغلغل في كل نواحي حياة المسلمين، فარضاً بذلك أولويات أخرى على قادة المشروع الإسلامي الإلهيّين. وهكذا، لم يعد بالإمكان نشر ثقافة معرفة الله وترسيخ قيمتها الحقيقيّة بين المسلمين المنشغلين بأفعال السّلطات الحاكمة؛ هذه الأنظمة التي جعلت الدّنيا والعلوّ فيها هدفاً وقيمة رائجة.

اضطرّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) الذين امتلكوا القدرة الكاملة على توجيه المجتمع المسلم نحو الغايات الإلهيّة إلى السّعي

الحديث للحفاظ على القواعد والأصول التي يمكن الانطلاق منها لتحقيق الأهداف المعنوية الكبرى. وكانت القواعد والأصول الأساسية عبارة عن:

1. وحدة المجتمع المسلم

2. حفظ القرآن وقداسته.

3. موقعية الإمامة الإلهية في حياة البشرية.

فالمجتمع الذي يفتقد إلى هذه الأركان لن يتمكن من تشكيل تجربة معرفية مهتدية؛ وفي ظل غياب أي ركن من هذه الأركان ستكون جميع التحركات العلمية في خدمة الطّاغوت وعاملاً أساسياً لبثّ التفرقة والتشتّت.

إنّ من يدرس التجربة العلمية للمجتمع المسلم بعد رسول الله ﷺ يدرك جيّداً معنى ما ذكرنا. ويعلم كيف أنه في ظل حكومات الطّاغوت ستكون كل فعاليات المجتمع المسلم حتى الخيّر منها سعيّاً حثيثاً على طريق الضلالة والانحراف.

وما أجمل الحكمة العلوية التي تختصر المشهد هذا. فأمر المؤمنين ﷺ يقول: "الولايات مضامير الرّجال". والمضمار هو الطريق الذي تسير عليه أنشطة البشر في المجتمع ضمن سباق محدّد. وتكون تبعيّة أبناء هذا المجتمع للولاة والحكام عبارة عن رسم هذا المضمار وشقه. وفي هذه الحال سنعلم مسبقاً ما هي نتائجه ونهايته.

لا يمكن للمجتمع الذي يسير وراء حاكم دنيوي أن يتسابق في مضمار الخيرات فضلا عن تشخيصه ومعرفته. فكيف بمعرفة الله التي تُعدّ غاية الخيرات.

ومن المتوقع دومًا في ظلّ الحكومات الدنيويّة أن تحصل الفرقة وتنشأ المذاهب والتيارات. لأنّ الكتاب المقدّس الذي يمثّل مرجعية رئيسية لحلّ خلافات هذا المجتمع سيتعرّض لتأويلات مختلفة من أجل تأمين مصالح السّلطة الحاكمة.

إنّ نشوء الفرق وما يتبعه من نزاعات فكريّة سيفرضان جداول أعمالهما الخاصّة على الحركة العلمية والمعرفية في أي مجتمع. كما أن نشوء الفرق أمرٌ حتميٌّ لوجود سلطة تتناقض في مضمونها وطبيعتها مع روح القرآن التوحيدية الجامعة.

فتشكّل العديد من المذاهب (الفقهية والعقائدية) قد وقع كاستجابة تلقائيّة لحاجة السّلطة لتثبيت شرعيّتها في مجتمع يدرك جيّدًا أهميّة المشروعيّة الدينيّة ودور القرآن الكريم في إضافتها ومنحها.

ولهذا احتاجت السّلطة إلى القرآن من أجل تبرير وجودها ودورها. فنشأ بسبب هذا تحالف قويّ بينها وبين طبقة من أهل العلم ومؤوّلي القرآن. وأضحى الحديث عن الله وبقية الأصول الاعتقاديّة والقضايا الفكرية الكبرى منسجمًا مع السّياق والمضمار الذي رسمه الحكّام. وأدى ذلك إلى رواج سوق النزاعات الفكرية والجدالات العقائدية التي اتّخذت لنفسها فخراً عنوان الكلام. وعندها صار الله موضوعًا للكلام بدل أن

يكون موضوعاً للشهود والتجربة الروحية الكبرى!

وفي الوقت الذي كان أئمة الدين والعارفون الحقيقيون بالله منكبّين على الحفاظ على تلك الأركان التي تحفظ الرسالة إلى زمن القطاف الواقعي، كان المجتمع الإسلامي يقع ضحية تلك التيارات التي أساءت لقداسة قضية معرفة الله أشدّ الإساءة. وبدل أن تكون معرفة الله قيمة عظيمة في حياة الفرد المسلم يصبو إلى معايشتها في كلّ تفاصيل حياته، صارت هذه القضية مثار فتن ونزاعات وحروب وعداوات.

ويانحسار القضية الأولى من حياة هذا المجتمع المنكوب، تراجعت منظومة القيم كلّها وانحسرت لصالح قيم الدنيا والفجور والتسلط والاستعلاء والعداوات والتكفير؛ وفقد المجتمع المسلم عزّته، وصار ينتظر من يغزوه في عقر داره.

وعندما غزا الأوروبيون الرّوم بلاد المسلمين في العصر الحديث، كان هؤلاء المسلمون يعيشون حالة من الإنهاك التاريخي المزمّن الذي شمل كل نواحي حياتهم. فاستسلموا لكلّ وافد مهما كان غثاً. وبسرعة تشكّلت بينهم التيارات الإلحادية والعلمانية لتسيطر على حياتهم السياسية والاجتماعية. ولولا بقاء الكتاب ومن يحفظه من جهة، وهشاشة الباطل الغربي وبشاعته من جهة أخرى، لما بقي بين المسلمين من يؤمن بالله أحد.

وعلى وقع هول ما جرى ويجري تصدّى بعض مفكّري الإسلام لهذا الغزو العقائدي (الذي عدّ أخطر غزو عرفته بلاد

المسلمين طوال تاريخها)، وقاموا بمواجهة تلك التيارات التي استهدفت كل الجذور العقائدية للإسلام، وعلى رأسها قضية التوحيد ومعرفة الله تعالى.

إِلَّا أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْجَدَلِيَّةَ لِلتَّرَاثِ الْفِكْرِيِّ الْعَقَائِدِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي نَهَلَ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمَفْكَرُونَ عَادَتْ مَجْدُّدًا لِتَصْبِغِ اسْلُوبِ الْمَوَاجَهَةِ هَذِهِ. وَهَكَذَا وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا نَنْجِرُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى سُلُوكِ طَرِيقٍ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَسْلُكَهُ مِنْذُ الْبَدَايَةِ. وَعَدْنَا لِنُفَرِّقَ فِي مُسْتَنْقَعٍ لَا نَكَادُ نَرَى مِنْهُ وَجْهَ الْحَقِّ إِلَّا قَلِيلًا.

العرفاء وحدهم - وعلى مر التاريخ الإسلامي - أدرَكوا عظمة القرآن، وعاشوا تجربة رُوحِيَّةَ وَذَهْنِيَّةَ غَنِيَّةٍ مَعَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَأَيَّاتِهِ. وَقَدْ تَرَكَوا لَنَا تَرَاثًا نَأَى بِنَفْسِهِ عَنِ الْجِدَالِ وَالنِّزَاعِ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ. لَكِنْ عَزَلْتَهُمْ عَنْ مَتْنِ الْمَجْتَمَعِ - لِأَسْبَابٍ لَا مَجَالَ لَذِكْرِهَا هُنَا - أَبَقَتْ تَرَاثُهُمُ الْعَظِيمُ غَرِيبًا عَنْ تَجَرِبَةِ تَدَيُّنِ الْمُسْلِمِ الْعَادِي، وَتَجَرِبَةِ الْمَوَاجَهَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْضَرُورِيَّةِ. بَلْ وَجَدْنَا تَرَاثَهُمْ - بِسَبَبِ هَذِهِ الْعَزَلَةِ - يَكَادُ يَقَعُ فِي أَيْدِي غَزَاةِ الْفِكْرِ وَيُوشِكُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى أَدَاةِ بَأْيَدِي الْمُسْتَعْمَرِينَ الْجَدِّدِ.

كَانَ الْعُرَفَاءُ - كَمَا اشْتَهَرَتْ تَسْمِيَتُهُمْ - يَنْتَجُونَ مَكْتَبَةَ كَبِيرَةً فِي مَجَالِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ اتَّسَمَتْ بِالْإِسْتِقْلَالِيَّةِ وَبِالْبَعْدِ الرُّوحِيِّ الْعَجِيبِ؛ وَكَانَ هَذَا التَّرَاثُ يَزْدَادُ غَرَابَةً مَعَ تَقَادُمِ الزَّمَانِ وَابْتِعَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ رُوحِ الْقُرْآنِ وَمُضَامِينِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. فَاشْتَدَّتْ الْعَزَلَةُ وَاسْتَحْكَمَ الطُّوقُ حَوْلَ هَذَا التَّرَاثِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَصَارَ كَمَنْ قَدْ نُسِيَ حَيْثُ لَا حُضُورَ لَهُ إِلَّا

في نطاقات ضيقة تكاد لا تبين.

ثم قيّض الله تعالى لعارف كبير في زماننا هذا أن يحوز على أعلى منبر اجتماعي يمكن أن يصل إليه عالم؛ فحطّم الكثير من القيود التي كبّلت التجربة العرفانية الثرية. وفتح على العالمين - ولأوّل مرّة في تاريخ البشرية - أبواب معرفة الله بعيداً عن التجارب الضيقة البغيضة التي عاشتها على مرّ العصور.

استجاب الكثيرون لروح الله وأقبلوا على العرفان وبدؤوا بالتعرّف على كنوزه العظيمة، لكنّهم واجهوا العديد من العقبات منعتهم من إكمال المسير.

فهناك العداء التقليديّ لكلّ مجهول، على قاعدة: "النّاس أعداء ما جهلوا". وهو ليس بالعداء القليل. لأنّه قد تسلّح بقرون من الإشاعات والأكاذيب والجهالات والإساءات.

وهناك الذهنيّة الجديدة التي أضحت بعيدة عن الاهتمام بقضايا العرفان.

وهناك اللغة الخاصة التي صارت غريبة عن واقع حياتنا اليوميّة.

هذه العوامل وغيرها وقفت أمام المدّ الخمينيّ العرفانيّ وواجهته بقوة وحدّت من تقدّمه كما أراد هذا العارف الكبير. وها هو بعد انتصاره العظيم يجد نفسه مضطّراً لإلغاء دروسه

العرفانية التي كان يبنّيها عبر التلفزيون الإيراني من أجل الحفاظ على الأركان السابقة.

لم يكن تراجع الإمام الخميني هزيمة لهذا التيار المعنوي المتدفق. وإنما هو إعادة تموضع تتطلب من المهتمين أن يدركوا مسؤوليتهم الكبرى في الحفاظ على هذه الشعلة، حتى تتحقّق الظروف المناسبة ليصبح العرفان تياراً عاماً في المجتمع الإسلامي، يتسابق الناس فيه لينالوا أعلى الدرجات ويبلغوا أسمى المقامات.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يحملون هذه الشعلة، وينقلونها إلى الأجيال الآتية؛ ونسأل الله تعالى أن يوفّق سماحة الإمام المفتي الذي يقود مسيرة المجاهدين على طريق تحقيق ذلك المجتمع الذي وصفه قائلاً:

"عندما يتشكّل هذا المجتمع، فإنّ أهم مسؤولياته أن يتمكّن الناس، في ظل هكذا مجتمع وهكذا حكومة وهكذا أجواء، بأن يصلوا الى الكمال المعنوي والكمال الإلهي، حيث "ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، أن يصل الناس الى عبودية الله. لقد فُسّرت "ليعبدون" بـ "ليعرفون". وهذا لا يعني بأن "عَبَدَ" تعني "عَرَفَ" وبأن العبادة تعني المعرفة، كلا، بل تعني بأن العبادة بدون المعرفة لا معنى لها، ليست ممكنة وليست عبادة. بناءً على هذا، فإنّ المجتمع الذي يصل إلى العبودية لله، يكون قد وصل الى المعرفة الكاملة بالله ووصل للتخلق بأخلاق الله، وهذا هو نهاية الكمال الإنساني، وعليه

فإنَّ الهدف النهائي هو ذلك الهدف، والهدف الذي قبله هو
إيجاد المجتمع الإسلامي، والذي هو هدف كبير جداً وعالٍ
جداً." [2011/10/18]

والحمد لله رب العالمين
بيروت، 16 رجب، 1435هـ



"الحمد لله الباسط بهائه على سكان الملك
والملكوت، والساطع بسنائه على قطان الجبروت
واللاهوت. تجلى من غيب الهوية بجماله
الأجمل، ولا حجاب له إلا جلاله، واختفى في
ظهوره الأظهر، ولا ظهور لشيء إلا جماله. ظهر
بذاته من عين الجمع في مجالي صفاته، وبصفاته
من الكثرة المخفية في ملابس آياته، وعنده مفاتيح
غيب الأرواح وشهود الأشباح، فسبحانه من
إله صعد إلى السماء العليا وهبط إلى الأرض
السفلى، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض
إله، وقال صلى الله عليه وآله: ولو دليتم إلى
الأرض السفلى لهبطتم على الله."

كَمَالُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

هو أرقى وأعلى ما يصل إليه الإنسان

وهو عبارة عن التوجه المطلق إلى الذات الأحديّة للربّ الأعلى
وهذا هو التوحيد الخالص الذي يتجلى في درجات ثلاث
وإنما يتحقّق بشهود الحضرات الإلهيّة

في سفر حتميّ نعبر به عوالم الوجود
بنفي الكثرة بعد تجلّي الربّ بأسماء الجلال
وبالانجذاب إلى الوحدة بتجلّي أسماء الجمال
حتّى الوصول إلى الاسم الأعظم والتجلّي الأكرم
فيصبح التكبير بمعاينة الحقيقة بعد أن كان بالحقّ مسبّحاً
على صراط مستقيم هو صراط المنعم الكامل شريك القرآن
ولا يتدرّج في الحضرات إلّا من عرف نظامها المستودع في الأسماء
ولكي يتحقّق ذاك التوجّه المطلق، فلا بدّ من السير بقدم المعرفة
حتى تخبرك المعرفة عن عجزك فيحصل الوصال المطلق
فكلّما أوصلتك المعرفة إلى عجز في المقام، فاعلم أنّها من لدن الحكيم
هناك حين أدركت الكمال الأعلى
فسبّحته عن نقصك وسبّحته في العوالم

هذا هو السرّ مجملاً

وإليك التفصيل

كمال الانتقطاع إلى الله

هو إدراك فوق المعرفة

وشعور فوق المشاعر

لا تخبره إلا بعد العجز عن المعرفة

ولا يحصل العجز عن المعرفة إلا بعد كمال المعرفة

وكمال المعرفة إدراك حقيقة الأشياء

وحقيقة كل شيء هي ما فوقه

فمع كل إدراك تزداد وجوداً وكمالاً

حتى تدرك ما يكون فوق المعرفة



كَمالِ الانْقِطاعِ إلى اللهِ

هو أن تشعر بوجوده بكلّ وجودك فلا يشغلك عنه شاغل

من ظلمة أو نور أو كثرة أو وحدة

وهذا هو مقام الذّكر

وأوّل اسم اختاره الله لنفسه هو العليّ

ليُعلم أنّه الأعلى

فقد علا على كلّ شيءٍ دونه

وما ثمة شيءٍ سواه



كَمَالُ الانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

يعني أن لا ترى في الدار غيره دياراً

فما ثمة موجود سواه

والكل إشعاعات وجوده

فليس من كل أو واحد

لأنك لست واحداً في مقابله

وكمالك منه، بل الكمال له

وفعلك فعله فما رميت إذ رميت لكن الله رمى

فإذا تدرّجت في هذه المعرفة فعلاً وصفةً وذاتاً

بلغت كمال الانقطاع



كَمَالُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

يعني أن تفني أفعالك في فعله

فتدرك التوحيد في الأفعال

حيث لا مؤثر في الوجود إلا الله

ثم تفني صفاتك في صفاته

فتدرك التوحيد في الصفات

حيث لا كمال إلا لله

ثم تفني ذاتك وإيتيتك في ذاته

فتعلم أنه لا إله إلا الله

وهو التوحيد في الذوات

حيث لا موجود إلا الله

بل الوجود كله هو الله

وإنما نحن إشعاعات وجوده

في وجودنا الذي لم ندركه

لا في نقائصنا التي لا نعلم سواها

ولهذا كان توحيد الخواص



كَمَالُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

حاصل عند الله بالأمر الواحدة
الذي هو كالمح للبصر بل هو أقرب
فلا تدرج ولا حدثان
لأنه غالب على أمره لا يغلبه
ومشيئته ماضية لا يمنعها مشيئة
وإليه منقاد
وإنما هي مدّ ظل، لا شك يفيء إليه
فالكل إليه راجعون



كَمَالُ الانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

اقتضى أن يكون كمال القطيعة

فخلق الله أسفل العوالم متدرّجاً

من أعلى عليّين

وأودع في كلّ عالم حضرة تدلّ عليه

وصار كلّ عالم وحدة وكثرة

وحدة تدلّ عليه وتتصلّ به

فهي حبل وصاله

وكثرة تحجب عنه

فهي سبب انفصاله

فمن عبر العوالم بشهود الحضرات

متجلّية بالتوحيد

بعد نفض غبار الكثرات بتلك الفناءات

نال كمال الانقطاع



كَمَالُ الانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

يَحْصُلُ انْقِطَاعاً بَعْدَ انْقِطَاعٍ
وَلَيْسَ الْانْقِطَاعُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ الْانْقِطَاعِ عَمَّا سِوَاهُ
وَلَا يَكُونُ الْانْقِطَاعُ إِلَّا بِهِ
فَإِذَا تَجَلَّى بِالْجَلَالِ عَلَى أَصْقَاعِ الْجِبَالِ
فَانْدَكَّتْ جِبَالُ الْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ وَالذَّوَاتِ
وَحَصَلَ بَعْدَ كُلِّ جَلالٍ جَذْبَةٌ جَمالٍ
بِظَهْوَرِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ
عَلَى مَنْصَّاتِ التَّوْحِيدِ فِي الْحَضَرَاتِ
ارْتَقَى فِي مَرَاتِبِ الْانْقِطَاعِ

حَتَّى يَبْلُغَ كَمالَهُ



كَمال الانقطاع إلى الله

أعظم منّة إلهيّة
لا تُنال بالاستحقاق
فكل منّة قديم وسابق على كل خلق
ولا يكون إلا بقهر الجلال
وجذبة الجمال
عالمًا بعد عالم
وحضرة بعد حضرة
كل حضرة تشهده شيئاً من الجمال
حتى يبلغ في الجمال غايته
وكل عالم يشهده شيئاً من الجلال
حتى يبلغ في الجلال غايته
هناك حيث لا يكون الجلال ساتراً ولا الجمال
هناك حيث الجمال عين الجلال
هناك الاسم الأعظم

حيث كمال الانقطاع



كَمال الانقطاع إلى الله

لا يكون إلا بتكبير الله عن كل شيء
فالله أكبر من وصف الجلال
وهو أكبر من أن يوصف بالجمال
ولهذا كان اسمه الأعظم الذي هو فوق كل وصف
لأنه جمع كل الأسماء ونفاها في حضرة الذات
فإذا بلغت مقام الاسم الأعظم
بتربية الجلال والجمال
سائراً من الكثرة إلى الوحدة
ومن الوحدة إلى الكثرة بالوحدة
فيمكنك أن تكبر الله على الحقيقة
لأنك أدركت كمال الانقطاع



كمال الانقطاع إلى الله

يتطلب منك سبحاً طويلاً

في عوالم الوجود ومراتبه

حينما ترى النقص بشهود الكمال

فتنزه الحقيقة عن نقصك

الذي نسبته إليها وتسير

وما دامت مسبحاً فأنت سالك

حتى تكبر الله عن تسبيحك

هناك الكمال الذي لا يرى معه أي نقص

هناك الاسم الأعظم

هناك كمال الانقطاع



كَمالِ الانْقِطاعِ إلى اللهِ

هو الوصول إلى المنقطعين

الذين عبروا العوالم، وصار وجودهم حضرات وجوده

وسمعوا في قاب قوسين مناجاة السرّ

فصعقوا وأفاقوا

وشاهدوا كلّ شيء منه جميلاً

وأحبّوا كلّ شيء لحبه

فلم يطيقوا الغير والغيريّة

ولا الكثرة ولا القطيعة

وعلموا السرّ في المناجاة

حين سمعوا مقارعة الذات

فحملوا السرّ ونزلوا به إلى أسفل سافلين

عسى أن يُرجعوا كلّ شيء إلى أصله

حيث كمال الانقطاع



كَمال الانقطاع إلى الله

لا يكون إلا بمعونة المنقطعين
الذين صار وجودهم عين المراتب
فأينما احتجنا إلى نور التوحيد
أضاءوا
وأينما غشيتنا ظلمات الكثرة
أناروا
لأنهم أهل الذكر فصاروا هم الذكر
ومن ذكرهم فقد ذكر الله
وهم المسبحون إلى ذاته

حيث كمال الانقطاع



كَمال الانقطاع إلى الله

لكي تتدرّج من أسفل سافلين
الذي هو عالم الطبيعة الدنيا
وترتقي إلى أعلى عليين
حيث كمال الانقطاع
لا بدّ لك من المعرفة والعلم
فلن يكون العالم عالماً بالنسبة لك
إلا إذا صار معلوماً لديك
ولن تبلغ شهود حضور الله فيه
إلا بالعجز عن معرفة كنهه
حينما يتجلّى الرّب لك في عالمك
فيكون كل شيء



كَمَالُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ

فأنت ممالك بقدّم المعرفة
ولن تعرف الله إلّا بالعجز عن معرفته
حين تدرك تجلّياته في العوالم
وتعلم أنّه أكبر منها
حين يجذبك بنور الفطرة إلى ذاته
فلا تعلم كنه حقيقته
لكنّك لا تشعر إلّا به
هناك كمال الانقطاع

هذا هو السرّ مفصلاً
واليك تفصيل التفصيل





"مَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَّبَهُ، وَمَنْ
قَرَّبَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ
جَزَّاهُ فَقَدْ جَهَلَهُ، [وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ
إِلَيْهِ] وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهْ، وَمَنْ حَدَّهْ
فَقَدْ عَدَّهْ، وَمَنْ قَالَ: «فَيْمٍ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ،
وَمَنْ قَالَ: «عَلَامٌ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ".



نحو معرفة الله:
خارطة الطريق

نحو معرفة الله : خارطة الطريق

إذا كنّا نبحث عن كلمات تعبّر عن ما يبلغه الإنسان عند وصوله إلى غاية سيره التكاملية، فإنّ ذاك الشّعور الذي لا يخطر على قلب بشر، أو ذاك الإدراك الذي يشعر معه بلذّة أو سعادة لا تضاهيها سعادة، قد يقربنا إلى المعنى شيئاً ما.

إنّها تلك اللذّة التي تحصل من جرّاء وعينا للجوهر الوجود وتوجّهنا إلى حقيقة الاتّصال به؛ لأنّ هذا الجوهر هو منبع كل الكمالات وأصل كل الخيرات ومعدنها. وكيف لمن كان غارقاً في مستنقع الأوهام أن يصف هذه اللذّة، وهل بإمكان من غفل عن هذه الحقيقة أن يعرف معناها؟!

فمن اتصل بالوجود المطلق عن توجّه ووعي، وعاش هذا الذكر بقلبه ولبّه لن يشغله شعور بشيء دونه، ولن يحجبه عنه أي شيء سواه. وهذا هو الذّكر الحقيقي، بل حقيقة الذّكر. فمعدن العظمة مستول والذاكر لا يتوهم لنفسه وجوداً ولا لغيره معنى. وإنّما صارت كل الأشياء أشعة ذاك الوجود المطلق الصرف.

ولأنّه ما نعمة مذكور عند هذه الحقيقة إلّا شؤونها الذاتية، من الأسماء

الجمالية والجلالية المتشعشة من شأنها الأعظم وتجليها الأتم الأكرم، فإذا
ذكرتها على الحقيقة، بذهولك وغيبتك عن أوهامك وأباطيلك، ذكرتكَ على
الحقيقة، كما وعد في كتابه (اذكروني أذكركم).. وهو التعبير عن صيرورتك
متحققاً باسمه الأعظم؛ لأنه لا يليق بالذكر عند الله تعالى إلا شأنه الأعظم.
وإنما يذكرك إذا كنت مظهر هذا الاسم. ولذلك خلقت.

وأنت لا تدري، فلعلّ عاقبة أمرك هي كمال الانقطاع هذا. فأنت عنده
مذكور ولا تدري!

وليس لك من طريق لتعرف حقيقة أمرك إلا أن يعرض عليك تجلياته
الأخرى الأدنى، فإذا اشحت بوجهك عنها مولياً شطره، فاعلم أنك سائرٌ
إليه.. ولأنه لطيفٌ بعباده، فقد أعدّ وهياً لك كل أنواع التجليات ومراتبها.



"سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ،
وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلَا
اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعِدُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا
قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ."



غاية الله:
ظهور الكنز المخفى

غاية الله : ظهور الكثر المخفي

إنّ البحث عن معنى "غاية أي موجود" يصبح جديراً إذا كان هذا الموجود عالماً - أو قابلاً للعلم - ومريداً ومختاراً. وفي غير هذه الصورة، فإنه يستحسن أن نقول أن غايته تكون لغيره فما لم يتصف بالإرادة الذاتية، كان تابعا لإرادة غيره؛ فلا غاية له بذاته!

كما أنّ الغاية قد تتعلّق بذات الشيء أو صفته أو فعله. فيقال غاية الذات أو غاية الفعل. وإن كانت الصفات ليست سوى تجلي الذات أو تكشف عنها. وكذلك الأفعال إنما تظهر صفة ما أو تكشف عن غايتها.

إن معرفة الغاية هي أفضل وسيلة للتعرف إلى ذات الشيء، لأنّها أفضل ما يعبر عنه. ولو تعرّفنا على أحد ما، ولم نتعرّف على غايته فكأنّنا ما عرفناه؛ لأنّها روح كل ما يتصف به من خصائص وسمات والموجّه الواقعي لها. فلو نظرنا إلى القدرة مثلاً، لشاهدنا جمالها فقط عندما تنطلق في عملها من دوافع جميلة؛ وكيف أن جمالها يختفي أو ينعدم، عندما يُعملها صاحبها لغايات قبيحة.

ولعلّ الإعراض عن البحث حول غاية الله هو الذي يسد طريق إدراك

جمال الصفات الإلهية ويجعل الحديث عنها جافاً، ولعلمهم ظنوا أن معنى تحقق الغاية أو وجود هدفية يستلزم دوماً الانفعال بالغير أو حدوث أحوال وطرّ وصفات بعد العدم؛ وهي حالات لا تنسجم مع معنى الألوهية وحقيقة الغنى الذاتي والقدم الأزلي!

لكن جمال المشهد الإلهي كلّ يعتمد على فهم معنى الغاية بالنسبة لله تعالى؛ وبدون هذا الفهم سنبقى محرومين من أهم المعارف الربوبية، وسيتحوّل ما نفهمه حول الرّب العظيم إلى مفهوم جامد؛ لا بل سيكون في نظرنا موجوداً منفعلاً بغيره! وهذا يعني أن ما كنّا نفرّ منه قد وقعنا فيه من حيث لا ندري.. وتعدّ هذه المسألة كقاعدة ثابتة بشأن الله سبحانه، فالانحراف في الفهم يعني الخطأ والتقصير بحقه، والجاهل فيه ليس معذوراً، وكيف يكون معذوراً، وقد تجلّى الحق لخلقه في كل الأشياء، وأبان لهم الطريق إليه عند كل منعطف..

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "إنّ للسان والتكلم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود، وحيث أنّ الحمد في كل مورد على الجميل والمدح على الجمال والكمال، فالحقّ جلّ وعلا بحسب علمه الذاتي شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهوية بأتم مراتب العلم والشهود فكان مبتهجاً بذاته الجميلة بأشدّ مراتب الابتهاج." [مراجعات السالكين].

إنّ الابتهاج (الذي ندرك معناه حضورياً لأننا نعيشه ولو لم نستطع تعريفه مفهوماً) هو حصيلة إدراك الكمال، فاتّصال الذات العالمة بكمال ما هو الذي يبعث على الابتهاج، وإذا كان هذا الاتّصال حادثاً، فإنّ الابتهاج سيكون مثله. أمّا إذا كان الاتّصال قديماً (بمعنى أنه لم يحدث بعد أن لم يكن)، فإنّ الابتهاج به لا يمكن أن يتّصف بالحدوث.

ولأنّ كمال ذات الله تعالى لا ينفصل عنها، فإنّ ابتهاجه به لا يكون طارئاً أو حادئاً أبداً. ولأنّ كمالاته هي عين ذاته، فإنّ الابتهاج الإلهي بكماله ليس انفعالاً للذات بغيرها حتى يستلزم النقص أو الاحتياج.

أجل لو ابتهجنا - أي انفعلنا - من ظهور غيرنا بكمال ما، فإنّ هذا منشؤه فقدان والنقصان. لكنّ الحقّ تعالى لا يمكن أن يفعل بغيره، لأنّه ما ثمة كمال لغيره، بل لا معنى للغير والغيرية مقابل الألوهية، فوجود أي شيء آخر غيره في مقابله يعني أنّه سبحانه بات محدوداً والمحدود ناقص، والنّاقص معلول لغيره ومخلوق؛ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

أما لو فرضنا حصول الانفعال بالذات في صقع الذات، فأين الإشكال؟ ولماذا قد يستلزم نقصاً في الذات؟!

إنّ الابتهاج الحاصل من إدراك الكمال هو كمال بعد ذاته، والخلوّ منه في أي ذات عالمة يعد نقصاً فادحاً. فالابتهاج بما هو هو - وبمعزل عن أسبابه - صفة كمالية للشيء. فلو سلبناه عن الله تعالى، لكنّا ممن ينسب إليه أسوأ النّقص وأقبحها.

أما الغاية فلا تعني أكثر من وجود تفسير منطقيّ وحكيم لوجود الشيء أو لآتصافه بصفة ما أو لصدور فعل معين منه. ولأنّ المنطق الوحيد وراء وجود الممكن الفقير النّاقص أو صدور الأفعال منه هو: السّير إلى الكمال أو التحقق به، فقد ارتبط مفهوم الغاية عندنا بمعنى الانتقال من النّقص إلى الكمال. وبتنا عندها أينما ذكرّت الغاية نتصور حركة انتقالية من النقص إلى الكمال. وعندما قمنا بقياس الحقّ تعالى على الموجودات المحتاجة والحادثة، نفينا عنه الغاية، حتى لا ننسب إليه النقص والاحتياج. إلّا أننا لو تأملنا قليلاً لوجدنا أننا نلغي أي منطق لوجود الله أو فعله، ونصبح كالذين قالوا: لو جاز على الله العدم لما ضرّ العالم!!

وعليه، فإنَّ معنى الغاية لا يستلزم الانتقال ولا التحوّل أو التبدّل. بل يعني تلك الرابطة المنطقيّة بين ذات الشيء وفعله، وبالنسبة لله تعالى، فالغاية تتجلى عندما تتمكّن من ربط أفعاله كلّها - التي يعبر عنها بالفعل المطلق والأمر الواحدة - بذاته الغنيّة بالذات ربطاً منطقيّاً؛ ونفهم بالتالي، معنى صدور الفعل من الذات الغنيّة ومعنى الإيجاد أو الخلق ممّن هو غني عن الخلق والإيجاد، ونبتعد عن أي تفسير يؤدّي في النّهاية إلى الجهل بشأن الله، مع ما يستلزمه هذا التفسير من أخطاء بحقه سبحانه.

وإذا عرفنا أنّ الغاية الإلهيّة لا تستلزم الانتقال والتحوّل والتّكامل في الذات، صار بإمكاننا أن نربط بين غاية الفعل الإلهي والذات الفاعلة انطلاقاً من معرفة الذات. فغاية الفعل وسره سيظهر، وسنعرف ما هي الحكمة من الخلق والإيجاد إذا عرفنا أهم صفات الذات. ذلك، لأننا نتدرّج في المعرفة، بسبب غيبتنا عن الذات، من معرفة الفعل إلى الصّفة إلى الذات. فتكون الآثار في البداية بالنسبة للمحتجب دليلاً له إلى معرفة الفعل الذي نشأت منه الآثار. وإذا عرف الفعل دلّه على الصّفة التي نبع منها؛ حتّى إذا بلغ المرتبة القصوى من معرفة الصفات، حصل له مقام ادراك الاتصال بمعدن الذات، وهو أحد معاني التكبير بقولنا الله أكبر من أن يوصف، وهو كمال التوحيد.

في بحثنا عن الغاية نساعد أذهاننا على هذا الانتقال والتّكامل المعرفي، دون أن ننسب إلى الذات مثل هذا الانتقال والتحوّل. فعندما نقول أنّ الصّفات الإلهيّة عبارة عن ظهور الذات بالكمالات، فلا نعني أنّ الله تعالى عبارة عن ذات تضاف إليها صفات وكمالات. وعندما نقول أنّ الأفعال هي ظهور الصّفات، فلا نعني أنّ الله تعالى لم يكن فاعلاً في زمن ما ثمّ أصبح فاعلاً؛ فهذا الظهور وهذا التجلي إنما يدركه سالكو طريق الكمال

على الترتيب الذي أشرنا إليه. ولهذا، فما ثمة تدرّج أو تكامل إلا في حركة المعرفة عند الإنسان المتكامل.

أجل إنّ الولي الكامل والخليفة الواصل الذي كانت بداية خطوات معرفته من مقام "الله أكبر من أن يوصف"، ولم يكن محجوباً يوماً عن ربّه، واستجاب بالروح والسر لتكبير الأذان الأول، فإنّه لا يتدرج في معرفة التجليات من تجليات الفعل إلى الصّفة ثمّ الذات؛

يقول الإمام الخميني رحمته: "فبحسب الفعل المطلق ليس لفعل الحقّ تعالى غاية سوى ذاته المقدّسة كما هو مبرهنٌ في محلّه. وإذا نظرنا الى الأفعال الجزئية أيضاً فغاية خلقه الإنسان عالم الغيب المطلق كما ورد في القدسيات "يا بن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي". وفي القرآن الشريف يخاطب موسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السلام ويقول ﴿اصطنعتك لنفسيّ﴾ وأيضاً يقول: ﴿وأنا اخترتك﴾. فالإنسان مخلوقٌ لأجل الله ومصنوعٌ لذاته المقدّسة وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات، وغاية سيره الوصول إلى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف بفناء الله، ومعاذه الى الله ومن الله وفي الله وبالله؛ كما يقول سبحانه في القرآن: ﴿إِنَّ الْبَيْنَا أَيْبَهُمْ﴾. [معراج السالكين].

فيكون المعنى الأقرب للغاية الإلهيّة من خلق الأكوان عبارة عن: ابتهاج الحق بذاته بإدراك كمالاتها وعظمتها المطلقة الظاهرة في عملية الخلق. وقد يعبّر عن عملية الخلق كلها بالفعل المطلق (الذي هو تجلي المشيئة الإلهيّة المطلقة) التي خلق الأشياء كلها بها.

ولن يكون الفعل المطلق - الذي هو خلق الأشياء كلها - وكذلك الإيجاد الإلهي العام بذوي معنى، إذا ظننا أنه كان لأجل غير ذات الله تقدس وتعالى. لأنّه إذا لم يكن ثمة خلق، فلا غير أصلاً. وإذا لم يكن للأغيار وجود، فلماذا

يخلقهم الله أو يخلق غيرهم لهم وهم في كمن العدم؟!
ففي المشهد العام للخلق، يكون كل ما سوى الله مخلوقاً لأجل ذات
الله. لأنه لا موجود سواه.

وفي المشهد الثاني، فإنّ الذين اتّصفوا بجميع صفات الكمال، وكانوا
مظاهر تامّة لأسمائه الحسنی، أصبحوا بأنفسهم غاية المخلوقات الأخرى.
"إنّا صنّاع ربنا، والخلق بعدُ صنّاع لنا". (نهج البلاغة)

وعليه، تكون غاية عالم الخلقة (وهو كل ما سوى ذات الله) عبارة عن
التحقّق بالاسم الأعظم والتجلّي الأكرم، فيكون التحقّق عبارة عن الظهور
بهذا الاسم؛ لأنّ العالم كله ليس سوى ظهور الفعل المطلق. ولا غاية للفعل
الإلهيّ سوى الصّفات، ولا غاية للصّفات سوى مقام الاسم الأعظم الذي
هو فوق مقام كثرة الأسماء والصّفات.

وهكذا، إذا فهمنا المعنى الأساسي للغاية بأنّها عبارة عن الرّبط المنطقيّ
بين المراتب، فإنّ كل مرتبة عليا ستكون غاية لمن دونها. وإن كانت الذات
هي غاية الغايات؛ يقول الإمام الخميني: "اعلم أن لكلّ من موجودات عوالم
الغيب والشهادة والدنيا والآخرة مبدأ ومعاداً، وإن كان مبدأ الكل ومرجعه
الهوية الإلهية". [مراج الشلكن]

فتبين مما قيل أن ابتهاج ذات الحق بكماله، والذي يتحقّق بظهوره في
مرتبة الاسم الأعظم هو غاية كل تجلّي وكل فعل. وما نشاهده من تجليات
الاسماء والصفات ليس سوى ظهور هذا الابتهاج الذي يعد من لوازم
الذات المتصفة بالكمال والغنى الذاتي. وإن كل فعل من أفعال الله ليس
سوى ظهور هذا الحركة الحبية المعبر عنها بمقتضى الحب الذاتي. يقول الإمام
الخميني: "اعلم ايها الطالب للحق والحقيقة أن الحق تبارك وتعالى لما خلق
نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود بحسب الحب الذاتي بالمعروفة في

حضرة الاسماء والصفات. [معراج السالكين]

فمرجع الكل وغايته هو الذات والهوية الغيبية وإن ظهر لنا في نظام السيرورة والتحول مظهراً ناقصاً، فالكل عنده محبوب؛ وكل مسائلك إليك حبيبة. وإنما حصل التفاضل بين المظاهر في مشهد العارف وشهود المكاشف. والواحد لا يصدر منه إلا الواحد وظل الجميل جميل. فما ظهر بالنقص فهو من محدودية التعيّن لا العين. وعلى السالك أن يتبرأ من كل نقص وأن يستعيز من كل شر، حتى يتسنى له شهود الجمال المطلق للمحبيب في كل شيء.

والعلاقة بين الابتهاج والحب هي علاقة وثيقة. فما هو مبعث الابتهاج محبوب. ولأنّ الله تعالى يبتهج بذاته التي لها صفات الكمال على الإطلاق، فذاته هي المحبوب عنده ولا غير. لأنّ الغير هو ما يقابل ذات الحقّ تعالى؛ وما ثمة موجود سواه، وكلّ قائم به. فهو المحبوب المطلوب بذاته لذاته.

فأيّ موجود ظهر لنا بصورة الغيرية وجهة المقابلة، فإن صورته هذه غير محبوبة عند الله تعالى. أما إذا شهدنا حقيقته، فهذا يعني أننا أدركنا جهة انتسابه إلى أصله؛ وهي الحقيقة المحبوبة عند الله حتماً. ولا يتحقق انتساب أي موجود إلى الحقّ تعالى إلا بواسطة اسمه الأعظم وتجليه الأتم الأكرم.

إن وجود الله تعالى مطلق؛ وعليه، لا يمكن تصور وجود آخر مقابل وجوده المطلق. وكل من كان مظهراً لهذا الإطلاق، فهو محبوب عنده. ولأنّ المظاهر درجات من حيث إظهار الكمالات، فالمحبوبون عند الله تعالى درجات أيضاً. وأحبّ الأشياء إلى الله من لم يكن له من نفسه وفي مرتبة كماله آية جهة مغايرة، بحيث لو شاهدناه على الحقيقة لما رأينا فيه سوى العظمة الإلهية. وبحسب الأدلة والشواهد فإن النبي وآله هم المتحققون بمرتبة المحبوبة الكاملة. "إنّ الرّجوع إلى الإنسان الكامل هو

الرَّجُوع إلى الله لأنَّ الانسان الكامل فان مطلق وباقي ببقاء الله وليس له من عند نفسه تعيّن وإنيّة وأنانيّة؛ بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الاسم الأعظم" [معراج السالكين]

وأبغض الأشياء إلى الله، وأبعدها عن مقام رضاه، من لو شاهدناه على الحقيقة لمنعنا النظر إليه من رؤية جمال الحق تعالى ولو في مرتبة أو درجة من درجاته. وهو إبليس الذي يصنع الحجاب ويصنع الاحتجاب؛ فالشيطان اللعين ليس له من وراء إغوانه سوى جعل كل حقيقة وهماً وكل وهم حقيقة. ومن أجل ذلك كانت حقيقة الشيطنة عبارة عن حب النفس التي تقود إلى الإنيّة التي هي رؤية ما سوى الله تعالى.

"قد عرفت أنَّ الشيطان هنا عبارة عمّا سوى الله، فاعلم أنَّ الكفر بالشيطان هو اعتقاد أنَّ العالم غيب ما ظهر قط، وأنما الظاهر هو الله فحسب." [التعليقة على الفوائد الرضوية].

إنَّ وجود الشيطان في هذا العالم أمرٌ مهمٌّ ولازمٌ لإخراج مكنونات النفوس البشرية؛ وبفعل شرّه الظاهر يوجب العداء في هذه النفوس - إذا اهتدت - تجاه جميع مظاهر الشرّ والنقص، الأمر الذي يعد من مستلزمات الحركة التكامليّة التي أرادها الله تعالى للإنسان. كما أنَّ وجود الشيطان في جهنّم يمثّل إحدى وسائل التعذيب الكبرى للكفّار والمنافقين؛ فتتم بذلك الصّورة النارية والحقيقة الجهنميّة. ولهذا، كان وجوده محبوباً ومطلوباً من هذه الجهة ضمن هذين النظامين!

فالنّظام التكوينيّ الأعلى، وهو الجنّة، مستلزمٌ لنظام آخر وهو النّار. وهما مستلزمان لوجود العوالم الدنيا. وإذا كانت فلسفة وجود الدنيا هي الابتلاء والاختبار والتكامل والتسافل، فهذا يعني أنها ستنتهي إلى يوم الفصل لا ريب فيه: فريق في الجنة وفريق في السعير.. فلا تحقّق للجنّة الكاملة إلّا

بجهنّم الخلد. ولا تحقّق لهما إلا بوجود العوالم المتدرّجة.

ولكي تتحقّق جنّة الخلد، لا بد من وجود الإنسان الكامل الذي يعد أعظم موجوداتها (بل حقيقة وجودها)، فهي وطنه وله خلقت وبه قامت. فهي دار الواصلين إلى الكمال، وهي غاية الحركة الاستكمالية. ولكي يتحقّق أهلها بالكمال، لا بدّ لهم من طي رحلة التكامل وسفر الكمال. ومثل هذه الحركة الاستكمالية تحتاج إلى اجتناب النقص والنفور منه والحذر من مظاهره كلها. وليست جهنم سوى ظهور كل أشكال النقص ومراتبه، فهي دار الأشقياء الذين لم يسلكوا طريق الكمال وجعلوا سيرهم باتجاه الحرمان: قالوا إنا محرومون، ويقول الكافر يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله. ومثل هذا التحذّر والاجتناب لا يتحقّق إلا إذا التفت الإنسان إلى بواعث النيران وأسباب العذاب الجهنمي. وهي هنا عبارة عن الصّفات المقابلة للحقّ تعالى وكمالاته (التي تظهر في العقائد الباطلة وذنابل الصفات وقبائح الأفعال). ومثل هذه الصّفات لا تظهر للناس إلا عندما يحصل بينهم التواصل والاحتكاك (وهو روح الحياة الاجتماعية وأساس التواجد في الدنيا). وجميع هذه الحالات والصفات إنما تظهر بفعل الإقبال على الدنيا وطلبها والتوجه إليها. ولا يُقبل الإنسان عليها إلا إذا كانت مزينة له (ذات بهجة ولذة). وهذا هو دور الشيطان وسرّ وجوده.

إنّ دور الشيطان في تزيين كل أشكال الباطل كان واضحاً، ومنذ اللحظة الأولى للاختبار الإلهي بقوله تعالى: "لا تقربا هذه الشجرة". وكان حسد إبليس لآدم دافعاً له لأن يزيّن له ولزوجه استحقاق مقام ليس أهلاً له، لكي يتجاوز ويعتدي، فيظلم نفسه ويهوي.

وإنّما أهلك إبليس جبلاً كثيراً من الإنس لإصرارهم - رغم معرفتهم أنهم ليسوا مستحقين للمقامات - على نيل ما زيّن لهم. ولو تأملنا في جميع

المعاصي وكل أشكال الفساد في الدنيا لرأيناها ترجع إلى هذه المعصية وتتغذى منها وتشكل حولها، وهي عبارة عن تصدي البعض لمقامات وأدوار ومراتب ومناصب ليست لهم لأنهم ليسوا أهلاً لها، ولو أنهم اعترفوا بعدم الأهلية والقدرة، لمخرجوا من الظلومية (التي هي الاعتداء والتجاوز) والجهولية (التي هي عدم معرفة المقام)، ولفتح الله لهم سبيلاً إليه.

فالاعتراف بالعجز عن نيل المقام هو الدليل على حصول المعرفة الحقيقية؛ ولأن غاية المعرفة بالمقامات الإلهية هي الاعتراف بالعجز عن معرفتها وإدراك كنهها.

وهذا التزيين من قبل إبليس هو أصل أصول جميع أنواع التزيينات الإبليسية. وذلك الاعتراف بالعجز من قبل الإنسان أصل أصول جميع الكمالات المعنوية.

إن الدنيا بكل ما فيها لا يمكن أن تكون غاية الفعل الإلهي؛ لأنها دار النقص. ولهذا، لم يكن أي شيء منها محبوباً بالذات. لكن، لما كانت الجنة المحبوبة (التي تمثل غاية الفعل) مرتبطة بالدنيا، وكان تحققها متوقفاً على هذه الحركة الانعطافية التكاملية التي تتحقق في الدنيا، أصبحت الدنيا محبوبة بالتبع؛ فخلقها الله وأوجدتها. وصار كل ما يتعلق بها كذلك. يقول الإمام الخميني (رحمته الله): "اعلم أن ربوبية الحق جل شأنه للعالمين على نحوين:

الأول: الربوبية العامة التي تشارك فيها جميع موجودات العالم. وهي التربية التكوينية التي توصل كل موجود من حدّ النقص إلى الكمال اللائق له تحت تصرف الربوبية. وتقع جميع الترقيات الطبيعية والجوهرية والحركات والتطورات الذاتية والعرضية تحت التصرفات الربوبية.

وبالجملة، تكون التربية التكوينية من منزل مادة المواد والهيولى الأولى إلى منزل الحيوانية وحصول القوى الجسمانية والروحانية الحيوانية، وكل

منها يشهد بأن الله جلّ جلاله ربّي.

والثاني من مراتب الربوبية، الربوبية التشريعية المختصة بالنوع الانساني وليس لسائر الموجودات فيها نصيب، وهذه التربية هي هداية طرق النجاة وإراءة سبيل السعادة والانسانية والتحذير من منافياتها التي أظهرها الله سبحانه بواسطة الأنبياء عليهم السلام. فإذا دخل إنسان بقدّم اختياره تحت تربية ربّ العالمين وتصرفه وصار مربّي بتلك التربية بحيث لم تكن تصرفات أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية تصرفات نفسانية بل كانت تصرفات الهيّة وروبيّة يصل الى مرتبة الكمال الإنساني المختصّ بالنوع الإنساني. [معراج الشفيعين].

لقد أردنا من تفسير ظاهرة إبليس في عالم الخلقة الإلهية، أن نتناول قضية الغاية الإلهية في مسألة استعصت على فهم البشر. فهم يتساءلون دوماً: كيف يخلق الله شيئاً لا يحبّه؟ وإذا كان في الوجود ما لا يحبّه الله، فلا معنى أن يصدر بمقتضى المحبوبة، وعليه لن يكون حب الله لذاته سرّ الخلق والإيجاد؛ وسوف يضيع المبدأ الأصلي والجوهري لعملية الخلق فتضيع نحن ونحتار. وعندما يعجز الانسان عن اكتشاف حقيقة الرابطة بين عملية الخلق والتجلي من جهة وبين حبّ الله لذاته المقدسة من جهة أخرى، فقد يتجه إلى تبني تفاسير باطلة تؤدي إلى مأسّ مفجعة. فالبعض ممن عجز عن إدراك سر وجود إبليس والشرور، ذهب إلى القول بالثنائية في الوجود، واعتقد أن الله هو مبدأ الخيرات، وأن إبليس مبدأ الشرور. وهذا هو أحد أبرز مظاهر الشّرك في الحياة الدنيا وأصل الكثير من المفسدات. وذهب آخرون إلى نسبة الجبر والاضطرار إلى الذات الإلهية. وكأنّ إيجاد إبليس أمر اضطرّ إليه الإله لكي يجبر بعض النواقص في خلقه. وعجزوا عن إدراك الحكمة في الفعل الإلهي والغاية في الإيجاد الرباني؛ فأدى بهم ذلك إلى تضییع أعظم معاني

الحبّ الذاتي، وأغلقوا على أنفسهم باب معرفة الله والوصول إليه.
إن أفضل أبواب معرفة الله هو باب معرفة غاية الله. فإذا عرفنا معنى
الابتهاج وكماله، أدركنا معنى حب الله لذاته، ومعنى ظهور الفعل من منطلق
هذا الحب. وعندما تتمكّن من تفسير آية ظاهرة كونية على أساس هذا الحبّ
الذاتي، فإننا نكون قد تعرّفنا عليها من حيث ينبغي. لأنّ القيمة الواقعية لأيّ
موجود هي في مدى محبوبيته عند الله سبحانه، ولم يكن ترتيب سلسلة
الموجودات من مراتب الغيب والشهادة إلّا على أساس هذه المحبوبة.

لقد كان الإيجاد بفضل حبّ الله لذاته (الحبّ الذاتي). وبسبب حبّه
لذاته، أحبّ مظاهر ذاته؛ وبسبب حبّ مظاهر ذاته أحبّ أفعاله؛ وأحبّ تبعاً
لأفعاله آثار أفعاله. وإنّ معنى رجوع الكلّ إليه إنّما يتّضح على ضوء هذا
الحبّ. فبحبّ الذات للذات ينبغي أن يكون كل شيء مظهراً تامّاً لها. وعليه،
يكون الوجود كله في نهاية سيره وغاية أمده عبارة عن الظهور بالكمال
المطلق الذي هو ظل الذات المقدسة. وإذا كنا نشاهد عالم الخلقة بغير هذه
الحالة الكمالية المطلقة، فنحن لم ندرك غايته، ولم نعرف حقيقته ورتبته؛ ولا
بد أن يأتي اليوم الذي نشهد فيه تلك الحقيقة الكاملة عند الله تعالى: ﴿لَمَنِ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وهذا هو معنى الرجوع والرجعى إلى الله.
وهذا اليوم - الذي هو عبارة عن ظهور العظمة الإلهية المطلقة في كلّ
الأشياء - متحقّق بالنسبة لله (فلا تغيير ولا حدوث ولا تصرّم بالنسبة لله
تعالى). لأن كل هذه التحولات ترجع إلى عجز الفاعل أو ضعف قابلية
المتفعل. ولما كان كل قابل منه تعالى ومن فيضه الأقدس عن كل أشكال
النقص، ولأن فاعليته مطلقة بقوله كن فيكون، فليس في صقع الذات انتظار
أو ترقّب. فكل ما شاء متحقّق. سبحانه الله عمّا يصفون.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "اعلم أنّ لكلّ موجود من موجودات عوالم

الغيب والشهادة والدنيا والآخرة مبدأً ومعاداً، وإن كان مبدأ الكل ومرجه الهويّة الإلهيّة. ولكن حيث أنّه ليس للذات المقدّسة جلا وعلا من حيث هو بلا حجاب الأسماء تجلّ للموجودات العالية والسافلة، وبحسب هذا المقام اللامقامي لا اسم له ولا رسم ولا يتّصف بالأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية، وليس لأحد من الموجودات معه تناسب ولا ارتباط ولا اختلاط، أين التراب وربّ الأرباب، (كما ذكرتُ تفصيل هذه اللطيفة مستقصي في كتاب مصباح الهداية)، فمبدئية ذاته المقدّسة ومصدريّتها في الحجب الأسمائية. والاسم في الوقت الذي هو عين المسمّى هو حجاب أيضاً، فالتجلّي في عوالم الغيب والشهادة على حسب الأسماء وفي حجابها. فمن هذه الجّهة للذات المقدّسة وفي جلوات الأسماء والصفات تجلّيات في الحضرة العلميّة يسمّي أهل المعرفة تعيّناتها بالأعيان الثابتة. فبناءً على هذا يلزم لكلّ تجلّ اسمي في الحضرة العلميّة عين ثابتة. ولكلّ اسم بتعيّنه العلميّ مظهر في النشأة الخارجية، ومبدأ هذا المظهر ومرجه إلى الاسم الذي يناسبه ورجوع كلّ الموجودات من عالم الكثرة إلى غيب الاسم الذي هو مصدره ومبدؤه عبارة عن صراطه المستقيم، فلكلّ سير وصراط مخصوص ومبدأ ومرجع مقدّر في الحضرة العلمية طوعاً أو كرهاً، واختلاف المظاهر والصّراط باختلاف الظاهر وحضرات الأسماء." [معراج الشّلكين].

أما بالنسبة للذين يعيشون في قالب الزمان والتحول، فهم يشاهدون - إذا فتحوا عيون قلوبهم - حركة تكاملية ذات مبدأ ومعاد، ولو قدر لهم أن يشاهدوا المعاد لرأوه في المبدأ؛ كما بدأكم تعودون. ولشهدوا أمراً واحداً لا غير: وما أمرنا إلا واحدة. ولعلموا كيف أن الله تعالى خلق المشيئة بنفسها وخلق الأشياء بها، حيث الكل ليسوا سوى ظهور مشيئة واحدة. فهذه الحركة الانعطافيّة الاستدارية القوسية (من مبدأ المبادئ إلى منتهى النهايات

وهي ذات الحق المتعال، نشاهدها، فيما لو سلكننا الصراط المستقيم، كحركة متدرّجة من أبعد المظاهر إلى أدناها. ودور العرفان أن يكشف لنا عن مراتبها ويخبرنا عن خصائصها لكي نكون مستعدين لقبول حقيقتها فيما لو تجلّت لنا؛ فلا ننكرها ونحرم من ثمارها وجمالها.

إنّ هذه المعرفة، التي تكون في بدء الأمر حصوليّة متعلّقة بالمفاهيم الكلية، تهَيّئ القلب لمشاهدة ظهور التجليات وحضورها، فيتحقّق له الإقبال عليها على طريق التحقّق بها في نهاية المطاف. فهي وسيلة اشتعال جذوة الحبّ الذي به يرجع أي موجود إلى ربّه. ففي البداية يكون النور للإنسان السالك ظاهراً وناره مخفية، ثم تتجلّى له النار التي اقتبس منها، فيسلك إليها وبها، فنيران الحبّ عند الكاملين أساس النور والمعرفة. وبالنسبة للنّاقصين المحجوبين، لن تنطلق شرارة نيران العشق الإلهي إلاّ بعد رؤية قبس نورها من بعيد.

"اعلم أيّها الطالب للحقّ والحقيقة أنّ الحق تبارك وتعالى لما خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود بحسب الحبّ الذاتيّ بالمعروفة في حضرة الأسماء والصفات بمقتضى الحديث الشريف: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحبّ الذاتيّ والعشق الجبليّ، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الإلهيّة ونار العشق الرّبانيّ تتوجّه إلى الكمال المطلق وتطلب وتعشق الجميل على الإطلاق وجعل سبحانه لكلّ واحد منها نوراً فطريّاً إلهيّاً يجد بذلك النور طريق الوصول إلى المقصد والمقصود، وهذه النّار وهذا النور أحدهما رُفرف الوصول والآخر براق العروج، ولعلّ براق رسول الله ورُفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثّلة ملكيّة لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنّة التي هي باطن هذا العالم.

وحيث أنّ الموجودات نزلت في مراتب التعيينات وحُجبت عن جمال الجميل المحبوب جلّت عظمتها، فيخرجها الحقّ تعالى بهذه النّار والنّور عن حجب التعيينات الظلمانية والإيتيات النورانية بالاسم المبارك الهادي الذي هو حقيقة هذه الرقائق ويوصلها إلى المقصد الحقيقيّ وجوار محبوبها في أقرب الطرق، فذاك النّور نور هداية الحقّ تعالى وتلك النّار نار التّوفيق الإلهي، والسّلوک بالطّريق الأقرب هو الصّراط المستقيم والحقّ تعالى على ذاك الصّراط المستقيم. ولعلّ الإشارة إلى هذه الهداية وهذا السّير وهذا المقصد في الآية الشريفة: ﴿ما من دابةٍ إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراطٍ مستقيم﴾ كما هو ظاهر لأهل المعرفة. [معراج السالكين].

فقد اتضح على ضوء ما قلنا ما يلي:

أنّ الابتهاج متفرع من إدراك الكمال ومشاهدته
وأن الحق تعالى أشدّ مبتهج بذاته، لأنّه مدرك لأعظم الكمالات
ولأنّ كل كمال له على نحو الإطلاق

فما ثمة محبوب له إلّا ذاته

كما أنّ الفعل هو ظهور الصفة

والصفة هي ظهور الذات

فكان الفعل ظهور الذات للذات

لأنّه ما ثمة ذات إلّا ذاته تعالى وتقدّس

فكان فعله ظهور كمالاته لذاته

وصار محبوباً له

وليس الخلق سوى ظهور الفعل

حيث الخلق عبارة عن ظهور الصفات والكمالات

وحيث نرى مخلوقاً ليس مظهراً تاماً لذاته، فهو مخلوق لغيره
لمن يكون في النهاية مظهراً تاماً لذات الحق
كما أن كل تجلٍ لا يكون مظهراً تاماً لا يكون محبوباً عنده
إلا بتبعية التجلي الأعظم الذي هو التجلي الأتم الأكرم
فعلّمنا أن الله تعالى قد خلق الكون كله على صورة كماله وجماله
الأعظم
وفي الحديث القدسي: يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي
قال الله تعالى بشأن الإنسان الكامل: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾.

فما هو دور معرفة الإنسان برّبه في ظهور عظمته؟

"إنّ من أعلى مراتب الخسران والضّرر الاكتفاء بصورة الصّلاة
وقشرها والحرمان من بركاتها وكمالاتها الباطنيّة التي توجب السّعادات
الأبدية، بل جوار ربّ العزة ومراقبة العروج إلى مقام الوصول إلى وصال
المحبوب المطلق الذي هو غاية آمال الأولياء ومنتهى أمنية أصحاب المعرفة
وأولي القلوب". [معراج السالكين].

لعلك قد اتضح لديك أن "الرّجوع إلى الله" هو المعنى الذي ذكره الله
في كتابه ليدلّنا على حقيقة كبرى، وهي أننا خلقنا لأجله. وعندما نقول: ﴿إنا
لله وإنا إليه راجعون﴾؛ فإننا نستحضر حقيقة المبدأ والمعاد اللذين يشكّلان
تامة دائرة الوجود. وما أجمل ما قاله أمير المؤمنين في هذا الذّكر: "إِنَّ قَوْلَنَا
إِنَّا لِلَّهِ إِفْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمَلِكِ وَقَوْلَنَا وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِفْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا

بِالْهُلْكِ" (إنهيج البلاغ). فلن يظهر لنا المعنى التام لرجوع الأشياء كلها إلى الله (وهو معادها)، ما لم نفهم معنى المالكية الإلهية لهذه الأشياء (وهو مبدؤها)؛ وحيث أن كل شيء صدر منه، فلا بد أن يرجع إليه؛ رجوعاً لا بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، وألا استلزم هذا الكلام اعتبار الرب الخالق المتعال محدوداً في المكان فيكون مخلوقاً؛ بل بمعنى الرجوع إلى شأنه تعالى ومقامه. وعليه، فلا يمكن فهم حقيقة الرجوع إلى الله تعالى، إلا إذا عرفنا شأنه سبحانه. ولو تأملنا قليلاً في معنى مقام الإله المطلق، لعرفنا أنه لا يمكن تصور مقام معه أو مقابله. فكل الأشياء عدم عنده، ولا غير ولا أحد سواء. وكل ما نراه ليس سوى ظل وجوده.

الرجوع إلى الله يعني الرجوع إلى الذات المقدسة؛ لأنه ما ثمة ذات سوى ذاته. ففي الوجود لا حديث إلا عن الذوات، وحيث أن ذات الإله تعالى مطلقة الوجود، (لاستحالة أن تكون محدودة، وإلا صارت معلولة ومخلوقة)، فهو المتفرد بالذات والوجود وفي الحديث عن الشهود، لا يكون للإنسان سوى مشاهدة المظاهر وإدراك الظهور، حيث لا طريق إلى كنه الذات. وفي الظهور لن يكون سوى مظاهره وكمالاته التي هي ظهور ذاته الأحدية. فكيف يكون لغيره ظهور ولا ذات إلا ذاته، ومن أين يتفرع الظهور بالكمال إن لم يكن ثمة ذات ووجود. وعليه، يكون شهودنا لكل الأشياء عند غاية ظهورها وتام تحققها شهوداً للمظهر الأكمل الأعظم؛ لأنه المظهر الأوحده للذات الأحدية. وإذا كان لا بد للذات من ظهور، فلماذا تظهر بمظاهر أدنى؟ وبعبارة أخرى، ما هو السبب وراء ظهور أي ذات بمظاهر وتجليات أدنى من تجليها الأعلى إلا وجود النقص أو العجز فيها؟ ففي الحقيقة لا ظهور لكمالات الحق تعالى إلا بالظهور الأعظم. فإذا ظهرت لنا القدرة، فينبغي أن تكون القدرة المطلقة، وإذا ظهر لنا العلم، فينبغي أن يكون العلم المطلق،

وهكذا بقية الصفات والتجليات. وفي دعاء السحر المعروف: "اللهم إني أسألك من أسمائك بأكبرها وكل أسمائك كبيرة اللهم إني أسألك باسمائك كلها". وهكذا بقية فقرات الدعاء. فليس من ظهور لأي كمال إلهي إلا بالظهور الأكمل. وكل نقص في الظهور فهو راجع إلى النقص في إدراكنا وشهودنا. نحن الذين نتحدث عن الله تعالى ومظاهرة؛ وعلينا أن نعلم أن كل نقص يرجع إلى حديثنا لا إلى الواقع.

فإذا كانت الحركة المهدية للمعرفة هي التي تتجه نحو مشاهدة المظاهر، فهذا يعني أن المعرفة المرضية والعلم الصحيح هو الذي ينتهي إلى شهود هذا المظهر الأكمل المعبر عنه بالاسم الأعظم. فمعرفة غاية كل معرفة والعلم به منتهى كل علم. ومن رام وراء ذلك هلك.

ولو تأملنا في هذه الحقيقة، لاتضح لنا أن غاية الحركة الوجودية للكائنات إنما تكون بتحقيقها بمظهرية الاسم الأعظم. وعلى أساسه يحصل الفصل وتكون المظاهر. وبسببه انقسم النَّاس الذين أعطوا السُّلوك الاختياري إلى الغاية، إلى ثلاث فئات أساسية، هي:

1. الواصلون إلى هذا المقام في الحياة الدنيا - وهم المقرَّبون.

2. الذين يصلون بعد هذه الحياة - وهم أصحاب اليمين.

3. الذين يرفضون هذا المقام ويعاندونه - وهم أصحاب الشمال.

ومن هذا يتبيَّن أهمية الاعتقاد بهذا المقام والتشوق إليه، ولو لم يدرك الإنسان حقيقته في هذه الحياة الدنيا. ويُعلم أيضاً خطورة الجهل به والإعراض عنه وعاقبتهما السيئة.

هكذا تكون الحركة العلميَّة المهدية. فهي تجعل هدفها معرفة مقام الاسم الأعظم في البداية. وذلك من أجل تعميق هذه المعرفة وتكميلها إلى مقام الإيمان في المرحلة الثانية. حتى إذا علم السالك مقام عجزه عن نياله

والوصول إليه، تمسك بذيل شفاعته عسى أن ينال توفيق الوصول إليه، بعد أن يجبر قصوره الذاتي بالاعتراف بظلوليته وجهوليته.

"والحق تعالى جلّت عظمتها غاية الغايات ومنتهى الطلبات... فإذا صارت المملكة الإنسانية إلهية، وخلت من شياطين الجن والإنس، وظهرت فيها السمات الإلهية، يتحقق السالك بمقام الاسمية، ففي البداية تكون تسمية السالك عبارة عن الاتّصاف بالسمات والعلامات الإلهية؛ ثم يترقى عن هذه المرتبة، ويصل بنفسه إلى مقام الاسمية؛ وهذا هو من أوائل قرب النافلة، فإذا تحقّق بقرب النافلة نال تمام الاسمية، فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبودية". [معراج السالكين].

لا شأن للإنسان بما هو إنسان، ولا معنى لخلق في هذا النظام الوجودي، إلا أن يكون مظهراً تاماً للاسم الأعظم. فلو تنكب عن هذا الصراط الذي خلقه الله له، لخرج عن الإنسانية؛ وهو على حدّ التمرد على الله تعالى. لأنه لا مبرر لهذا الخروج سوى القصور. والله تعالى وعد أن يجبره. وجعل كل شيء دليلاً عليه. فلا عذر لأحد في عدم بلوغ غايته. والشقي من هلك على الله، إن خطر المقام الإنساني هذا لأن الله أراد له أن يقود مسيرة الكائنات نحو غاية الغايات. إنها الأمانة الكبرى التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن أن يحملنها.

ولهذا، نستنتج من إعراض الإنسان عن السير إلى الاسم الأعظم وعن السعي للتحقق به أنّه بمنزلة من يحارب ربّه ويعانده في أحب الأشياء إليه، وفي الأمر الوحيد الذي يرتضيه؛ فكيف لا تكون عاقبته أشدّ العذاب! وكفى بالمرء محادّة لله وشقاقاً أن يعاند إرادة الله الجمعية. من الطبيعي حينئذ أنه إذا انتقل من هذا العالم دون أن يكون مؤهلاً لمثل هذه الخلافة أن لا يُحشّر على الصّورة الإنسانية، لأنه تنكب عنها. فقول الإمام الصادق (عليه السلام): "إنّ الله

خلق آدم على صورته"، إشارة إلى كون الحقيقة آدمية والصورة الإنسانية الكاملة مظهراً تاماً لأسماء الله وصفاته؛ وقد تحققت بواسطة تعليم الأسماء كلها. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. يقول الإمام الخميني: "والمرتبة العالية من تعليم الأسماء هو التحقق بمقام أسماء الله." [معراج الشاكرين]. ولما كانت الحركة المعرفية للإنسان سبيله للوصول إلى مقام الاسم الأعظم والتحقق بإرادة الله، كان من اللازم أن يتعرف على مقتضيات هذه الحركة وواجباتها. إنها عبارة عن السلوك بقدم المعرفة الذي ارتضاه الله تعالى للإنسان وفضله بسببها على كثير من خلق تفضيلاً. وينبغي أن نعمّق المعرفة بهذه المعرفة حتى يكون سلوكنا فيها بقدّم ثابتة. فما هي موقعية معرفة الله في نظام الوجود حيث الكل صائر إليه؟ ولماذا كانت معرفة الله تعالى غاية خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهنّ؟

يجب أن نبدأ في دراسة موقعية المعرفة من الله تعالى لا من الإنسان. وإلا نكون قد ضللنا من الخطوة الأولى. فإذا كان خلق الإنسان شأنًا إلهيًا، فمن الطبيعي أن تكون المعرفة الإنسانية شأنًا إلهيًا كذلك. وإذا كان وجود الإنسان ضمن النظام العام الوجودي مما يرتضيه الله تعالى بشرط تحقّقه بمظهرية الاسم الأعظم، فمن المؤكد أن كمال المعرفة الإنسانية ينبغي أن يعود إلى الله ويرتبط بشأنه بالأصل؛ وإن عاد بالنفع والخير على الإنسان بالتبع. وإذا كان الأصل من جهة المخلوق في ارتباطه بخالقه هو العبوديّة، ومن جهة الخالق هو المالكية، لقولنا: "إنّا لله"، فهذا يعني أن أية حركة يقوم بها العبد ينبغي تكون لربّه لا لنفسه، وأن تنبع من التوجه إلى ذل عبوديته وملكوكيته وكونه مخلوقاً لله لا لنفسه. ولا شك بأن الحركة العلمية تمثّل إحدى أهم التحركات الإنسانية. وقولنا أن الهدف من خلق الإنسان هو معرفة الله، يحتاج إلى تكميل وإيضاح، حتى يظهر كيف يرجع إلى الله وإلى ذاته المقدسة!

ولا يخفى أن النَّفع أو الخير إذا كان من الله إلى الله، فلا يחדش بحقيقة الغنى الإلهي، ولا يعني أنه تعالى وتقدس يكون بذلك محتاجاً إلى غيره. بل لا احتياج في البين أصلاً.

وعليه، فإن معرفتنا بالله، ولو بلغت أعلى الدرجات وأرقى المقامات، فلا تعبر بصورة تامة عن الغاية من خلقنا؛ لأن الذات الإلهية ستبدو في مثل هذا التفسير وكأنها خارج المشهد الوجودي العام؛ فنقع في المحذور الذي فررنا منه. فعلياً أن نطرح السؤال بوضوح، ونقول: إذا كان لوجود أي شيء أن يعود على الله بالبهجة، فكيف تكون معرفتنا ظهوراً لابتهاج الربّ بكمالاته؟! وكيف تُرجع مقام عرفان الإنسان الكامل بالله إلى الله عزّ وجلّ؟

هل أن بلوغ الإنسان مقام العرفان بالله (وهي المعرفة الشهودية) ينسجم مع حقيقة البهجة؟ ونحن قد علمنا أن الله تعالى لا يبتهج إلا بما يكون من شأن ألوهيته وعظمته المطلقة. ولا شيء يليق بشأن الله تعالى ويعبر عنه سوى التجلي الأكمل والاسم الأجل الأعظم. ونعلم عندئذ أن معرفتنا بالله، إذا كانت عبارة عن التحقق بهذا المقام الأسمى، فهي المطلوب. وإذا لم تتجه نحوه فهي خروج عن صراط الله المستقيم، الذي يبدأ من ذات الله وينتهي إليها.

وهكذا نقرب من فهم المعنى الحقيقي لمعرفة الله (التي كانت هدفاً لوجود الإنسان الذي كان هدفاً لغيره من المخلوقات)، فنخرجها عن مجرد التصوّر الذهني أو التصديق القلبي. ونعلم من خلال الجمع والمقابلة أنها عبارة عن التحقق بالاسم الأعظم.

إن شدة المعرفة في النفوس الصافية والقلوب النقية تورث حالة العبودية. والعبودية المطلقة ليست سوى اضمحلال إنية العبد وانكشاف فناء كل جهات الغيرية، فلا شيء عندها ليحجب الحقيقة الكبرى عن

ظهورها وتجليها!

من المسائل العلمية المساعدة هنا: قاعدةٌ كثيرة الفائدة تنطلق من التمييز بين الجبهة الإلهية والجبهة السوائية في النظر إلى الأشياء.. وإذا أصبحت هذه القاعدة مرتكزاً لا يفارقنا في تحليل أية قضية، فسوف نجتنب الكثير من الهفوات والزلات. فالجبهة الأولى - التي هي جهة "يلي الربّي" وزاوية النظر من مقام الله إلى الأشياء - تمثّل الجبهة السليمة للتعرف على الحقائق. وهي التي تظهر في الحركة المميّة للسير العقلي الاستدلالي، حيث ننتقل من معرفة العلّة لنصل إلى معرفة المعلول، وهو حال الصّديقين الذين يقولون: "بالله عرفت الأشياء". والجبهة الثانية التي هي جهة "يلي الخلق" حيث يبدأ السير العقلي الاستدلالي من أدنى مراتب الوجود متدرجاً ليصل إلى أصله وعلته. وأصحابها يقولون: "البصرة تدل على البعير".

ولمعرفة الله تعالى بعدان يظهر كل منهما من تلك الجهتين فإذا أردنا أن نفهم قضية المعرفة الإنسانية وصيرورة الإنسان عالماً من الجبهة الإلهية، فلا ننسى أنه لا يوجد أي نوع من التحوّل والتغير عند الله وفي الصّقع الربوبي؛ وبالتالي فلا وجود عنده ولا معنى للحركة التي هي عبارة عن الانتقال من القوة إلى الفعل (علميّة كانت هذه الحركة أم غيرها). فعنده تعالى كل شيء قد تمّ وانقضى بلا زمان. حيث أنّ الزّمان ليس سوى وعاء التغيّر والتحوّل. والتحوّل يرتبط بحركة الناقص إلى الكمال فكيف يكون ثمة تغير أو تحوّل، وليس في السّاحة الإلهية المقدّسة إلا الكمال المطلق المحض.

إنّ مشهد الوجود الأكمل متحقّق عنده تعالى أزلاً وأبداً. فهو سبحانه ليس بحاجة إلى تصرّم الزمان وانقضاء الأيام حتى يبلغ مراده.

أما إذا أردنا أن ننظر من جهة الخلق. فهناك حركة تكاملية تراتبية. ومن هذه الحيثية ولهذا السبب، يحتاج الخلق إلى معرفة الحقائق بحسب ترتيبها

وتدرّجها في مراتب الوجود

إنّ قضية المعرفة عندما تصبح أمراً تدريجياً، فإنّها تشكّل أهمّ منطلق للنظر من زاوية يلي الخلقّي. وإذا استطعنا أن نتعرّف على كيفية تدرّج الإنسان فيها، نقدر على تفسير ما يجري في رحلته التكاملية.

فمن جهة الرّب المتعال، لا معنى لوجود أي مانع يحول دون ظهور الأشياء كلها بمظهر الاسم الأعظم. ولهذا، علمنا أنّ هذا الأمر الواحد بالنسبة إليه متحقّق ولا شيء سواه. فلو قدّر لنا أن نشاهد الأشياء على حقيقتها عند الله، لما حجبنا عن مشاهدة الاسم الأعظم. فإذا عجزنا عن مشاهدة حقيقة التجلي الأعظم فيها فذلك بسبب نقص فينا لا في مشهد الوجود العام الكلي؛ فكيف نرفع النقص ونزيل الحجاب، فنشهد الحقيقة دون ارتياب؟.

إن الحقيقة تشهد بأنها متفردة بالنور والظهور، لأنّه متفردة بالوجود فمن شاهد غيرها وأدعى شهودها إلى جنب شهوده فهو ضال تائه. لأن نورها لو سطع، لاستحال كل ما سواها ظلاماً دامساً. فهل يمكن أن نرى نوراً مطلقاً إلى جنب نور محدود؟! فإما أن نرى نور الحقيقة المطلق ويكون الكل أشعته؛ وإما أن نفصل عن النور المطلق بالنظر إلى الأنوار المحدودة. وعليه، فالمانع من شهود الحقيقة ليس سوى الاستغراق في النظر إلى الأغيار والاحتجاب بالغيرية، التي هي جهة الانقطاع عن الحقيقة. ولا يمكن الخروج من هذا الاحتجاب إلا باتباع نور العقل الهادي إليها والمنبثق من شعاعها.

ولما كان الظهور هو النور، ولما كان الاسم الأعظم هو التجلي الأعظم، فهو نور الأنوار وفي نوره انعدمت الأنوار واضمحلت. فهو الظاهر وليس لغيره من ظهور. بل كل ظهور فهو له. ولا معنى لظهور كمال إلهي إلا أن يكون ظهور الحقيقة العظمى والنور المطلق. فلا عذر والحال هذا، لمن لا يراه: "عميت عين لا تراك عليها رقيباً". وعليه، فلن يكون التدرّج في

الزّمان أو عبور المكان شرطاً أساسياً لبلوغ شهوده. لأنّ ظهوره عمّ الزّمان والمكان وأحاط بهما! فلا السّفر في البلدان يوصل إليه، ولا توالي الأيام يجعله قريباً.

إن المشكلة كلها تختصر بتقييد المدارك وتحديد القنوات المعرفية. وعندما تكون قوانا الإدراكية محدودة، فلن يمكنها أن تنظر إلى النور المطلق.

فكيف حدث ذلك؟ حتى وصل الأمر إلى الكفر والإنكار! وإذا كان الحق المتعال كلي الحضور وعام الظهور ولا يخلو من مشهد شيء لقوله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، فإن ما يقابله سيكون ظلاماً وهو الباطل المحض والعدم الصّرف: ألا كل شيء خلا الله باطل، وأن ما يدعونه من دونه الباطل؛ "إلهي وإن الرّاحل إليك قريب المسافة وإنّك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الآمال دونك".

ومن هنا يبرز السّؤال الكبير: كيف صار الباطل المحض مشهوداً؟ وكيف يتشكّل الباطل في القوى الادراكية للإنسان، فيمنعه من النّظر إلى الحق المطلق وشهوده؟

فأولئك الذين عموا عن الأسم الأعظم وانكروا التجلي الأكمل، قد وقعوا في الحجاب الأكبر واستغرقوا في محض الباطل وبالباطل المحض. وكما أنّ للاسم الأعظم والحقّ الأتمّ مظاهر (هي الأسماء الحسنی والصفات العليا)، ولهذه الأسماء مظاهر، وهكذا؛ فإنّ لما يقابل هذا التجلي الأعظم مظاهر. فإذا كان الباطل المحض نقيض الاسم الأعظم، فإنّ لكل اسم ومظهر من مظاهر الاسم الأعظم نقيضاً أيضاً. ولما كان لكل اسم في عالم الأعيان مظهر وآية تدل عليه وتهدي إليه، فإن أي

نقيض لمظاهر الأسماء الإلهية له مظهر في عالم الأعيان أيضاً. وهم أعداء الآيات في الحياة الدنيا..

إذا كنّا نسعى للتعرف على المانع الأساسي الذي يعد أصل كل الموانع والحجب، وعلى الباطل الذي يناقض الاسم الأعظم (حيث أنّ الكفر به يعد مقدمة للإيمان الحقيقي)، فإن هذه المعرفة ستكون متاحة في الحياة الدنيا، لأنها أرض التعاند ومحل التناقض. ففيها دون سواها تتواجد مظاهر الأسماء الإلهية ومظاهر الباطل. وعليها دون غيرها يحصل التعاند والتعادي؛ فيتحقق للإنسان فرصة اكتشاف الحقائق بمعرفة مقابلاتها، واكتشاف ما يحصل في أعماق نفسه بعرض النقااض والمتقابلات عليها!

إن مظاهر الاسم الأعظم في عالم الطبيعة تدعى بالآيات. وعلينا أن نعرف ما هي موانع شهود الآيات فيه؟ فنعرف بذلك ما حجبتنا عن رؤية مظاهر الاسم الأعظم التي تهدي إليه.

ولتعظيم الفرصة وتوفير الحجة وإظهار الطريقة جعل الله تعالى لنفسه في كل شيء آية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وعلينا أن نتساءل عن السبب الذي أدى إلى إغراضنا عنها، فجهلنا قدرها وغفلنا عن سرها! إنها ظاهرة في اختلاف الليل والنهار وفي النجوم والكواكب وفي كل تفاصيل الخلق والحياة والأحداث. فما بالناس لا نراها ولا ندعنها لها؟

إن الآية في أي شيء هي جهة الانتماء والانتساب إلى الله سبحانه. ولأن وجود أي شيء من أوله إلى آخره محض العطاء من الله، فلا يتصور جهة وجودية في أي شيء لا تكون لله ومن الله. فوجود أي شيء هو الآية. وما نتصوره ليس لله لن يكون إلّا وهماً. وبغفلتنا عن جهة الانتساب إلى الحق، نكون قد أضعنا الآية وفقدنا وسيلتنا الوحيدة للمعرفة الحقيقية. وتدل

الملاحظة العميقة على أن العامل الأساسي وراء تضييع جهة نسبة الشيء إلى خالقه (وهي الجهة الوجودية) هو رغبتنا أو طمعنا في أن يُنسب لنا، وهي رغبة التملك، ورؤية مالكية النفس وقيامها بنفسها وغناها واستقلالها؛ وهو معنى الإنية. فخالفنا بذلك معنى "إنّا لله" الذي اتضح لنا أنه مبدأ إدراك كل الحقائق. وقد توغلنا في هذا الاعتبار حتى صار كالحقيقة؛ كل ذلك لأننا اعتبرنا لأنفسنا وجوداً مقابلًا لوجود الله تعالى؛ فاعتبار النفس مالكة لا يحصل إلا بعد اعتبارها موجودة، ولا نعتبرها موجودة إلا بعد غفلتنا عن وجود الله تعالى. وبإلها من غفلة؛ فإن وجود الله المطلق لا يدع لغيره وجوداً؛ اللهم إلا أن يكون قائماً به سبحانه قيام المعلول الفقير بعلته الغنية. وللأسف، فقد خرجنا إلى الحياة الدنيا ونحن محاطون بنظام اجتماعي يرسخ فينا ذاك النظر الباطل. نظام يحمي نفسه بقوانين وأعراف تعتبر التملك والملكية أساس الهوية والانتماء إلى المجتمع والقبيلة. فأنت مقبول إذا كنت تملك، وتصبح وجيهاً إذا زاد ملكك. مما يعزز فينا النظر الاستقلالي إلى الوجود المجازي والعرضي.

منذ اللحظات الأولى التي تفتّح أعيننا على موجودات العالم، يقوم هذا النظام الاجتماعي المتسلح بمنظومة معرفية متشعبة بتلقيقنا أن كل الأشياء من حولنا قابلة للتملك، وإن الاستكثار منها يعطي هويةً وشأنًا. إن هذا النظام الاعتباري الواهم باستخدامه لسلاح العلم (المبني على الحس والمعرفة المحدودة) وتفسيره الناقص لهذه الأشياء، يجعل الأوهام تستقر في نفوسنا؛ فيصبح طبيّ مسيرة المعرفة الحقيقية أمراً شاقاً بعيد المنال.

وإذا أردنا أن نُبطل ما صنعه هذا النظام، يجب أن نكتشف هشاشة زاوية النظر التي اخترقها، والتي لا تفتأ تزودنا بالباطل تلو الباطل والوهم بعد الوهم. وإذا أردنا لحركتنا العلمية أن تكون سليمة، فعلينا أن ندرك مدى تأثير

النَّظام الاجتماعي - بمكوّناته الثقافية - على تفكيرنا وإلى أية درجة تغلغل في أعماق نفوسنا وحدد طبيعة إدراكاتنا؛ عندها يتحقق الكفر بالطاغوت بكل مراتبه «فمن يكفر بالطاغوت» على طريق الإيمان الواقعي العميق؛ ويؤمن بالله؛ فيحصل الاستمسك بالعروة الوثقى الموصلة إلى الله.

وإذا كان النظام الاجتماعي قائماً على رضوخ الناس وعبادتهم لقيمته التي يحميها بمجموعة من الأصنام الحجرية والمعدنية، فيكفي أن نحطّمها جميعاً ونترك كبيرها، ليرجع الناس إلى أنفسهم والمنطق السليم، لكن، إذا كان هذا النظام متسلّحاً برؤية كونية ومنظومة فكرية مبنية على تراث معرفي كبير، فإنّ الجهاد يتعاضم والمسؤولية تكبر! فكيف إذا أُضيف إليها من كل زخرف وبهرجة، وصار الموعد يوم الزينة!!

إنّ أحد أوجه تمايز نهج الأنبياء ﷺ عن نهج الفلسفة النظرية يكمن في عدم فصلهم الحركة المعرفية والبناء العلمي عن عملية تغيير النظام الاجتماعي وتحوّله، فالعمل على إصلاح الفرد في ظل النظام الفاسد لن يؤثر كثيراً؛ حيث سيكون الفوز غالباً للنظام. ولأنّ مهمّة الأنبياء العامة تتجاوز في مشروعها الاستراتيجي صناعة بضعة أفراد كاملين، وتتوجه إلى تغيير النظام الكونيّ بأسره، فقد عرفوا مسبقاً أن شرط تحقّقه متوقف على إصلاح النظام الاجتماعي البشريّ كله. والتسمية الحقيقية، وهي الانسجام بسمات الحق تعالى، لا تتحقق إلا برعاية مخلوقات الله تعالى:

"إذا أراد السالك أن تكون تسميته حقيقة فلا بدّ له أن يوصل رحمات الحق تعالى إلى قلبه ويتحقّق بالرحمة الرحمانية والرحيمية، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنّه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتلطف ويطلب الخير والصالح للجميع". [معراج السالكين].

لقد حدّد الأنبياء، ومنذ بداية دعوتهم، أصل المشكلة المعرفية عند

البشر وسبب انحراف الحركة العلمية فيهم؛ ويبنوا أن النظام الاجتماعي الفاسد هو العامل الأول وراء تعزيز الباطل في النفس، بتعزيز وترسيخ زعم الوجود الخاصّ المستقل لها، والذي يتزين بروح تملك الأشياء. فانقلبت الآية واحتجبت؛ ولم تعد عملية "كشف جهة انتساب هذه الأشياء إلى الله تعالى" و"معرفة جهة الآتية فيها" سهلة يسيرة. وصار ظهور الكائنات لنا في مدى ما تمنحنا من قدرة وتأثير.

فحقيقة الطاغوت هي الدعوة إلى النفس، لا إلى الله؛ وهذه الدعوة تنسلح بكل أشكال الملكية الاعتبارية وأنواع التكاثر: «أنا أكثر منك مالا وولدا». ولكي يرسخ هذا الطاغوت حكمه ويحافظ على سلطته، يسعى لترسيخ قيمة التملك والتكاثر وجعلها أساساً للعلو والرفعة.

ولا بد أن نكفر بالطاغوت، لكي نتحرر من وهم التملك؛ فنحرر الآيات الإلهية من طمعنا وقيود أوهامنا، وتبدأ رحلة المعرفة نحو الأسماء الإلهية والتجليات الربانية، حتى تنتهي إلى الاسم الأعظم. فالحركة العلمية الرشيدة هي التي تنطلق من كشف زيف وهزال النظام المعرفي الذي يتسلح به الطاغوت لتأكيد موقعية التملك وما ينبثق منه من تسخير وسيطرة وتصنيع، ومن اعتبار هذه الأمور أساس سعادة الناس ورقيتهم. قال الله تعالى: «أَتُنْبِئُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٍ تُعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ».

لقد تمكنت الفلسفات المادية المهيمنة بقدراتها التعليمية الهائلة من أن تزيّن وجود الإنسان بزينة كاذبة وجمال مزيف؛ ومجتمع الفلسفة الإلهية المشغول بالجدال والقييل والقال، عجز عن كشف أسرار الجمال الحقيقي الكامن في عالم الخلقة (بما يتناسب مع مستوى التحدي)؛ ففقدنا قدرة التفوق الحضاري وهزنا في معركة العلم وصناعة الوعي والوجدان،

لنصبح تابعين لنظام الطّاغوت المنحوس الذي تفرّد بصنع توجهات الناس ونظرتهم إلى الوجود.

ويجب أن نعلم أنّ رؤية الجمال المحدود المقطوع عن أصله هو في الحقيقة كـ "لا جمال"؛ لأنّ المحدود بما هو وليس سوى العدم وعين الفقر والنقص. وما لم نر وراء الجمال المحدود ذاك الجمال المطلق، فلن نصل إلى مشاهدة أي جمال في النهاية. يقول الامام الخميني رحمته الله: "وما دام الإنسان قاصر النظر إلى نفسه وكماله وجماله الموهوم فهو محجوب وبعيد عن الجمال المطلق والكمال الصرّف." [معراج السالكين].

إنّ محل المعرفة ووعاء العلم هو هذه النفس الإنسانية؛ فأَي عبث أو تخريب لهذا الوعاء، سيمنع من تحقّق المعرفة الصحيحة. وإنّ قيمة النفس وشرفها أن تكون منتسبة لله، وفي صيرورتها آية لاسمه الأعظم؛ وعندما ينقطع هذا الانتساب تنعدم هذه الآيّة فيخسر الإنسان نفسه ويفقد وعاء العلم الحقيقي. وعند ذلك لن يكون النظر إليها إلا سبباً للمزيد من العمى، وسوف يرتدّ إليه البصر خاسئاً وهو حسير.

إنّ المعرفة الموصلة هي حركة تفاعلية من جهتين. فمن جهة الرّب المتعال هناك التجلّي بكلّ شيء: "إلهي عرفت أنّ مرادك منّي أن تتعرّف إليّ في كل شيء؛ ومن جهة الإنسان هناك الاستقبال المطلق والتقبّل التام لكل التجليات: "حتى لا أجهلك في شيء".

ويعني ذلك أن وجود الإنسان إذا ما قورن بالحقيقة المطلقة، فلن يكون سوى اللاشيء المحض والعجز المطلق والقصور الذاتي. فهو بذاته غير لائق ولا قابل لمعرفة الله تعالى بأية مرتبة؛ اللهم إلا أن يتجلّى الرّب تعالى على قلبه فيضيء فيه نور معرفته ويبدّل وجوده البشري الناسوتي إلى الوجود الملكوتي اللاهوتي. "إنّ الايمان يبدو في القلب كلمظة".

"فالسّرّ الاجمالي للأذان هو إعلام القوى الملوكوتية والملكية والجوش الإلهية للحضور، وأدبه الإجمالي هو التنبيه إلى عظمة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضر، وذَلّ الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالأمر وقابلية المحضور في المحضر، إن لم يؤيّده لطف الحقّ جلّ وعلا ورحمته ويجبر نقصه." [معراج السالكين].

فبدون هذه المعرفة، لا كرامة لأي مخلوق ولا قيمة. ولا يحصل هذا التبدّل الجوهريّ من اللاشيئية المحضة إلى المظهرية العظمى إلا بفضل هذا التجلّي الأعظم من جانب الغني الحميد والاستقبال المطلق من جانب العبد الفقير. فقلب الإنسان في بداية الأمر فارغٌ من كلّ نور وماهيته الذاتية عارسة من أيّ وجود؛ اللهم إلا أن يسري فيه شعاع الوجود الإلهيّ بنفخ الرّوح في قالب وعائه.

إنّ العلم هو أفضل مظهر للرّوح في عالم الطبيعة وأشرف تجلياته؛ وكان العلم حياةً ونوراً.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِتْنًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

"فنور العلم متجلّ في مجالي جميع المدارك بل من المراتبي التي فوق المدارك من النفوس الكلّية الإلهية والعقول المجردة القدسيّة والملائكة المنزّهة المقدّسة ويظهر به بواطن الأشياء كظواهرها وينفذ على تخوم الأرض وسحب السماء ويبقى نفسه مرّ الليالي والأيام بل يحيط ببعض مراتبه على الزمان والزمانيات، وينطوي لديه المكان والمكانيات؛ بل بعض

مراتبه واجب به وعمت الأراضى والسموات وهو أحاط بكل شيء علماً. وعند ذلك قد ينكشف على قلب السالك بفضل الله وموهبته أن النور هو الوجود، وليس في الدار غيره نور وظهور، يا متّور النور، يا جاعل الظلمات والنور، الله نور السموات والأرض. وأن نورانية الأنوار العرفية والعلوم بمراتبها منه." [شرح دعاء السحر].

إن بدء المعرفة يكون من الله تعالى؛ وذلك بتجلي آيات أسمائه على قلب الإنسان. فإذا انفعل القلب واهتزّ بدأ مسيره العلمي، كحال الأرض وأرسلنا عليها الماء اهتزّت وربت وانبتت من كل زوج بهيج. إن مشهد التجلي الإلهي من جهة "يلي الله" يحكي عن أمر واحد ونور فارد هو التجلي بالاسم الأعظم: "اللهم إني أسألك من أسمائك بأكبرها، وكلّ أسمائك كبيرة؛ اللهم إني أسألك بأسمائك كلها". والاسم الأعظم هو التجلي الجامع للأسماء الجمالية والجلالية. ففي الجمال اللطف والعناية والجذب. وفي الجلال القهر والكبرياء والطرْد والإبعاد. فعلامة تحقّق المعرفة التامة والعلم الصحيح هو قبول تجليات أسماء الجمال والجلال كلّها. فأما أسماء الجمال، فقبولها سهل وعذب. لكن كيف يمكن للإنسان أن يتقبّل أسماء الجلال؟! وما معنى أن تتقبّل الله وهو بطردك أو يقهرك وهل يمكن لأحد أن يتحمّل مثل هذا الإبعاد؟ "إلهي هبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك".

والواقع أنّ من يشاهد الجلال في عين الجمال هو الذي يمكنه أن يتقبّل التجليات الجلالية مهما بلغت، فيصل بذلك إلى غاية المعرفة. وقد ضرب الله لنا مثلاً أعلى في هذه المعرفة؛ وهي السيّد زينب الكبرى عليها السلام. ففي يوم العاشر الذي مثل أشد أنواع الجلال في الدنيا وقفت هذه المرأة العظيمة لتقول: "ما رأيت إلا جميلاً". فهي العالمة من لدن الله تعالى غير المعلّمة من قبل الناس.

فإذا كانت الدنيا دار التكميل والتعليم، ولما كانت داراً بالبلاء محفوفة، فإن حركة المعرفة التكاملية فيها ستمحور حول هذه القضية: قضية تقبّل الجلال في عين الجمال. وإذا أردنا لأنفسنا التوفيق وبلوغ الغاية، فيجب أن نمنع من زوال الاستعداد لقبول تجلّي الربّ بأسمائه الجلالية وجلاله المطلق؛ وبذلك نتحرك نحو قبول تجليات الاسم الأعظم فالجلال والجمال هما تجلياته؛ وفي أرض الطبيعة امتحان افتراقهما. "هو الذي اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نعمته، واشتدّت نعمته لأعدائه في سعة رحمته".

تخبرنا الشواهد الدينية أنّ التجلّي بالجلال المطلق سيحصل حتماً يوم القيامة؛ إنه يوم ظهور المالكية العظمى برجوع الكل إليه: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وحيث أن الكل صائر إليه، فالجميع سيدخلون في تجربة جلال مطلق، وما كل ذاك الفزع والسكرّة التي تذهل المرضعة عما أَرْضعت إلا بسبب تجلّي ذاك الجلال. هناك تهون كل مصيبة.. فمن يتقبّل هذا التجلّي الحتمي عندئذٍ ولا ينكره (أي لا يراه منكراً ونكراً) سيفوز بمقام الإنسان الكامل الذي جعله الله تعالى غاية حركة الأكوان. وليس كمال الإنسان سوى تحقّقه بمقام الاسم الأعظم. "الإنسان يستطيع أن يكون مظهراً لأسماء الله، والآية الكبرى الإلهيّة بالرياضات القلبية، ويكون وجوده وجوداً ربّانياً، ويكون المتصرّف في مملكته يدي الجمال والجلال الإلهي". [مراج السلكين]. ولعل قوله تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ إشارة إلى هذه القضية. فالنار هي مظهر الجلال المطلق. وورودها هو الدخول في النعمة المطلقة. فمن كان متسلحاً بالآيمان بالجمال المطلق سبرى اللطف والعطف الإلهي في هذه التجربة، ويتوسل به فيجوزها وهي خامدة. ومن قبلها الأمن من الفزع الأكبر.

ولأجل أن لا يكون هذا التجلّي صادمًا صاعقاً مفضياً لا يترك ولا يذر، ولأجل أن يحصل التحقّق والتمكين في الاسم الأعظم، ولكي لا تكون

سطوة جلاله مانعة من تحقق الهدف الأسمى، فإنَّ الله عزَّتْ ألاؤه أنزل هذا التجلّي وتنزّل به مرتبة بعد أخرى عبر عوالم الوجود حتّى وصل إلى هذا المنزل الأدنى وسجن الطّبيعة؛ فمن قبل تجلّيه الجلالى المنزل في الدنيا (وهو الصبر على المكاره)، فاز بكرامة تقبّل تجلّيه الأعظم في الآخرة، إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

فمن تمكّن قلبه من ذكر الجمال حين تجلّي الجلال في عالم الطّبيعة وفتن الدنيا، سوف يتمكّن - إن شاء الله - من ذكر الجمال المطلق حين تجلّي الجلال المطلق يوم القيامة العظمى، ويتذكّر الجمال المطلق حين الجلال المطلق ينال الإنسان شرف ذكر الاسم الأعظم على الحقيقة فيصبح مذكوراً ومنعوتاً به، كما قال تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾.

إنَّ آيات الجلال في عالم الدنيا كثيرة، "فهى دار بالبلاء محفوفة"، كما وصفها مولى المتّقين (عليه السلام). وفيها آيات بالجلال موصوفة، كالشدائد والمصائب والشّرو؛ ففي هذا الحين اختفى فيها الجمال. وفيها آيات بالجمال معروفة، كالمواهب والنعم والخيرات. وقد اختفى فيها الجلال. فمن أدرك الجمال حين المصائب وذكر ربّه به وتذكّر آلاءه ورجا فرجه وأمل فضله ورحمته وأقبل عليه بحمده، فإنّه سيَتذكّر معنى ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وهناك ستنزّل عليه الملائكة بكل صلوات ورحمة. ومن لم يلهه الجمال في الحياة الدنيا عن تذكّر الجلال، وأدرك فيه هيئته وخاف مقام ربّه ولم يتهتك أو يتعدّ، أو شك أن يفوز بذكر الاسم الأعظم؛ وهناك سيؤيّد بروح القدس.

إنَّ الثّبات في الشدائد يُعدّ مقدّمة ضروريّة لمشاهدة الجمال الكامن فيها، وبالتالي تقبّله. ومعنى تقبّله بحقيقته أن ننسبه إلى أصله ومعدنه، الذي هو الاسم الأعظم الجامع لكل أسماء الجلال والجمال؛ وهو الذي يشير إلى عين التوحيد فالذي يتمكّن حين نزول المصيبة أو حين الابتلاء بالشّر، من

تفسير ما نزل به بآته من جانب الخير والصّلاح، فهو الذي أرجع الجلال إلى الجمال، وأدرك مقام الجمع. حتى إذا تتالت عليه المصائب وتوالت عليه مظاهر الجلال، ونجح في الواحدة تلو الأخرى في مهمة الإرجاع تلك، صار مستعداً للبلاء الأعظم؛ هناك حيث يرجع الجلال المطلق إلى الجمال المطلق في عين الجمع. والشرط للنجاح هو قوّة القلب المتنوّر بضياء المعرفة، وهو الإيمان الرّاسخ.

ولا شك أن الإيمان المطلوب في كل تجربة هو الذي يتناسب مع حجم البلاء فيها. ولأنّ يوم البلاء الأعظم الذي هو التجلّي بالجلال الأعظم الذي هو يوم القيامة لا ريب فيه وآت لا محالة، فإنّ الإيمان المطلوب فيه هو الإيمان الأكمل، الذي ينطلق من أعلى درجة معرفيّة. وهي المعرفة التي تمكّن العارف من تفسير أشدّ الظواهر الوجوديّة قهراً ونقمة تفسيراً يرجعها إلى الجمال المطلق. إنه الحب الخالص والعشق الخاص الذي عبّر عنه ولي الله المعظم في مناجاته الشعبانية قائلاً: إن أدخلتني النار أعلمت أهلها أنني أحبك!"

إنّ البرهان هو أول سيف في هذه المعركة والتّحدي. لأنّ عدوّ الله والإنسان سيقدّم له تفسيراً مناقضاً لحقيقة ما يجري، حتى يصدّر الحقّ تعالى كعدو يبغض الإنسان. وما ثمة شيء أشدّ سوءاً من هذا الخطأ. ولهذا، كان إبليس اللعين مظهر الجلال المطلق؛ فمن أدرك حقيقة عداوته ودرجة شرّه، علم أنه وقعر جهنم متساويان. وليست جهنم في حقيقة أمرها سوى ظهور النقمة والقهر الإلهي في أعلى درجاته. لا شك أن تفسير الشيطان باطل محض؛ ولهذا كان عليه أن يمزجه بالحق، ليصبح مقبولاً! إن المغالطات التي تشبه الحق من أكبر مكائد الشيطان الرجيم. وهي التي تعبّر عن آخر ما يصل إليه على مستوى الإضلال والغواية. فكل إغراء شيطاني لا ينتهي إلى الفكر سيكون ضعيف التأثير. ولهذا نلاحظ كيف يبرر المجرمون ما

يقترفونه بالمعتقدات والأيدولوجيات. فيعلم حينئذ لماذا كان سلاح البرهان العقلي أحب مخلوق عند الله. فمن تَمَكَّن من قطع أغصان شجرة المغالطات وتجفيف جذورها الخبيثة بقوة العقل ومنطقه، صار مستعداً لاجتثاث هذه الشجرة الخبيثة بنور الإيمان. "فلا بدّ للسالك أن يُحكم أولاً بالبرهان الحكمي حقيقة لا مؤثّر في الوجود إلا الله، ولا يفرّ من المعارف الإلهية التي هي غاية بعثة الأنبياء، ولا يعرض عن تذكّر الحقّ والشؤون الذاتية والصفاتية. فإنّ منبع جميع السعادات هو تذكّر الحقّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾". [معراج السالكين].

"إنّ البرهان يقول لنا "لا مؤثّر في الوجود إلا الله" وهذا أحد معاني لا إله إلا الله، وبركة هذا البرهان نقطع يد تصرّف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونرجع ملكوت العوالم وملكها إلى صاحبها، ونظهر حقيقة ﴿له ما في السموات والأرض﴾، ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾، و﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾". [معراج السالكين].

إنّ معركة التفسير والتفسير المتقابل لن تتوقّف عند حدود المواجهة بين شبهات الباطل ومغالطاته وأنوار البرهان واستدلالاته؛ فسوف ينتقل إبليس اللعين - بما أعطي من إمكانيات للنفوذ إلى أعماق القلوب - إلى مرتبة أعلى. وهناك لا ينفع سوى الإيمان القويّ والقلب الثابت؛ هناك، حيث البلاء العظيم والموقف الرهيب، لا ينفع العلم وحده، بل عليه أن يكمل طريق الإيمان بتثبيت دور العقل في أشدّ اللحظات، وإلا جرى عليه ما يحدثنا عنه الإمام الخميني رحمته الله في لحظات الموت وسكراته حيث: "حتى اسم الله سبحانه وتعالى واسم الرّسول الخاتم ودين الإسلام الشريف، والكتاب الإلهي المقدّس والأنمة الهداة وسائر المعارف التي لم يوصلها إلى القلب؛ فينساها كلّها".

فبالإضافة إلى الحركة العلمية الاستدلالية، يحتاج السالك إلى الحركة
القلبية المعنوية، التي تتمحور حول طرد المظاهر الجديدة للباطل. وعليه
أن يصون نفسه بهذه الرياضات القلبية من الوقوع في أسر جمال الدنيا
وزينتها التي تمثل في الحقيقة ظهور جلال الآخرة ونقمتها. فجهم هي باطن
الدنيا؛ وإن جهنم محيطة بالكافرين. قال الله تعالى: «فمن يرد الحياة الدنيا
وسعى إليها سعيها أولئك نوفي لهم أعمالهم وهم فيها لا يبخسون أولئك
ليس لهم في الآخرة إلا النار». يقول الإمام الخميني رحمته: "الإنسان يمكن
أن يكون مظهراً لأسماء الله، والآية الكبرى الإلهية بالرياضات القلبية،
ويكون وجوده وجوداً ربانياً، ويكون المتصرف في مملكته يدي الجمال
والجلال الإلهي". [معراج السالكين].

فتكون نتيجة هذه الرياضة إشراقه نور أعلى وأنور من البرهان
الاستدلالي والايان العلمي؛ وهو "مقام المشاهدة، وهو نور الهيّ وتجلّ
رحمانيّ يظهر في سرّ السالك تبعاً للتجليات الأسمائية والصفاتية، وينور
جميع قلبه بنور شهودي". [معراج السالكين].

وقد أعدّ الله لهذا الإنسان الذي هو لا شيء أفضل وسيلة للعروج إلى
مقام وصاله واتصاله بالبحر اللامتناهي لعالم الأسماء والتجليات في ظلّ
الاسم الأعظم. يقول الإمام الخميني رحمته: "إنّ أوقات الصلاة هي أوقات
الحضور في جناب القدس لحضرة ذي الجلال، وأنّ الحقّ تعالى ملك الملوك
والعظيم المطلق في تلك الأوقات دعا عبده الضعيف اللاشيء إلى مناجاته،
وأذن له بالدخول إلى دار كرامته حتى يفوز بالسعادات الأبدية ويجد
السّرور والبهجات الدائمة". [معراج السالكين].

"وهذان المقامان - أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ
العبودية الذي هو رقيقته - مرموزان في جميع العبادات وبالأخص في

الصلاة التي لها مقام الجامعة، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الاسم الأعظم بل هي عينه". [معراج السالكين].

فلا ينبغي لهذا المسكين أن يجعل قلبه وعاء إلقاءات الشيطان، الذي ليس له هم سوى قلب كل الحقائق والتلاعب بالآيات وتخريبها. حيث يؤدي ذلك إلى الحرمان من هذه الفرصة العظيمة التي أعدها الله بيدي جماله وجلاله لتكون معراج قربه ووصاله؛ يقول الإمام الخميني قدس سره "وفي الحديث قال الصادق عليه السلام: "إذا كبرت فاستصغر ما بين العلاء والثرى دون كبريائه فإن الله إذا أطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني، وعزّتي وجلالي لأحرمتك حلاوة ذكرى ولأحجبك عن قربي والمسارّة بمناجاتي". فهو عليه السلام يقول إذا كبرت فاستصغر في محضر كبرياء تلك الذات المقدسة ما في الكون من الأرض إلى العرش لأنّ الله تبارك وتعالى إذا رأى عبداً يكبر ولكن في قلبه علّة بشأن حقيقة التكبير - يعني أنّ قلبه لا يوافق ما يجريه على اللسان - يقول: يا كاذب أتخدعني وعزّتي وجلالي.. إلى آخر الحديث". [معراج السالكين].

"اللهم إنّ قدم سيرنا عاجزة عن الوصول إلى جناب قدسك، وأيدينا قاصرة عن ذيل أنسك، وقد حجبت حجب الشهوات والغفلة بصائرنا عن جمالك الجميل، وإنّ الأستار الكثيفة لحبّ الدنيا والشيطنة أبعدت قلوبنا عن التوجّه إلى عزّ جلالك". [معراج السالكين].



"مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ
مَثَلُهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَدَدَهُ
مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ
مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُولٌ".



أهمية معرفة الله
وآثارها

أهمية معرفة الله وآثارها

"فأنت يا ابن آدم وقد جعلت بذراً للقاء، وخلقْتَ للمعرفة، واصطفاك الله تعالى لنفسه، وخمرك بيدي جماله وجلاله، وجعلك مسجوداً للملائكة ومحسوداً لإبليس.." [معراج السالكين].

إذا كانت جنّة الله عز وجل هي الحضرة الإلهية المرضية عنده، فلا بد أن تكون بكل ما فيها مظهراً لاسمه الأعظم. ولأنها آخر الحضرات وأعلاها، فلا يُتصوّر أن يكون العيش فيها وسيلة للانتقال من النقص إلى الكمال. بل هي سفر دائم في مقام الاسم الأعظم ومرتبته. فهذا الاسم الإلهي الأعظم والتجلي الرباني الأكرم، بسبب سعته وشموله وحيطته لكلّ عالم الوجود، غير متناهٍ على الإطلاق ومطلق بل فوق الإطلاق.

لن يكون في جنّة الله أية غفلة عن الاسم الأعظم، ولن يكون فيها ما لا يظهره بأعلى مراتبه وبحقيقته.

إن الغفلة عن أي شيء لا تحدث إلا لوجود شيء آخر في البين فكيف يكون في تلك الجنة أحد سواه. والكل هالك إلا وجهه ذو الجلال والإكرام. ولهذا كانت هذه الحضرة محل نظر الله تعالى بالأصالة، وسرّ بهجته، باعتبار

كونها مظهراً تاماً لعظمته. فلا يكون أحد من أهلها وسكانها إلا وهو مظهر ذلك الاسم الأعظم: ﴿فِي مَقْعَدِ صَدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. فهم في روضة معرفة الذات يُحْبِرُونَ.

وإذا كان العالم كله قد وجد لأجل إظهار عظمة الله والثناء عليه بجميع السنة الوجود ومراتبه، فلا يُعقل أن تكون عصارة العوالم وخلاصتها وغايتها - التي هي جنة الله - أرض الغفلة عن أعظم الثناء وأفضل التمجيد وأعلى التكبير! كيف؟ والثناء على الله وذكره هو أعظم كرامة وأعلى كمال وأشدّ لذة، وإنما غفل من غفل عن هذا المعنى الرائع لحقيقة الجنة ولذاتها، لأنه لم يجرب في حياته من الذكر إلا لقلقة اللسان، ولم يحصل له منه سوى العناء والتعب.

"فمما يوجب الأسف الشديد لأهل الله أن باباً من المعرفة الذي يمكن أن يقال أنه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء قد سدّوه على الناس بحيث يُعَدُّ التَفَوُّهُ به كَفْراً محضاً وصرف الزندقة. إن هؤلاء يرون معارف الأنبياء والأولياء فيما يختص بذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوام وربّات الحجال فيه، بل يظهر من هؤلاء أحياناً ما هو أعظم من ذلك فيقول أحدهم: إن لفلان عقائد عامية حسنة فبأيت لنا مثلاً له من العقيدة العامية. وهذا الكلام منه صحيح لأن هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أضاع حتى العقائد العامية". [مراج الشاكين].

فجنة الله هي الجنة المنسوبة إليه لأنه المرضية عنده والغاية من كل الخلق. وبالرغم من أن كل حضرة أو أرض أو مكان هي لله تعالى، ما فيها من شيء إلا ويسبحه ويعبده. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

إلا أن الجنة التي نسبها الله إلى ذاته هي التي تعبده وتذكره كما يحب ويرضى. ولا مرضي عند الله إلا اسمه الأعظم الذي يمثل الغاية القصوى لجميع الحركات الوجودية.

لقد خلقت الأشياء كلها لتتال شرف ذكر الله. فالأشياء مخلوقة للأنس والجن. وما خلق الله الجن والأنس إلا ليعبدوه. وليست العبادة إلا لذكر الحق تعالى. أما الجنة فهي عبارة عن وصول الكائنات إلى مستقرها وغايتها؛ فلهذا كانت محل الذكر السنّي. وفيها يبلغ الذكر أعلى مراتبه (حيث لا غفلة عن الأسماء الإلهية والشؤونات الربّانية أبداً). والذين آمنوا أشد ذكرا لله.

إن معرفة الله لا يمكن أن تبلغ غاية تتوقف عندها، لأن شؤونات وتجليات عظمة الله لا نهاية لها ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ولأن عجائب عظمته لا تنقضي. فالسير في هذه المعرفة، رحلة غير متناهية. ولهذا كان البقاء في الجنة والخلود!

وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): "أَطْيَبُ شَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ وَالَّذُ حُبُّ اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (المستدرک).

ولكي يستحق الإنسان هذه الكرامة العظمى، ينبغي - في أقل تقدير وأضعف الإيمان - أن يتمناها ويرغب بها ويرجوها؛ حتى إذا سنحت له وفتحت أبوابها دخلها راغباً مسروراً. وما دام نظر الإنسان إلى الجنة مقصوراً على لذات النفس ومشتهاياتها، فإن وجهه سيره لا تكون إلى الجنة، بل إلى النفس، وربما إلى الشيطان. فليس الشيطان سوى الدعوة إلى الفقر والوصول إلى الحرمان والخسران كما قال تعالى: ﴿الشيطان

يعدكم الفقير. ولن تكون النفس بمعزل عن كرامة قرب الحق تعالى سوى عين الفقر والعجز والنقص.

إنَّ تفسير النفوس النَّاقصة للذَّائِد الأُخرويَّة كمتنع مادية ناشيء من استغراقها في المعاني الحسية؛ ولعلها تعرض عن هذا العرض الأدنى وتبتم شطر وجودها نحو الوعود الإلهية. وهناك ستبدأ بالتجارة والمعاوضة مع ربِّ العالمين فهي تقدِّم العبادة والعمل الصَّالح، وهو عزَّ وجلَّ يعطي السَّعادة الأبدية والذَّات الكبيرة. وفي ظلِّ عبادة الله وطاعته والتوجَّه إلى الفضائل واتباع أنبيائه، يكشف النَّاس لذة أرقى وأعلى من لذَّات الأبدان وشهواتها. فهذه التَّجربة كفيلة بنشوء توجَّه آخر، هو المقصد الأعلى من بعث الأنبياء وإرسال المرسلين، تجربة التوجَّه إلى الله وذكره والانقطاع إليه. وهي تجربة تعلَّمت أنَّ حقيقة الجنَّة والجنَّة الحقيقيَّة هي الحضرة التي نعيش فيها أعلى السَّعادات المعنويَّة وهي لذة معرفة الله وذكره وحبه وعبادته.

"هدفنا الأساسي هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات، وكل شيء مقدَّمة لها." [مراج السالكين]. ولعل ما ورد في بعض النصوص الشريفة من أنَّ في الجنَّة مقاماً ليس فيه حور وقصور بل ركوع وسجود، إشارة إلى هذا المعنى.

وفي حديثه عن الإخلاص الكامل الذي هو غاية الدين والعبادة، يقول الإمام الخميني: "وهو عبارة عن تصفية العمل من الوصول إلى لذَّات جمال الله والوصول إلى بهجات أنوار السبحات غير المتناهية وهي جنَّة اللقاء. وهذه المرتبة، أي جنَّة اللقاء، هي من أهم مقاصد أهل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والأوحد من أهل المعرفة يتشرف بشرف هذه السعادة، وأهل الحبِّ والجذبة من كَمَل أهل الله وأصفياء الله." [مراج السالكين].

إنَّ المعنى الواقعي لطلب الجنة هو طلب لقاء الله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. وإنَّ هذا الطلب سيتجلى في حياة الإنسان اليومية بالسعي إلى معرفته. ولهذا، كانت المعرفة أفضل مؤشر على سير الإنسان التكاملي. ولأنَّ هذه المعرفة عنوان الحياة الأبدية وروحها وأجمل لذاتها وبهجاتها، فإنَّ صناعة الآخرة ليست موقوفة على المسوت والانتقال من هذا العالم الأدنى بحركة الأجساد؛ بل هي في الإعراض عمَّا سوى الحق تعالى، أي الإعراض عن هذا العرض الأدنى والدنيا الدنية. وقد روي عن نبيِّ الله عيسى بن مريم روح الله أنه قال: "موتوا قبل أن تموتوا". فالمرتبة عن الدنيا، الذي هو إمامة النفس الطالبة للدنيا، يؤدي إلى تحقق الحياة الحقيقية حيث العيش في قرب الله وذكره.

وإذا كانت جهنم والنيران مظهر الشقاء الأعظم، فمن الواضح أن أشدَّ ما فيها هو البعد عن الله والذي لا يمكن لأحد أن يطيقه. وهذا هو أمير المؤمنين ومولى الموحدين (عليه السلام) يعتبر الأمر فوق طاقة الكاملين الواصلين: "فهبني يا إلهي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك". وإنَّ وجود الإنسان قد امتزج بفطرة عشق الله وطلبه، وليست معرفته وحبِّه سوى التعبير عن هذه الجبلة؛ ولهذا، سيكون هذا الإنسان في منتهى العذاب والشقاء ما لم يدرك هذا الحبَّ واللقاء. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

إنَّ إدراك المأمول هو الذي يجلب السعادة. والشقاء الواقعي ليس إلا في مخالفة ما تقتضيه فطرة عشق الله والوصول إليه. وإنَّ جميع الآمال والأمانى البشرية هي أوهام حصلت من جرَّاء التربية الباطلة والتلقين الخاطي؛ إلاَّ أمل الوصول إلى الله، فإنَّه يمثل حقيقة وجوده وأصل خلقته.

فعندما تزول متعلقات الآمال والأمانى الكاذبة بهلاك كلِّ شيء إلاَّ وجه

الله، لا يبقى من تلك الآمال إلا مطلب واحد هو الله. ولأن هذا المقام هو مقام يوم القيامة حيث لا سعي ولا عمل، فإن حشرات الذين انتقلوا من هذا العالم عميةً عن الاسم الأعظم، هي حشرات تستوجب الإسراع بهم إلى عذابات الجحيم: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾. أما الذين شاهدوا في هذه الحياة بعض مظاهره، وتمنوا الوصول إليه، ولكن لم تبلغ بهم أرجلهم العرجاء وعنانهم المرخي مقام قربه، فإنهم يوشك أن ينالوا فيض رحمته ونور شفاعته.

ويجب أن نعلم أن تشكّل وجودنا الأولي على صورة القابليات والاستعدادات المحضّة، إنما كان على قابلية التحقق بالاسم الأعظم ولا غير. وما لم يتحقق القابل الكلي والطلب الأصلي بالفعلية والكمال، فإن صاحبه يكون كمن لم يدرك شيئاً من حظّ وجوده؛ وهذا هو الحرمان المبين وأصل أصول جميع الشقاوات.

ولعل الأشقياء سيرون بعض الحجارة أو الحديد قد وصلت إلى مقام الاسم الأعظم، بعد مرورهما بأطوار التّكامل في ظل هداية ولاية الإنسان الكامل (الذي هو المظهر الأتمّ للاسم المقدّس) في حين أنهم لم يصلوا إلا إلى ﴿سَرَابٍ بَقِيعةٍ يحسبها الظّمان ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾. فهؤلاء قد فرغت أوعية وجودهم من كل خير، حينما أعرضوا عن الله، وعن رضوانه الأكبر، فصارت ﴿أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءً﴾.

ولو تأملنا قليلاً في تشكّل السبب الجوهري للإعراض عن الله تعالى، لوجدناه متمثلاً في أمر واحد هو الشّرك. ولذلك كان كلّ ذنب مغفوراً إلا هو، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾، فالشّرك توجه إلى غير الله. وهو في النظر الساذج توجه إلى الله وإلى غيره، لكنّه في الحقيقة نفى لله وجهه به. لأن من عرف

الله وآمن بآته تعالى متفرد في الوجود وكمالاته، كيف يرى لغيره تأثيراً أو
نفعاً أو وجوداً أو كمالاً؟!

إن معرفة الله على الحقيقة تنفي هذا الشرك وتجتث جذوره ولكي يصل
السالك إلى حقيقة التوحيد وينفي كل أشكال الشرك والظلم، فعليه أن
يستمر في طلب العلم ويتكامل في درجات المعرفة حتى يصل إلى المعرفة
الراسخة التي يواجه بها كل أباطيل الشرك وأهواءه هناك لن يبقى للشرك
دعوة تقحمه في الظلم والفساد وتعميه عن طريق الرشاد.

"اعلم أيها العزيز أنه إذا علم السالك في طريق المعرفة أن المحامد
والمدائح بتمامها مختصة بذات الحق، وعلم أن قبض الوجود وبسطه منه،
وعلم أن أزمة الأمور في الأول والآخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيته، وتجلى
لقلبه توحيد الذات والصفات والأفعال، فإنه يحصر العبادة والاستعانة
بالحق، ويرى جميع دار التحقق خاضعة لذاته المقدسة طوعاً وكرهاً، ولا
يرى قادراً في دار التحقق حتى ينسب الإعانة إليه". [مراج الشوكن].

إن الشرك ينبع من التوجه إلى غير الله، باعتبار أن هذا الغير مصدر
الخير أو النفع أو تحقيق الطلبات. وتجلى هذا الشرك في الحياة الدنيا
ويتأطر في منظومة عقائدية يحميها النظام الاجتماعي- السياسي. فالأخير
يقوم عليها، ولكي يدوم يرى وجوب المحافظة عليها بشتى السبل. وإنما
يبقى النظام السياسي في أي مجتمع لأن أبناء هذا المجتمع يرون فيه حفظ
مصالحهم، فهم عابدون له وخاضعون، لأنهم عبدوا مصالحهم وأهواءهم.

إن عبادة الأنا التي تتبع من رؤية النفس مقابل ذات الحق تعالى، هي
التي تفضي إلى تشكّل ذلك النظام الاعتقادي الباطل. ولأنّ التجلي الأعظم
لذات الحق تعالى هو الاسم الأعظم، فإن شهوده هو الأمر الوحيد الذي يعبر
عن شهود الذات الإلهية والتوحيد الذاتي، وبالتالي يمنع من شهود النفس

ورؤيتها الذي يعد أصل كل القذارات. وإذا أردنا أن نقتلع شجرة الشَّرك الخبيثة التي تستمد من رؤية النفس والانيّة، فعليّنا أن ننبّت مطلباً واحداً وتوجّهاً فارقاً، هو طلب الاسم الأعظم الذي ارتضاه الله لنا ووجّه فطرتنا نحوه. يقول الإمام الخميني: "وكلما كان النظر إلى الإنيّة والأثانيّة ورؤية النفس وجبّها في الإنسان غالباً كان بعيداً عن كمال الإنسانيّة ومهجوراً من مقام القرب الربوبيّ، وأنّ حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب التي يُعدّ خرقها مقدّمة له. بل إنّ مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانيّة هو خرق هذا الحجاب. والخروج من هذا المنزل هو أوّل شرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقانيّة الرياضة وبطالانها. فكلّ سالك يسلك بقدّم الأثانيّة ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنيّة وحبّ النفس تكون رياضته باطلة. ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (نفسك هي أمّ الأصنام) (مصراع بيت للعارف الرومي المشهور) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. [معراج الشّلكين].

إنّ معرفة الله تعالى بالنحو الصحيح والدرجة المرضية ستتجلّى في ظل إدراك "لا شَيْئِيَّة" النَّفْس وفقر كل ما سوى الله تعالى. وهذا هو التوحيد الخالص الذي ينبع من نسبة كل كمال وخير إلى الله بالإصالة. ولهذا، كان التوحيد أعزّ اسم عند الله تعالى، لأنّه يجمع الحقيقة كلّها. وإذا كان حصول مقام المعرفة المرضيّة وتحققها الواقعيّ في حالة الشّهود والمعانيّة، فكيف يجتمع في مشهد واحد شهود نور الله المطلق ورؤية ما سواه؛ حتى لو ادعى الرائي أنّه يشهد نوراً! لأنّ كل نور مهما بلغ لن يكون سوى ظل وفيء عند تجلّي نوره الأعظم! فمقام الشّهود- الذي هو المعرفة الحقّة- أفضل

تعبير عن بلوغ الإنسان مقام العبودية المطلقة لله. لأن العبودية عبارة عن حالة الاعتراف - بكل مراتب الوجود - بالملوكية لله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وفي ظل هذه العبودية يدرك العبد جوهر الربوبية.

وإذا كان على "السالك إلى الله أن يبدل أوصافه وأخلاقه السيئة إلى الأوصاف الكاملة ويفنى في بحر الأوصاف الكمالية للحق، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي، ويبدل الأرض المظلمة الشيطانية بأرض بيضاء مشرقة" [معراج السالكين]، فلا يتحقق هذا المعنى إلا عندما يعيش العبد تلك الحقيقة النابعة من معرفة الله. ولهذا حصر الله تعالى أهل الخشية له بالعلماء به: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. فهناك تزول كل الحجب ويتسع القلب الذي هو القابل الأعظم حيث لم تسعني أرضي ولا سمائي، ويصبح "القلب إلهياً لاهوتياً وتتجلى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر. وفي هذه الحالة، تفنى العبودية كلياً وتختفي وتظهر الربوبية وتتجلى. فيعرض على قلب السالك في هذه الحالة الطمأنينة والأنس، ويصبح العالم كله محبوبه وتأخذه الجذبات الإلهية وتُغفر خطاياهم وزلاتهم وتستتر، في ظل التجليات الحبية، وتحصل له بدايات الولاية ولياقة الورود إلى محضر الأنس". [معراج السالكين].



"ظَهَرَتِ الْبِدَائِعُ الَّتِي أُخْدِثَ بِهَا آثَارُ صَنَعَتِهِ،
وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً
لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا،
فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى
الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ".



إِلَى أَيِّ مَدَى يُمْكِنُنَا
مَعْرِفَةُ اللَّهِ؟

إلى أي مدى يمكننا معرفة الله؟

إن قضية معرفة الله تعالى في حياة البشرية هي القضية المحورية، التي تقسمهم إلى فئات وطوائف متميزة تمايزاً حقيقياً. ولا يوجد من قضية في هذه الحياة تحتم على الإنسان أن يتخذ منها موقفاً واضحاً كهذه القضية، حتى لو ادعى البعض أنها لا تعني لهم شيئاً. ففي أعماق كل إنسان موقف فكري ما تجاه خالقه وربّه ربّ العالم كله.

إن إبليس اللعين، الذي يهدف إلى إلقاء العداوة والبغضاء بين الناس، من أجل حرمانهم من مقام الخلافة الإلهية، يسعى إلى إخفاء هذا التمايز الذي يقوم على أساس الموقف من حضور الحق في الحياة. كل ذلك لكي لا تصبح قضية الله قضية محورية وجديّة في حياة الناس وشؤونهم؛ ولكي لا يدفعهم هذا الأمر إلى التفكير الجاد والبحث العميق.

فلو أعلن البشر أنّ خلافاتهم كلّها ترجع إلى اختلاف عقائدهم وتمايز نظرتهم إلى إله العالم، لحسنت القضية في اليوم نفسه لمصلحة الحقيقة!! وفي المقابل، فإن عدو الإنسانية الملعون كلّما تمكّن من تعمية القضية وإخفاء سبب جميع مشكلات البشر، استطاع أن يغري العداوة بينهم أكثر فأكثر.

يثبت لنا البرهان أن نور الله ساطع إلى الدرجة التي يستحيل معها أن لا يكون مشهوداً، فهو ﴿نور السموات والأرض﴾. وكل ما نراه ونشاهده من أشياء، فهو بفضل سطوع نوره عليها. ولا شك بأن شهود النور المبين سابق على شهود المرئي به، وإن غفل المشاهد عن ذلك، إن عظمة نور الله وفرط شدته تكون سبباً لأن لا يُرى إلا في حجاب المرائي؛ لكن عدم القدرة على شهود النور المطلق شيء، والغفلة عنه شيء آخر. ولا ينبغي أن ننسى أن الله قد خلق من نوره المطلق نوراً، ومن هذا النور المخلوق، خلق نوراً منتزلاً به بحسب عوالم الوجود، حتى صار في درجة قابلة للرؤية والاستدلال بالنسبة للمحجوبين. فما لم نرَ نور الله في حياتنا فنحن عمى بإرادتنا؛ وسوف تكون العاقبة أن نحشر عمياً، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَكْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وبفضل هذا النور المنتزل تتم هداية كل موجود إلى النور المطلق وإلى منبع الأنوار. "فزمام الأمر بيدك ولله الحجة البالغة قد هدى سبيل السعادة والشقاوة وأعطى التوفيقات الظاهرية والباطنية. فما منه تعالى ومن أوليائه قد تمَّ" [معراج السالكين].

وهذا العمى عن نور الله في الحياة الدنيا مع بقاء رؤية الأشياء بتغايرها وامتيازها عن ربها، سيتحوّل إلى عمى مطلق حين تفنى الأشياء ويبقى وجه ربها! وقد علمنا أن لكل شيء جهتين: جهة انتساب إلى ربه، وهي حقيقته؛ وجهة انتساب إلى نفسه وهي قيوده العدمية التي تفنى عند تجلّي الرّب باسمه الأعظم. وهناك سيكتشف جميع الناس أنهم كانوا يعيشون قضية واحدة في حياتهم الدنيا ولا غير. وإنما زبن الشيطان لهم غفلتهم هذه لكي لا يتساءلوا حولها ويتفكروا بشأنها، فتُتاح للأنبياء عندئذ فرصة إيصال كلمة الله إليهم، واسماعهم صوت الدّعوة إلى الله وإلى معرفته.

هناك سيمتاز الناس بحسب هذه المعرفة ويتحقّق الفصل التّام بينهم،

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، لأنَّ الوزنَ يومئذ الحقَّ المطلق وهو الله تعالى، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فالناس في هذه الدنيا فيما يتعلق بمعرفة الله أصناف:

1. فمنهم الجاحدون الذين يعيشون اليقين بحضور الله من جهة، ويعاندون حضوره من جهة أخرى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

2. ومنهم الذين غفلوا عن حضوره تعالى بعد أن أسلموا قيادهم لأئمة الكفر، وجعلوا حياتهم ومصيرهم تبعاً لهم.

3. ومنهم الذي يعيش درجة من حضوره تجعل مسار حياته العام متجهاً نحو إدراك المزيد من حضوره ولو بعد الموت. وهؤلاء في خطرٍ أن يصبحوا من الفئة الثانية.

4. ومنهم من يلتفت إلى حضور الرب المتعال، بحيث يجعل تفاصيل حياته مبنية على أساس هذا الحضور. لكنّه قد يغفل هنا أو هناك.

5. ومنهم من صار حضور الله تعالى في قلبه بإدراك حضور الله في كل ما يحيط به. وهذا الذي يرى الله في كل شيء. فلا يمكن أن يغفل عنه أبداً. إنَّ دعوة الطائفة الأولى إلى معرفة الله تعالى لن تزيدهم إلا كفراً وعناداً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. والتعامل المطلوب مع هذه الطائفة يقتضي كسر شوكتهم؛ لأنَّ أساس جحودهم هو الاستعلاء والظلم، ويفضل سيطرتهم على من دونهم يتوهمون أنهم يزدادون سلطة وقدرة.

أمَّا الطائفة الثانية، فلو تحرروا من التَّبعية للمستكبرين والخضوع للظالمين، سواء من الناحية الاقتصادية أو الناحية السياسية، فقد تُتاح لهم

فرصة الاستماع إلى كلام الله الذي سيقرع قلوبهم الغافلة ويوقظها للنداء الإلهي المغرور في أعماقها. وهؤلاء هم المستضعفون في بعض الجهات، الذين أمرنا الله تعالى بالقتال في سبيلهم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

ويعلم من هذه القضية أن من يتبع كافراً أو مجرماً لتأمين رزقه، سيتبعه في النهاية في عقيدته؛ وقد قيل: "أن الناس على دين ملوكهم".

ولأن الطائفة الثالثة في خطر الوقوع في الغفلة التامة، فيجب تذكيرهم وتنبيههم من خلال توضيح المسارات وبلورة الاتجاهات وإتمام الحجة وقطع الأعذار؛ لأنهم قد يبدلوا مسارهم دون شعور منهم. وهؤلاء هم طمع إبليس الكبير. ولا شك بأن الفارق الجوهرى بين مسارات الحياة هو الفارق الاعتقادي المتمحور حول معرفة الله والتوجه إليه. فلو استطعنا أن ننقل هؤلاء إلى مرحلة المواجهة العقائدية والاهتمام بالمعارف الربانية لضمنا تمايزاً أساسياً يحقق انتقالاً هادئة إلى الطائفة الرابعة كحد أدنى. ولأمثال هؤلاء كان الوعظ والتذكير والتعليم والتبليغ؛ بشرط أن تتوجه كل هذا الأعمال نحو تفكيك المسارات وبلورتها. ومن هنا يعلم أهمية التولي والتبري في الفرائض الدينية.

ولأن الشياطين وأعدائهم يسعون إلى خلط الحق بالباطل، لكي لا يظهر الحق جلياً، تراهم يتظاهرون بإعلان الأسف من وجود هذا التمايز الديني أو المذهبي وينسبون كل حرب أو قتال بين البشر إلى القضايا الإلهية. إن هؤلاء في الواقع لا يريدون إيقاف العداوات، ولا يهتمهم كم يقتل من الناس بسبب الصراعات والنزاعات، وإنما يريدون تضييع الحق واخفاءه.

ففضيئة معرفة الله وتوحيده هي أكبر ما يجمع الناس وأمتن ما يحقق اللحمة بينهم. وللأسف، لقد استطاع أئمة الكفر أن يفرضوا علينا إخفاء الفروقات العقائدية إلى الدرجة التي بتنا معها أمام خيارٍ ندفع معه أثماناً باهظة، فيما لو أردنا جعلها محوراً للنقاش والحوار البناء، ومما ساعدهم على ذلك غلبة النزعة الجدلية في طرح الفكر الديني، وقلة الطروحات التي تعتمد على العرض الإيجابي والتصوير الجمالي للمعارف الإلهية.

إنه لمن الصعب على أية ثقافة بُنيت على الجدل والمخاصمة في الفكر والعقيدة أن تكتشف جمال الحق وجاذبيته، وإن كان كامناً فيها!

لقد استطاع إبليس أن يجعل ساحة الخلافات والفروقات العقائدية ساحة منقرة وغير جاذبة من خلال جرّ أهل العلم في كثير من الأحيان إلى الجدل. وكأنّ معرفة الله الذي لا منتهى لعظمته وجماله، وكأن الحديث عن آلائه وأسمائه، أصبحا منحصرين في إثبات وجوده أو إثبات بعض صفاته. ولو أننا استبدلنا الخوض في المعارك العقائدية بالحديث عن جمال الله وحضوره لظهرت الفروقات والتميزات دون عداة أو تنفير ولتحول هذا الأمر إلى أفضل ساحة للدعوة إلى الله.

أجل، إن هذا الأمر لن يروق للجاحدين وسيسعون بكلّ ما أمكنهم لمنعه كما فعلوا دوماً. لكنّ الله تعالى قضى أنّ من يقذف بالحقّ الجميل منتصر لا محالة، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

إن الطائفة الرابعة التي غلبت التوجهات الإلهية على حياتها تعلم جيّداً أنّها إذا لم تمض وراء الطائفة الخامسة فلن تبلغ أجلها ولن تدرك غايتها من معرفة الله. وقد كانت تقوى هذه الطائفة سبباً لصفاء سرانهم بحيث استطاعوا أن يميزوا الأصل من الفرع، والهدف من الوسيلة. ومثل هؤلاء تحلو

المباحث الإلهية وتزني المعارف الربانية. ولأجلها خلُقوا وإليها سيُبْعَثُونَ. والطائفة الخامسة هم العلماء الربانيون الذين هم الأدلاء على الله والدعاة إليه. فبهم عُرف الله، وبهم يُعبد الله. وإنما صاروا كذلك لشدة حضور الله في وجودهم. فلا تقدر كل الموانع أن تحجب انعكاس نوره من قلوبهم الصافية الواسعة. ولذلك اختارهم الله واصطفاهم لتبليغ رسالاته.

إنَّ الحركة التي يقوم بها هؤلاء الثابتو القدم، تهدف إلى جعل تعليم المعارف الربانية محوراً لحركة الناس في مجتمعاتهم؛ وهم يدركون أن بلوغ هذا المثال لا يتم إلا بعد مرحلة القضاء على الموانع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أو الحد من قوتها ونفوذها. ولأنَّ الواقعيين في وسط ساحة الصراع ما زالوا أسرى ببيان الطاغوت وكلماته، فإنَّ دعوتهم ينبغي أن تكون بالمنطق والعقل والبرهان والدليل. وإنما أسرهم الطواغيت في قوالب المغالطات والشبهات فأعموا عليهم مشاهدة الحق الساطع، ولبسوا عليهم أوهامهم. وقد أشار الإمام الخميني رحمته الله إلى هذه المرحلة باعتبارها أول مقام أو مرتبة على طريق التَّكامل المعرفي، وهي في الحقيقة بداية القطيعة مع إبليس وجنوده، فقال: "اعلم أنَّ لأهل السلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتب ومدارج لا تُحصى. ونحن نذكر بعض هذه المراتب على النحو الكلي. وأما الإحاطة بجميع الجوانب وإحصاء جميع المراتب فخارج عن عهدي أنا اللاشيء، فإنَّ "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق".

فمن تلك المراتب مرتبة "العلم". وهي أن يثبت بالسلوك العلمي والبرهان الفلسفي ذلَّة العبودية وعزَّة الربوبية. وهذا من لباب المعارف حيث اتَّضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أنَّ كل ما في دار التحقُّق وتقام دائرة الوجود إنما هو صرف الرِّبط والتعلُّق ومحض الفقر والفاقة. أمَّا العزَّة والملك والسلطان فمختصة بذاته المقدَّس الكبريائي وليس لأحد نصيب من

حفظ العزة والكبرياء. [مراج الشاكين].

لكن طول المكوث في هذه المرحلة يدل على أنه ما زال للجاحدين صوت يُسمع؛ فبقاء الحاجة إلى الدليل بعد الاستدلال فرع وجود الشكّ، وقد علمنا أن التشكيك هو فنّ الطواغيت الأكبر. وقيل أنّ الشكّ بمقدار ما هو جسرٌ جيّد للوصول إلى اليقين، فهو منزلٌ سيّئ. لهذا، يجب عبور هذه المرحلة بسرعة، وعدم الاستغراق فيها، وخصوصاً إذا التفتنا إلى ما يمكن أن تستلذ به النفس هنا من الانتصار على المعارضين والتفوق على الطالبين، وإثبات الذات والأنا. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبودية إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلميّ ومركب السير الفكري، يقع في حجاب العلم ويكون قد وصل إلى المقام الأوّل للإنسانية. ولكن هذا الحجاب من الحجب الغليظة وقد قالوا أنّ العلم هو الحجاب الأكبر. وعلى السالك ألا يبقى في هذا الحجاب بل يخرقه. ولعلّه إذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج. والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات العلمية الكثيرة، ويشغل فكره في البحث عن البراهين الكثيرة لهذا المقصد، فيحرم من المنازل الأخرى، ويتعلق قلبه بهذا المقام، ويغفل عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول إلى فناء الله، ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه. وكلما كثرت الفروع يزداد الحجاب ويشتدّ الاحتجاب عن الحقيقة. فعلى السالك ألاّ يغترّ بمكايد الشيطان في هذا المقام، فيحتجب بكثرة العلم وغازاته وقوّة البرهان عن الحقّ والحقيقة ويتأخّر عن السير في الطلب بل يشمر ذيل همّته، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقي حتى ينال المقام الثاني." [مراج الشاكين]. ويقول: "ولا بد أن يعلم أن مجرد العلم البرهاني والسير التفكري في باب التوحيد الفعلي لا ينتج النتيجة المطلوبة، بل ربما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانية سبباً

لظلمة القلب وكدورته، وتمنع الإنسان من المقصد الأعلى." [معراج الشاكين].

إنَّ طبيعة الحياة وتحدياتها تكشف لنا أنَّ المرحلة الثانية من المعرفة - التي تدور حول عملية تثبيتها في القلب، والانتقال بها من التصوّرات الكلّية إلى المعاشية اليوميّة، وجعلها مفسّرة لكلّ تفاصيل الحياة - هي المرحلة الأساسيّة، التي يمكن عدّها مرحلة البناء الحقيقيّ. فالإيمان هو ثبات المعرفة في القلب، بحيث يقدر صاحبه على استحضار معنى وجود الله وتدبيره للمقضايا الكبرى في حياته بالحد الأدنى؛ مما يجعله مستعداً للاستفادة من هذه القضايا والوقائع استفادة معنوية جيدة. فيكون بذلك قد بلغ المرتبة الأولى منه؛ ومن ثمّ تقوية هذا الحضور في القضايا الوسطى ثانياً وتالياً؛ فيكون الإيمان في مراتبه الوسطى؛ حتى يصل إلى مرحلة يتمكّن معها من ملاحظة حضور الله في أبسط قضايا حياته، فيبلغ الإيمان فيها درجته العليا. ومعه تزول الحاجة إلى الدليل! لا لتعارض الإيمان مع الدليل، بل لأنّه صار أقوى منه. وتُسمّى هذه المرتبة بمقام الطمأنينة.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "وهو أن يكتب كل ما أدركه عقله بقوة البرهان والسلوك العلمي بقلم العقل على صحيفة قلبه، ويوصل حقيقة ذل العبودية وعزّ الربوبية إلى القلب، ويتحرر من القيود والحجب العلمية، وسنشير إلى ذلك المقام عما قريب إن شاء الله. فنتيجة المقام الثاني إذاً هي حصول الإيمان بالحقائق. والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان. قال تعالى مخاطباً خليله ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾". [معراج الشاكين].

ويقول رحمته الله: "وابراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الإيمان والعلم الخاص للأنبياء فقال: "ربّ أرني كيف تحيي الموتى". فأراد أن يرتقي من الإيمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي. وأعظم من ذلك أنّ الله تبارك وتعالى

بأمر نبيّه الخاتم- وهو أعرف خلق الله مطلقاً- في الكرمّة الشريفة «وقل ربّ زدني علماً» [مقام السالكين]

فإذا استقرّت قدم السّالك في طريق المعرفة ولاحظ ربّه في كلّ شؤونه عنت له خلّسات تصير لمعات وبقارق من مبدأ الغيب؛ وهي لا تزال تكثر وتكثر حتى تصبح نوراً دائماً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: "قَدْ أَحْيَا عَقْلُهُ، وَأَمَاتَ نَفْسُهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ، وَسَرَقَ لَهُ لَامِعُ كَثِيرُ الْبَرَقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَا فَعَتَهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ، وَتَبَيَّنَتْ رِجْلَاهُ بِطَمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ، وَأَرَضَى رَبُّهُ." [نهج البلاغة]

يقول الإمام الخميني رحمه الله: "المقام الرابع مقام المشاهدة. وهو نور إلهيّ وتجلّ رحمانيّ يظهر في سرّ السّالك تبعاً للتجلّيات الأسماويّة والصفائيّة، وينور جميع قلبه بنور شهوديّ- وفي هذا المقام يبرز أنموذج من قرب التّوافل المعبر عنه بـ "كنت سمعه وبصره". ويرى السّالك نفسه مستغرقاً في البحر اللامتناهي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر. ولكلّ من هذه المقامات استدراج يختصّ به، وللسّالك فيه هلاك عظيم." [معراج السّالكين]

إنّ النّوع الرّابع من الإدراك والمعرفة هو الذي يشير إلى الدّرجة المطلوبة والمرضية، لأنّها:

1. تليق بشأن حضور الله وتناسب مع ظهوره.
2. تتسجم مع حقيقة خلقه الإنسان وقابليّاته.
3. تدلّ على التغلب على تأثير الشيطان ووساوسه.

وفي هذا المسير تكون المعرفة قد تكاملت واشتدت حتّى تصل إلى الشّهود ونظراً إلى الفارق الكبير بين الشهود وما دونه، فكانّ المعرفة فيه

تتبدّل نوعاً وكيفية. والسالك البالغ مقام الشهود يدرك حينها أنّ ما كان يحصل في حركته التكاملية هذه، ليس في ازدياد التجليات الإلهية أو السواردات القلبية، بل في ارتفاع الحجب وبطلان الأوهام. "ينال السالك بمقتضى سبق الرحمة وغلبة جهة "يلبي اللّهي"، الامداد الغيبي، ويحرق بالجذوة الإلهية ما بقي من الأنانية إن بقيت. ولعلّ في كيفية تجلّي الحقّ للجلجل واندكاكه وصعق موسى إشارة لما ذكر: "معراج السالكين".

وإذا كان التجلي عبارة عن ظهور فعلية الصفات، فإنه يكون بالنسبة لله تعالى كالأمر الواحد: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾. لأنّ أمره فعله، وإنّما أمره كن فيكون. فليس عند الله حين بعد حين ولا تجل بعد آخر. وإنّما هي قلوب العباد ترى التجليات بحسب المقامات. فالسالك المسافر من عالم الخلق (وهم حجاب الحق) إلى الحق، ومن الكثرة الناشئة من ملاحظة الأغيار إلى الوحدة الحقّة، فإنّ رؤيته للأشياء من جهة "يلي الخلق" بعد خرق الحجاب تجعله يرى إشعاعات أنوار الذات في كثرة ما شاء الله.

إنّ سلوك طريق التّكامل بقدم المعرفة هو الوسيلة التي ارتضاها الله لعباده ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، لا لأنّها توصل إلى الإحاطة به ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، بل لأنّها الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة. حقيقة عجزنا المطلق عن الإحاطة بكنه ذاته. ولهذا، عدّ التفكير في ذاته مذموماً، لأنّه يحكي عن الجهل التام بحقيقته. أمّا إذا عرفنا الله تعالى بالدرجة التي تنسجم مع الابتهاج الذاتي، ولم نرم ما وراء ذلك، فلن نكون من الهالكين. إن الجهل بالمسؤولية تجاه معرفة الله تعالى قد يكون أصل جميع المهلكات. وقد سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ فَمَنْ رَأَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ". [التكفي].

وقد جاء عن أمير المؤمنين (عليه السلام): "فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اغْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفُهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً فَأَقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُقَدَّرُ عَظَمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ". وفي مكان آخر قال (عليه السلام): "وَالْكَفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ عَلَى التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالزَّنْبِ وَالشَّقَاقِ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنْبِ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْ كَثُرَ نَزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عَنْدهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عَنْدهُ السَّيِّئَةُ وَسَكَرَ سُكْرُ الضَّلَالَةِ وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ". [تهج البلاغة]

إن الذي يعبر عن العلاقة الأصيلة الوجودية التي تربط المخلوق بالخالق عز وجل هو العجز والفقر والذلّ الإيماني للمخلوق، والعز والكبرياء والغنى والوجوب للخالق؛ وهي مختصرة في ذلّ العبودية وعزّ الربوبية. ولأنّ المعرفة بالشئ هي نوع من أنواع التسلط عليه، لما فيها من إحاطة للعالم بالمعلوم، فلا يتصور أن تبلغ معرفتنا بالله هذه الدّرجة أبداً، لأن وجوده تعالى قد أحاط بكل شئ، ولا يحيطون به علماً. هذه هي المعرفة التي تعصمنا من جهالة تصور الإحاطة بالخالق وإن كنّا في كثير من الأحيان ننفي وقوعنا بها. فالمعصومون المطهرون من إدعاء الإحاطة ليسوا سوى الراسخين في العلم. ولهذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام): "رأس الحكمة مخافة الله". وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾. فأهل الحكمة الراسخين في المعرفة هم الذين يخافون مقام الله ولا يعتدون عليه.

من الممكن أن يسلك الإنسان طريقاً عبادياً لا يدور حول المعرفة، ويدرك في نهايته مدى عجزه عن الاحاطة بالله؛ لكن قدم المعرفة هي الأشد ثباتاً ورسوخاً.

وفي الحركة العلمية الصحيحة يكون للعقل الدور المحوري. فبواسطته تفاض حقائق الوجود وتستقر في القلوب المستعدة، وبدونه لا تكون إلا الجهالة والضياح. "رَبِّ عَالَمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ". [نهج البلاغة]. ومن وصية رسول الإسلام العظيم ﷺ لعلِّي ﷺ: "يا علي! إذا تقرب العباد إلى خالقهم بأنواع البرّ فتقرب إليه بالعقل تسبقهم". [مشكاة الأنوار]. يعلم أن من يسبق هم القدوة. وأهل العقل هم القدوة. والعقل هو واسطة العلم حتماً.

وإنما يزيد العقل ويكمل بواسطة اشتغال النفس بمبادئ المعرفة الحقة والتوجه إلى معطياتها، التي هي عبارة عن تجليات الاسم الأعظم ومظاهره. فانظر إلى حال أكمل الخلق في المعرفة؛ وبالرغم من أنهم كانوا أشدّ الناس ارتباطاً بالتجليات الإلهية ومعرفة بها، فقد كانوا أكثر الناس اعترافاً بالعجز عن إدراك كنه الذات. وعليه لا تكون غاية المعرفة الإحاطة بالله تعالى، بل عمق التوجّه إلى الذات وشدته التي هي حبّ الله وعشقه.

يقول الإمام الخميني رحمه الله: "فتجلّي بالتجلّي الأزلّي بأعلى مراتب التجليات في حضرة الذات للذات. وهذا التجلي وإظهار ما في المكنون الغيبي والمقارعة الذاتية هو الكلام الذاتي الذي وقع بلسان الذات في حضرة الغيب، ومشاهدة هذا التجلي الكلامي هو سمع الذات، وثناء الذات هذا على ذات الحقّ هو ثناء الحقّ الذي تعجز سائر الموجودات عن إدراكه. كما أنّ الذات المقدسة للنبي الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، ومعلوم أنّ إحصاء الثناء فرع المعرفة بالكمال والجمال، وحيث أنّ المعرفة التامة للجمال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقي لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز". [معراج السالكين].

وفي موضع آخر يقول رحمه الله: "إنّ التسبيح هو التنزيه عن التوصيف

بالتحميد والتهليل. وهو من المقامات الشاملة، والعبد السالك لا بد أن يتوجه إليه في جميع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحق ولا يظن أن في إمكان العبد القيام بحق العبودية فضلاً عن القيام بحق الربوبية الذي انقطعت عنه أعين آمال الكمل الأولياء وتقاصرت عن ذيله أيدي الأعظم من أصحاب المعرفة (عنقا شكاركس نشود دام بازكير) فلهذه الجهة قالوا إن كمال المعرفة لأهل المعارف عرفان عجزهم نعم حيث أن الرحمة الواسعة للحق جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضعاف فرخص لنا نحن المساكين بالدخول إلى جناب خدمته بسعة رحمته، وتفضل بإجازة الورد في مثل هذا المقام المقدس المنزه الذي انقصمت ظهور الكرويين عن الدنونه. وهذا من أعظم تفضلات وأيادي الذات المقدسة لولي النعمة على عباده يعرف قدره أهل المعرفة والأولياء الكمل وأهل الله على قدر معرفتهم وأما نحن المحجوبون المتأخرون عن كل مقام ومنزلة والمحرومون البعيدون عن كل كمال ومعرفة فعنه غافلون كلياً." [مراج السالكين].

"فيا أيها الضعيف، ففي الوقت الذي يعترف فيه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول: "ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك"، وهو أعرف خلق الله، وعمله أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها وكذا الأئمة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس؛ فماذا يتأتى من بعوضة هزيلة." [مراج السالكين].

فالعارف الحقيقي هو الذي أوصله عرفانه وعلمه بالله إلى الاعتراف الحقيقي باستحالة معرفة الذات بما هي هي. وهو الذي يدرك مؤدى القول بإمكانية الإحاطة بالذات الإلهية المقدسة، في ضياع معنى الألوهية التي هي الفارق الجوهرى بين الخالق والمخلوق. فانظر إلى كلمات هذا العارف الكبير كيف يبين لنا هذه المسألة، فلا يسد باب معرفة الله، الذي هو غاية الخلق، ولا

يوقعنا بالجهل والتقصير الذي هو أصل الشقاء:

"أما عظمة متكلمه ومنشئه وصاحبه فهو العظيم المطلق الذي كانت جميع أنواع العظمة المتصورة في الملك والملكوت وجميع أنواع القدرة النازلة من الغيب إلى الشهادة رشحاً من تجليات عظمة فعل ذاته المقدسة ولا يمكن أن يتجلى الحق تعالى بالعظمة لأحد، وإنما يتجلى من وراء آلاف الحجب والسرادات، كما في الحديث: "إن لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه دونه"" . [معراج السالكين].

"إن تلك الآيات الكثيرة الراجعة إلى لقاء الله ومعرفة الله، والروايات الكثيرة في هذا الموضوع مع كثير من الإشارات والكنائيات والصراحات في الأدعية والمناجاة للأئمة عليهم السلام بمجرد ما تصطدم بتلك العقيدة - التي نشأت في هذا الميدان وانتشرت من العوام بأن طريق معرفة الله مسدود بالكلية حيث يقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب التفكير في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع - فلما أن يؤولوا ويوجهوا تلك الآيات والروايات، وكذلك الإشارات والكنائيات والصراحات في أدعية الأئمة ومناجاتهم، وإنما ألا يدخلوا في هذا الميدان أصلاً ولا يفتحوا على أنفسهم تلك المعارف التي هي قرّة عين الأنبياء والأولياء." [معراج السالكين].

إن الذين وصلوا إلى مقام المعرفة المرضية قد عبّدوا لنا الطريق، وأكدوا على أن البداية السليمة لسلوكه تكون في تحديد الموقف الواضح - معرفياً - من الذات الإلهية، ولهذا، نجد الإمام الخميني رحمته الله يفتح كتابه العرفاني المشهور بمصباح الهداية بالحديث عن معرفة الذات، فيقول: "إنّ الذات الإلهية في غيب وكمون لا اسم لها في عوالم الذكر الحكيم ولا رسم، ولا أثر لحقيقتها المقدسة بما هي هي. لا تتعلق بها آمال العارفين،

وقلوب الأولياء الكاملين عن ساحة قدسها محجوبة، بل هي غير معروفة لأحد من الأنبياء والمرسلين، ولهذا فهي غير معبودة من قبل العابدين والسالكين لأنَّ العبادة فرع التوجّه والتوجّه فرع المعرفة حتّى قال أشرف الخلق أجمعين: ما عرفناك حقّ معرفتك وما عبدناك حقّ عبادتك. وقد ثبت هذا في مدارك أصحاب القلوب حتّى قالوا: إنّ العجز عن المعرفة غاية معرفة أهل المكاشفة. ويعبّر أهل الاصطلاح عنها بالهوية الغيبية الأحدية، وعنقاء المغرب. [لطائف عرفانية].

"هذه الحقيقة الغيبية بذاتها لا تنظر نظر لطف أو قهر ولا تتوجّه توجّه رحمة أو غضب إلى العوالم الغيبية والشهادية من الروحانيين القاطنين في حضرة الملكوت والملائكة المقربين الساكنين في عالم الجبروت، بل هي بذاتها، أي بلا توسّط شيء لا تنظر إلى الأسماء والصفات، ولا تتجلّى بما هي في صورة أو مرآة بحيث يمكن الإشارة إليها. فالذات غيب مصون من الظهور، مستور غير مكشوف عن وجهها حجاب النور، فهو الباطن المطلق والغيب الذي لا يكون مبدأ لأي اشتقاق." [لطائف عرفانية].

وفي معراج السالكين من آداب الصلاة يقول ﷺ: "إعلم أيها السالك سبيل المعرفة والتوحيد والعارج معارج التنزيه والتجريد أنّ الذات المقدسة للحقّ تعالى من حيث هي منزّهة عن التجلّيات الظاهرة والباطنة ومبرّأة عن الإشارة والرسم والاسم والصفة، فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيل كبريائه، وأرجل أصحاب القلوب في السلوك عاجزة عن الوصول إلى محفل قدسه، إنّ غاية معرفة الأولياء الكمل هي: "ما عرفناك" ونهاية سير أصحاب الأسرار هي: "ما عبدناك"؛ ورئيس سلسلة أهل المعرفة وأمير أصحاب التوحيد يقول في هذا المقام الرفيع: "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه"، وإمام أهل السلوك وسيّد الساجدين والعارفين يترنّم في

هذا الجنب المنيع قائلاً: "ضَلَّتْ فِيكَ الصِّفَاتُ وَتَفَسَّخَتْ دُونَكَ التَّعَوُّتُ"، وأصحاب السُّلُوكِ العِلْمِيِّ والاصطلاحات يسمُّون الذَّاتَ المقدَّسةَ الغيبَ المصنُون والسِّرَّ المكنون والعنقاء المغرب والمجهول المطلق، ويقولون:

إِنَّ الذَّاتَ بِلا حجاب الأسماء والصِّفَاتِ لَن تَتَجَلَّى فِي مَرآةٍ مِنَ المَرَائِي وَلَن تَظْهَرُ فِي نَشْأَةٍ مِنْ نَشْآتِ الوجودِ أَوْ فِي عَالَمٍ مِنْ عوَالِمِ الغيبِ والشَّهودِ؛ وَلَكِن بِحَسَبِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ.. أَنَّ لِلذَّاتِ المقدَّسةِ أَسْماءَ وصِفَاتٍ وشُؤُونَ جَمالِيَّةَ وَجَلالِيَّةَ وَلِها أَسْماءَ ذاتِيَّةَ فِي مَقامِ الأُحادِيَّةِ الَّذِي هُوَ مَقامُ الغيبِ، وَلا يَدَّ أَنْ يُقالَ لَتلكَ الأَسْماءِ الأَسْماءَ الذَّاتِيَّةَ، وَبَتَعَيَّنَ الأَسْماءَ الذَّاتِيَّةَ تَتَجَلَّى بِالْفَيْضِ الأَقْدَسِ، وَبِهَذَا التَّجَلِّيِّ فِي كَسوةِ الأَسْماءِ الذَّاتِيَّةِ يَتَعَيَّنُ وَيُظْهَرُ مَقامُ الواحِدِيَّةِ وَحَضرةُ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ وَمَقامُ الأُلُوْهيَّةِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ بَعْدَ الذَّاتِ المقدَّسةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ، ثَلَاثُ مَقاماتٍ وَمُشاهِدَةٍ أُخْرَى: مَقامُ الغيبِ الأُحَدِيِّ، وَمَقامُ التَّجَلِّيِّ بِالْفَيْضِ الأَقْدَسِ، وَلَعَلَّ العَماءَ الوارِدَةَ فِي الحَدِيثِ النَبَوِيِّ تُكونُ إشارَةً إِلَيْهِ وَمَقامُ الواحِدِيَّةِ الَّذِي هُوَ الاسمُ الأعْظَمُ بأُحادِيَّةِ الجَمْعِ، وَمَقامُ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ بالكثرةِ التَّفْصِيلِيَّةِ، وَتَفْصِيلُ هَذِهِ المَقاماتِ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطٍ خَارِجٍ عَنِ نَطاقِ هَذِهِ الأَوْرَاقِ." [معراج السالكين].

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ العِلْمَ بِأَيِّ تَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّياتِ الذَّاتِ المقدَّسةِ، ما لَمْ يَكُنْ مُتَّصِلاً وَمَوْصِلاً إِلَى الذَّاتِ الأُحادِيَّةِ فَلا يَكُونُ مَعْرِفَةً مُرضِيَّةً، بَلْ هُوَ شَرِكٌ عِنْدَ أَهْلِ المَعْرِفَةِ. وَلَكِي يَكُونُ التَّجَلِّيُّ تَجَلِّياً فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً عَلَى ذَاتِ المُتَجَلِّيِّ؛ وَفِي الوَقْتِ نَفْسَهُ لا يَمْكَنُ إِدْرَاكُ كُنْهٍ هَذَا التَّجَلِّيِّ الَّذِي يَرْجِعُ فِي الحَقِيقَةِ إِلَى العَجْزِ عَنِ إِدْرَاكِ الذَّاتِ.

إِنَّ لَذَاتِ الحَقِّ تَعالَى حَضوراً شامِلاً مَعَ كُلِّ الأَشْياءِ؛ قالَ تَعالَى: ﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنْ ما كُنْتُمْ﴾ وما لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ المَعِيَةِ القِيومِيَّةِ هُوَ مُعزُولٌ عَنِ خَلْقِهِ وَمُحْدودٌ بِهِمْ، وَمِثْلُ هَذَا لَنْ يَكُونُ إِلَهاً. وَلِهَذَا قالَ تَعالَى: وَهُوَ الَّذِي فِي

السماء إله وفي الأرض إله. "لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بَخَارٌ". (إنجى البلاغة، "لَمْ يَخْلُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا، فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ". (إنجى البلاغة).

إن السر وراء جذب الخلق إلى معدن الذات قد سبقت الإشارة إليه، ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا ونحن نبحث عن علاقة المعرفة بذات الله تعالى ومدى إمكانيتها. وعليه، فإن إنكار هذه الحركة الرجوعية العروجية إلى الذات بحجة استحالة إدراك كنهها لهو من أدق حالات الجهل بالله تعالى. وهو يخفي في باطنه شركاً ينبغي أن نستعيذ منه. لأنه تمييز للذات في قبال الخلق وتقييد لها وتحديد؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فليس في الوجود كله إلا حركة واحدة تنتهي إلى الذات (حباً وهيماناً وعبودية وقرباً) بالعجز عن معرفتها. فالعجز المطلق هنا هو مؤشر الوصول! وسالك طريق المعرفة، ما لم يبلغ مقام معرفة الاسم الأعظم، بل التحقق به، فإنه سيكون في قرارة نفسه وفي أعماق ذاته معتقداً بإمكانية الإحاطة بالله، ولو لم يشعر. ولهذا، يجب أن نستعيذ بالله من هذا الشرك ونسأل الحق تعالى أن يطهر قلوبنا منه لتصل إلى مقام القلب السليم حيث لا يوجد فيه إلا الله. ولعل الناس في هذه القضية فئات ثلاث:

1. فئة بلغت مقام الاسم الأعظم.
 2. فئة أعرضت عن معرفة الاسم الأعظم.
 3. وفئة ظنّت أنها تعرف الله، وهي لا تعرف شأن الاسم الأعظم.
- فالأولى تكون معرفتهم مرضية عند الله تعالى، لأنهم سيتمكنون بفضل معرفة أعلى التجليات من تكبير الذات عن الوصف؛ ويكون اعترافهم بالعجز عن المعرفة مع حصول الفناء التام (الذي هو أعلى توجه إلى الذات). والفئة الثانية محرومة محجوبة.

والفئة الثالثة إن لم تدركها العناية الإلهية وتستيقظ من غفلتها، فإنها لن تحفظ ما عرفته من ربها من تجليات؛ لأن جميع التجليات هي بالحقيقة إشعاعات حقيقة الاسم الأعظم.

فمن تصوّر أنّ مقام الاسم الأعظم هو مقام الذات المقدسة بم عزل عن التسميات، وحصر معرفة الله بمعرفة أسمائه الكثيرة، ولم يدرك معنى جمعية الأسماء في مقام التجلي الأعظم، فقد وقع في حجاب الكثرة الأسماوية وتكثير الذات. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "فالقائون في هذا المنزل الأدنى والدرك الأسفل والأرض السفلى والساكنون في هذه القرية الظالم أهلها والبلد الميت سكّانه لا يتجلّى لهم الحقّ إلّا من وراء ألف حجاب من الظلمة والتور متركمة بعضها فوق بعض. (فإنّ الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنتم في آخر العوالم وأسفلها) (وللّه سبعون ألف حجاب من نور، وسبعون ألف حجاب من ظلمة) والمستخلصون عن هذا السّجن وقيوده والطبيعة وحدودها، والمنزّهون عن قذارة الهيولى الجسمانيّة وهيئتها وظلمة عالم المادة وطبقاتها، الواصلون إلى عالم الملكوت يشاهدون من وجهه وجماله وبهائه أكثر من هؤلاء ألف ألف مرّة، ولكنهم أيضاً في حجب نورانيّة وظلمانيّة.

والمتجرّدون عن هيئات عالم الملكوت وتعلّقاته وضيق عوالم الخيال والمثال، والقائون في البلد الطيّب ومقام القدس والطهارة يشاهدون من البهاء والجمال والوجه الباقي لذی الجلال: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا وهم أحاط به ولا فكّر حام حوله ولا عقل بلغ إليه، من الأسرار والأنوار والتجليات والكرامات، ولكنهم أيضاً في حجب التعيينات والماهيات. والواصل إلى باب الأبواب والمشاهد لجمال المحبوب بلا حجاب والمتحقّق بمقام الولاية المطلقة هم الذين خرجوا عن الدنيا والآخرة وتجرّدوا عن الغيب

والشهادة ولم يخلطوا العمل الصالح بالسّيئ.

بيني وبينك إنّي ينازعني فارع بلطفك إنّي من البين وهو مقام استهلاك جهة الخلقيّ في جهة الرّبّي، وخلع نعلي الإمكان والتعین، ولا مقام فوق هذا إلّا مقام الاستقرار والتمكين والرّجوع إلى الكثرة مع حفظ الوحدة، فإنّه أخيرة منازل الإنسانيّة. وليس وراء عبادان قرية. وللإشارة إلى هذا المقام ورد: "إنّ لنا مع الله حالات هو هو ونحن نحن".

[شرح دعاء التضرّع]

ولعلّ أجمل كلام قيل بشأن هذا المقام ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: "قال رسول الله ﷺ: "ما خلق الله أفضل منّي ولا أكرم عليه منّي". قال عليّ عليه السلام: فقلت يا رسول أنت أفضل أم جبرائيل؟ فقال: يا عليّ إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النّبیین والمرسلين والفضل بعدي لك يا عليّ وللأنّة من بعدك، وإنّ الملائكة لخدّامنا وخدام محبّينا. يا عليّ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا. يا عليّ لولا نحن ما خلق الله آدم عليه السّلام ولا حواء ولا الجنّة والنّار، ولا السّماء والأرض، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربّنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ لأنّ أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ أرواحنا فأنطقها بتوحيده وتمجّيده". [تلطف عرفقيه].

فانظر كيف أنّ ملائكة الله مع ما لهم من مقام معرفة الله (بما هم ملائكة)، كادوا أن يخلطوا بين نور الإنسان الكامل والذّات الإلهيّة، لو لم تتداركهم رحمة الله، حيث سبّح هذا الإنسان. فعلموا بهذا التسبيح، الذي هو تنزيه للذّات عن التوصيف، حقيقة المعرفة.

بتعليم الإنسان الكامل وإنبائه خرجت ملائكة الله إلى الوجود، لأن وجودها لا يمكن أن ينفصل عن التسبيح والتمجيد والمعرفة الحقيقية؛

وبفضله صار لها المنزلة الرفيعة بعد أن تعلمت منه حقيقة التسبيح والتهليل والتمجيد فحيثية وجود هذه الموجودات الشريفة وسرها هي في مالها من مقام المعرفة التي تتجلى بهذا الثناء. وكأن الحديث يقول: لولانا لما كانت الملائكة ملائكة؛ لأنها بالمعرفة الحقة صارت ملائكة الله.

إن أهل البيت العصمة، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم أفضل خلفاء الله في العالم، قد تحققوا بمقام عظيم، من لم يعرفه لن يعرف معنى العجز عن معرفة الذات المقدسة. وبالعجز عن المعرفة نبلغ غاية المعرفة ويتحقق لنا مقام القرب وكمال الوصال. إلا أن الله تعالى قد تفضل على ملائكته أولاً، وعلى خلقه ثانياً، وأنطق هذا المقام بالاعتراف بالعجز عن معرفة الله من خلال التسبيح والتحميد. فعلم أهل الله بفضلهم أن لربهم مقاماً أسمى وأعلى من أن يدركه أحد.

إن الصلاة هي معراج المؤمن وأعظم وسيلة جعلها الله تعالى تعبيراً عن عرفاننا. ولهذا، اختلفت صلاة كل إنسان بحسب معرفته. أما الصلاة التي ارتضاها الله لنفسه فهي التي يستحضر فيها مقامه الأسنى الأعظم، وينطلق المصلّي فيها من هذا الحضور للثناء عليه بكل تجلياته، فيبلغ بهذا الثناء وتلك الصلاة المقام عينه. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "المقامان - أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته - مرمران في جميع العبادات وبالأخصّ في الصلاة التي لها مقام الجامعة، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الاسم الأعظم بل هي عينه." ويقول رحمته الله: "فالكمال المطلق إذاً وهو الوصول إلى فناء الله والاتصال بالبحر الوجوبي غير المتناهي وشهود جمال الأزل والاستغراق في بحر النور المطلق يحصل في الصلاة." [معراج السالكين].

بَتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ
 بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارِنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ
 عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادُّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحِ
 بِالْبُهْمَةِ، وَالْجَمُودِ بِاللَّيْلِ، وَالْحَرُورِ بِالصَّرْدِ مُؤَلَّفٌ
 بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ
 مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. "

مصادر العرفان:
 أين نحصل على
 معرفة الله؟

مصادر العرفان : أين نحصل على معرفة الله؟

" ولْيُعْلَم أَنَّ المعارف، من معرفة الذات إلى معرفة الأفعال، قد ذُكرت في هذا الكتاب الجامع الإلهي على نحو تدركه كل طبقة على قدر استعدادها."

[معراج السالكين].

إذا كنا نبحث عن مصادر معرفة الله تعالى، فعلينا أن نتوجه إلى محال تجلياته. إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد تجلّى باسمه الأعظم في جميع حضرات الوجود ومراتبه، ولم يكن ثمة شيء إلا وهو يدلّ عليه. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد جعل الله تعالى لهذا الإنسان من قوة الإدراك ما يتناسب مع تلك الحضرات. فلم يكن من شيء يدل على ذاك التجلي الأعظم إلا وكان للإنسان ما يدركه به:

أتحسب أنك جرّم صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يُقرأ المضمّر

ولكي تتحقّق المعرفة لا بد من وجود سنجيّة وجهة اشتراك بين العالم والمعلوم. ولما كانت مظاهر الاسم الأعظم غير متناهية، ولما أراد الله سبحانه لهذا الإنسان أن يتعرّف إليه في كلّ شيء، حتى لا يجهله في شيء، فقد جعل بينه وبين كلّ شيء نسبة وجودية.

لقد تجلّى الله في كتابه، وفي أوليائه الذين هم مرآتي جماله وجلاله، وفي خلقه، وفي الكائنات والحوادث؛ وما على الإنسان إلا أن يتّصل بهذه المجالي اتصالاً لا حجاب فيه أو احتجاب، حتّى ينال شرف شهود تجلّيات الاسم الأعظم.

وعليه فإن أشهر مصادر معرفة الله تعالى هي هذه المصادر الأربعة:

1. كتاب الله.
2. أولياؤه (في مقاماتهم وسيرتهم العلميّة والعملية).
3. عالم التكوين (بكلّ مراتبه).
4. حوادث الحياة الاجتماعية (بكلّ تفاصيلها).

1. كتاب الله

يقول الإمام الخميني رحمته معرّفاً هذا المصدر العظيم للعرفان: "وحقيقة القرآن الإلهي الشّريف قبل تنزّله إلى المنازل الخلقيّة وتلبّسه بالأطوار الفعلية هي من الشؤون الذاتية والحقائق العلميّة للحضرة الواحديّة، وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هو مقارنة ذاتيّة في الحضرة الاسمائيّة". [معراج السالكين].

عظمة القرآن الكريم تكمن في احتوائه على جميع مراتب التجلّي الإلهي؛ وهو المعنى المرموز في الدّعاء "وفيه اسمك الأعظم"؛ وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى بقوله: "إنّ الله تجلّى لخلقه بكتابه ولكن لا يبصرون".

ويؤكد الإمام عليه السلام أنه لولا القرآن لانسد باب معرفة الله إلى الأبد. ومن

المناسب أن نشير إلى القضايا التالية:

1. في معنى انطواء القرآن على جميع مراتب التجليات.
2. في سرّ انسداد باب المعرفة لولا القرآن.
3. في كيفية الاستفادة العرفانية من كتاب الله.

إن جامعية القرآن الكريم لكل مراتب التجلي تتضح من خلال الالتفات إلى معنى بطون القرآن وكون حقيقته أعلى وأرقى وأعمق من المعاني التي ندرکها من وراء الألفاظ. كما أن البحث في معنى الاسم الأعظم - والذي سيفصل لاحقاً - يشير إلى حقيقة كونية وجودية هي أعظم من أي موجود سوى الله تعالى. فلتن كانت الأرض والسموات تجليات إلهية، ولتن كانت الملائكة مظاهر ربانية، فإن الاسم الأعظم أعظم منها وأكبر. ولو كان تعريفنا لأي موجود بأنه منشأ الآثار، فإن آثار الاسم الأعظم هي أكبر من آثار جميع موجودات العوالم. فقولنا أن في كتاب الله حقيقة الاسم الأعظم يعني أن لهذا الكتاب الشریف حقائق وجودية، وقد كانت الألفاظ صورتها النازلة في آخر التعينات.

إن آيات الله الماثورة في كل أرجاء السموات السبع (التي تمثل كليات العوالم الغيبية) إلهي مطوية في الحقيقة القرآنية: ﴿وكل شيء أحصيناه في كتاب مبين﴾. وما في القرآن أعظم مما في هذه السموات والمرتبات الوجودية: "إن الكتاب التكويني الإلهي والقرآن الناطق الرباني أيضاً نازل من عالم الغيب والحزينة المكنونة الإلهية مع سبعين ألف حجاب لحمل هذا الكتاب التدويني الإلهي وخلص النفوس المنكوسة المسجونة عن سجن الطبيعة وهداية غرباء هذه الديار الموحشة إلى أوطانها، وإلا فإن تجلّي هذا الكتاب المقدّس والمكتوب السبحاني الأقدس بإشارة من إشاراته وتغنّز من غمزاته برفع بعض الحجب النورية على السموات والأرضين لأحرقت

أركانها أو على الملائكة المقربين لاندكت إنياتها" [شرح دعاء السحر].

واحدى الدلالات على هذا المعنى حديث شريف يبين احتواء القرآن على جميع درجات الجنة، "إذا جاء يوم الحساب قيل لقارئ القرآن اقرأ وأرق، فلا يكون في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن الكريم"، ومنها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: "ما زلت أردد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها". وغيرها كثير يصرح أو يشير إلى للقرآن حقيقة فوق تصور أي مخلوق.

أمّا ما يتعلق بانسداد باب المعرفة لولا القرآن، فيعلم من خلال ارتباط سائر المظاهر الإلهية بدور القرآن المحوري في عملية التعبير عن الاسم الأعظم والنطق به:

فأما أهل بيت النبوة ﷺ، فلا شك بأن كل تعاليمهم وهدايتهم - التي كانت جميع مساعيهم من أجلها - قد كانت من أجل تعليم كتاب الله، وأنما بعثوا وأنزلوا إلى الناس ليبينوا لهم حقائقه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فمن لم يدرك حقيقة هذه الرابطة ومحورية هذا الدور، وعزل الكتاب عن العترة، فلن ينتفع من الكتاب ولا العترة؛ فينسدد أمامه باب معرفة الله على الحقيقة، فكتاب الله موقف فهمه على وجودهم وتعليمهم. وكلما تفهموا لا تفهم إلا إذا ظهر دورها في تعليم الكتاب الإلهي.

وأمّا عالم التكوين، فإنه لن ينتظم ليكون مظهر الاسم الأعظم، إلا إذا أقيم الكتاب كله وطبقت معارفه عليه. وما دام الفساد ظاهراً في بر التكوين وبحره، فإن مشهد الاسم الأعظم لن يتحقق. وفي كتاب الله برنامج إصلاح العالم التكويني. حتى إذا صلح بتطبيق الكتاب، «أشرق الأرض بنور ربها،

وجاء ربك والملك صفًا صفًا؛ هناك سيأتي الرب بحكومة الاسم الأعظم. وأما حوادث الحياة الاجتماعية ومجرباتها، فهي، منذ أن نزل القرآن، تدور حول القرآن. فقد بُعث رسول الإسلام وانطلقت بفضلله حركة اجتماعية ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا. وكل ما حدث ويحدث منذ صدر الإسلام قد كان في الواقع انفعالا وردّ فعل على دعوته المباركة، فما لم نفسّر أحداث الصدر الأوّل تفسيراً قرآنيّاً، وما لم نتمكّن من قراءة الدّعوة منذ بدايتها على أنّها جهاد قرآنيّ وتفاعل معه، سنعجز عن قراءة أحداث العصور اللاحقة من خلال القرآن. وسيفلق باب معرفة الأحداث الاجتماعية الدالة على الله وقدرته العظيمة.

وتشير العديد من الشواهد الروائية إلى هذا الأمر، وتؤكد وفقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. إن التاويل عبارة عن إرجاع كلّ الأحداث الاجتماعية والكونية إلى القرآن الكريم. وهناك سيخبرنا الكتاب - بما لا يترك مجالاً للشك - عن كل ما جرى ويجري. وفي حديث مروي عن فضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: ما من القرآن آية إلا ولها ظهْرٌ وبطنٌ، قال: ظهره [تنزيله] وبطنه تأويله ومنه ما قد مضى ومنه ما لم يكن يجري كما تجري الشمس والقمر كلّ ما جاء تأويل شيء يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ نُخِرُ نَعْلَهُمْ﴾. [رسائل الشيعة]

إنّ فهم أحداث الحياة الاجتماعية الكبرى من خلال تأويل القرآن وتطبيقه عليها، لهو الطريق الوحيد لمشاهدة حضور الله الأعظم فيها.

وفي القضية الثالثة، يمثّل الإمام الحسيني في تراثه العرفاني النموذجاً

متقدماً في مجال الاستفادة المعرفية من كتاب الله المجيد. ويبدو أن الإمام قدس سره كان يواجه تيارين منحرفين أثراً كثيراً في سدّ باب المعرفة؛ الأول: يتهم أصحابه كلّ من يسعى للتدبر في القرآن بأنّه يفسّره برأيه، وانطلاقاً من الحديث المروي عن نبي الإسلام أنّ "من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"، ينهى هؤلاء عن جميع أشكال إبداء الرأي والاستنتاج من القرآن، فيصبح كتاب الله وفق هذه العقيدة مجرد كلمات وألفاظ للتبرّك والثواب. يقول الإمام متسائلاً انطلاقاً من بديهيات الفكر الديني: "إذا استفاد أحد من قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، الذي يحصر جميع المحامد بالله ويخصّص جميع الثناءات بالحقّ تعالى، التوحيد الأفعالي، وقال بأنّه يستفاد من الآية الشريفة أنّ كلّ كمال وجمال وكلّ عزّة وجلال الموجودة في العالم وتنسبها العين الحولاء والقلب المحجوب إلى الموجودات هي من الحقّ تعالى وليس لموجود من قبل نفسه شيء، ولهذا تكون المحمّدة والثناء خاصّة بالحقّ ولا يشاركه فيها أحد، فأني ربط لهذا بالتفسير حتى يسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يسمّى؟". [معراج السالكين].

والتيار الآخر هو تيار التفسير الاعتباري، الذي أضاع المنهج القائم على نظام القرآن اللغوي، وابتعد عن دوره في التطبيق والتطابق مع النظام التكويني.

وكان الإمام يرى القرآن في جميع سياقاته اللغويّة محاكياً للنظام التكويني الذي يفترض أن يكون تنزّلاً أو مطابقاً لمقام الاسم الأعظم. فكما أنّ عوالم الوجود مترتبة ضمن سياق نزولي بدءاً من أعظم الحضرات والتجلّيات إلى منتهى نهاية الظلمات، كذلك هو القرآن. يقول الإمام: "وبالجملة، فإنّ الله تبارك وتعالى لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسّه وتنزّل به على حسب ما يناسب العوالم حتّى وصل إلى هذا

العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الالفاظ وصورة الحروف
لخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم ونجاة المغلولين بأغلال الآمال
والأُماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج
الكمال والقوة الإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملائكة إلى
الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد
أهل الله ومطالبهم، فمن هذه الجهة إنَّ هذا الكتاب هو كتاب الدعوة إلى
الحقِّ والسعادة". [مراج الشفيعين].

وفي كتاب الله التدويني تمت رعاية هذا التدرج التكويني، فصار
معلماً ملحوظاً لكل من اتبع قرآنه، لهذا نجد الإمام يتبع هذا السياق سعياً
منه لإدراك حقائق الوجود التي لا تُعرف إلا في انتظامها الوجودي.
وعلى سبيل المثال، يقول الإمام: "اعلم أنَّ سورة الحمد المباركة كما أنَّها
مشتملة على جميع مراتب الوجود، كذلك هي مشتملة على جميع مراتب
السلوك، ومشتملة بطريق الإشارة على جميع مقاصد القرآن. والغور في
هذه المطالب وإن كان يحتاج إلى بسط تام ومنطق غير هذا المنطق، ولكن
الإشارة إلى كلِّ واحد منها لا تخلو من فائدة، بل فوائد، لأصحاب المعرفة
واليقين. فنقول في المقام الأول: أنه يمكن أن يكون بسم الله الرحمن الرحيم
إشارة إلى دائرة الوجود بتمامها وقوسي النزول والصعود، فاسم الله
مقام أحدية القبض والبسط والرحمن مقام البسط والظهور وهو قوس
النزول. والرحيم مقام القبض والبطون وهو قوس الصعود. والحمد لله
يمكن أن يكون إشارة إلى عالم الجبروت والملائكة الأعلى التي حقائقها
المحامد المطلقة. ورب العالمين بمناسبة التربية وبمناسبة العالمين التي هي
مقام السوائية والغيرية يمكن أن يكون إشارة إلى عوالم الطبيعة التي تكون
بجوهر ذاتها متحركة ومتصرمة وتحت التربية. ومالك يوم الدين إشارة
إلى مقام الوحدة والقَهَّارية ورجوع دائرة الوجود. وإلى هنا يختتم دائرة

الوجود بتمامها نزولاً وصعوداً". [معراج السالكين].

وفي مورد آخر نجدهُ ﷺ يبيّن هذا المطلب بالصّراحة فيقول: "إنّ للسان والتكلّم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود وحيث أنّ الحمد في كلّ مورد على جميل والمدح على جمال وكمال، فالحقّ جلّ وعلا بحسب علمه الذاتيّ شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهويّة بأنّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجاً بذاته الجميلة بأشدّ مراتب الابتهاج. فتجلّى بالتجلّي الأزليّ بأعلى مراتب التجليات في حضرة الذات للذات. وهذا التجلّي وإظهار ما في المكنون الغيبيّ والمقارعة الذاتية هو الكلام الذاتيّ الذي وقع بلسان الذات في حضرة الغيب، ومشاهدة هذا التجلّي الكلامي هو سمع الذات، وثناء الذات هذا لذات الحقّ هو ثناء الحقّ الذي تعجز سائر الموجودات عن إدراكه. كما أنّ الذات المقدّسة للنبيّ الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"، ومعلوم أنّ إحصاء الثناء فرع المعرفة بالكمال والجمال، وحيث أنّ المعرفة التامة للجمال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقي لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز. ويقول أهل المعرفة: إنّ الحقّ تعالى يحمد ومدح نفسه بالألسنة الخمسة وهي لسان الذات من حيث هي، ولسان أحدية الغيب، ولسان الواحدية الجمعية، ولسان الأسماء التفصيليّة، ولسان الأعيان. وهذه الألسن غير لسان الظهور الذي أوّله لسان المشيئة الى آخر مراتب التعيّنات التي هي لسان الكثرات الوجوديّة، واعلم أنّ جميع الموجودات حظّاً بل حظوظاً من عالم الغيب الذي هو الحياة المحضة، والحياة سارية في جميع دار الوجود". [معراج السالكين].

ويظهر هذا المنهج التفسيريّ في سعي الإمام لفهم سرّ تقديم الربّ في

قوله «رَبِّ الْعَالَمِينَ» من سورة الفاتحة المباركة وذكر الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بعده، وفي تأخير المالك حيث يقول: "لعلَّ في تقديم الرَّبِّ وذكر الرَّحْمَنِ والرَّحِيمِ بعده وفي تأخير المالك، إشارة لطيفة إلى كَيْفِيَّةِ سلوك الإنسان من النشأة الملكية الدنيوية حتَّى الفناء الكلِّي أو حتَّى مقام الحضور عند مالك الملوك فالسَّالِك ما دام في مبادئ السَّير فهو تحت تربية رَبِّ الْعَالَمِينَ التدريجية؛ لأنَّه أيضاً من الْعَالَمِينَ وسلوكه تحت تصرف الزمان والتدرُّج. فإذا انسلخ عن عالم الطَّبِيعَةِ المتصرِّمة بقدَم السُّلُوك تتجلَّى في قلبه مرتبة الأسماء المحيطة التي لا تتعلَّق بالعالم الذي يغلب عليه جانب السَّوآتِيَّة، وحيث أنَّ للاسم الرَّحْمَنِ الشَّريف مزيد اختصاص بين الأسماء المحيطة فهذه الجُهة قد ذكر، وحين أنَّ الرَّحْمَنَ ظهور الرَّحْمَةِ ومرتبة البسط المطلق فقد قدَّم على الرَّحِيمِ الأقرب إلى أفق البطون. ففي السلوك العرفاني تتجلَّى أولاً الأسماء الظاهرة وبعدها الأسماء الباطنة لأنَّ سير السَّالِك من الكثرة إلى الوحدة حتَّى ينتهي إلى الأسماء الباطنة المحضة التي منها اسم المالك ففي التجلِّي بالملكيَّة تضمحلُّ كثرات عالم الغيب والشَّهادة ويحصل الفناء الكلِّي والحضور المطلق". [معراج الشَّكُوكين].

ويتجاوز الإمام تلك النَّكات اللُّغويَّة الدَّائرة على لسان أهل اللغة، ليؤكد مرَّة أخرى على الانطباق بين كتاب الله وعوالم الوجود، وكيف أنَّ القرآن سبيل الارتقاء فيها فيقول: "قد تبيَّن من مقاطع هذه الرِّسالة نكتة العدول عن الغيبة إلى الخطاب، وهذا وإن كان بنفسه من محسِّنات الكلام ومزايا البلاغة وكثيراً ما يقع في كلام الفصحاء والبلغاء ويوجب حسن الكلام، ونفس الالتفات من حال إلى حال يرفع السَّامة عن المخاطب ويعطي روحه نشاطاً جديداً، ولكنَّ حيث أنَّ الصَّلَاة معراج الوصول إلى حضرة القدس ومِرْقَاة حصول مقام الأنس، فهذه السُّورة الشَّريفة تقدِّم لنا حكم

التَّرقِي الرُّوحَانِي والسَّفَر العِرْفَانِي. وَحَيْثُ أَنَّ الْعَبْدَ فِي بَدْءِ السَّلُوكِ إِلَى اللَّهِ مُحَجَّبٌ فِي الْحَجَبِ الظُّلُمَانِيَّةِ لْعَالَمِ الطَّبَعِ وَالْحَجَبِ النُّورَانِيَّةِ لْعَالَمِ الْغَيْبِ وَمُحْبُوسٌ فِيهَا، وَالسَّفَرُ إِلَى اللَّهِ هُوَ الْخُرُوجُ مِنْ هَذِهِ الْحَجَبِ بِقَدَمِ السَّلُوكِ الْمَعْنَوِيِّ، وَفِي الْحَقِيقَةِ الْمَهَاجِرَةِ إِلَى اللَّهِ هِيَ الرَّجُوعُ مِنْ بَيْتِ النَّفْسِ وَبَيْتِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ وَتَرْكُ الْكَثَرَاتِ وَرَفْضُ غُبَارِ الْغَيْرِيَّةِ وَحَصُولُ التَّوْحِيدَاتِ وَالْغَيْبَةِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْحَضُورَ لَدَى الرَّبِّ، فَإِذَا رَأَى فِي آيَةِ الشَّرِيفَةِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ الْكَثَرَاتِ مَنْطُوبَةً تَحْتَ سَطْوَعِ نَوْرِ الْمَالِكِيَّةِ وَالْقَاهِرَةِ، فَتَحْصُلُ لَهُ حَالَةُ الْمَحْوِ عَنِ الْكَثَرَةِ وَيَحْصُلُ لَهُ الْحَضُورُ فِي الْحَضَرَةِ، وَيَقْدَمُ الْعِبَادَةُ بِالْمَخَاطَبَةِ الْحَضُورِيَّةِ وَمَشَاهِدَةِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ وَيَعْرُضُ مَشَاهِدَاتِهِ لِلَّهِ وَطَلَبَهُ عَلَى مُحَضَّرِ الْقُدْسِ وَمَحْفَلِ الْأَنْسِ.

وَلَعَلَّ النَّكْتَةَ فِي أَنَّ الْعَبْدَ يُؤَدِّي هَذَا الْمَقْصِدَ بِضَمِيرِ إِيَّاكَ هِيَ أَنَّ هَذَا الضَّمِيرَ رَاجِعٌ إِلَى السَّذَاتِ مَضْمَحَلَّةً فِيهَا الْكَثَرَاتِ. فَيُمْكِنُ أَنْ تَحْصُلَ لِلْسَّالِكِ فِي هَذَا الْمَقَامِ حَالَةُ التَّوْحِيدِ الدَّائِيَّ وَنُصْرَفُ عَنْ كَثَرَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَيْضاً وَتَكُونُ وَجْهَةَ الْقَلْبِ حَضَرَةُ الدَّاتِ بِلا حَجَبِ الْكَثَرَاتِ. وَهَذَا هُوَ كِمَالُ التَّوْحِيدِ الَّذِي يَقُولُهُ إِمَامُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَقْدَمُ حَلْقَةِ الْعَارِفِينَ وَقَائِدِ الْعَاشِقِينَ وَرَأْسُ سُلْسَلَةِ الْمَجْذُوبِينَ وَالْمُحِبِّينَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ الْمُعْصُومِينَ: "وَكِمَالُ التَّوْحِيدِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ"، لِأَنَّ لِلصِّفَةِ وَجْهَةَ الْغَيْرِيَّةِ وَالْكَثَرَةَ. وَهَذَا التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَثَرَةِ الْأَسْمَائِيَّةِ بَعِيدٌ عَنْ سَرَائِرِ التَّوْحِيدِ وَحَقَائِقِ التَّجْرِيدِ، وَلِهَذَا فَلَعَلَّ سَرَّ خَطِيئَةِ آدَمَ ﷺ كَانَ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَثَرَةِ الْأَسْمَائِيَّةِ الَّتِي هِيَ رُوحُ الشَّجَرَةِ الْمُنْهِيَّةِ.

إِنَّ فِي أَلْفَاصِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ حِكَايَةَ عَنْ تَنْزَلِ الْحَقِيقَةِ الْعَظْمَى طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، مِثْلًا أَنَّ فِيهِ بَيَانَ طَرِيقَ الْارْتِقَاءِ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ، فَمَنْ نَزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً سَيَتَدَرَّجُ فِي حَرَكَتِهِ

التزوليّة، لأجل خلاص المسجونين في سجن الطبيعة المظلم: "فهذا الكتاب الإلهي العظيم الذي نزل من عالم الغيب الإلهي والقرب الربوبي، ولأجل مصلحتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطبيعة والمغلولين في سلاسل أهواء النفس والآمال قد صار في صورة اللفظ والكلام هو من أعظم مظاهر الرحمة الإلهية المطلقة. ونحن الصم العمي لم نستفد منه بشيء ولا نستفيد. وإنّ الرسول الخاتم والولي المطلق الأكرم - الذي قدم من محضر القدس الربوبي ومحفل القرب والأنس الإلهي إلى منزل الغربة والوحشة، وابتلي بمعاشرة أمثال أبي جهل ومن هو شرّ منه وأنيته ليغان على قلبي قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية وما زال - هو الرحمة الواسعة والكرامة الإلهية المطلقة، التي كان قدومها إلى هذه الدويرة لرحمة موجودات وسكنة العالم الأسفل وإخراجهم من دار الغربة والوحشة هذه. فهو صلى الله عليه وآله كالحمامة المطوقة التي تلقي بنفسها إلى الشباك لتنجي رفقاءها منه". [معراج السالكين].

أما بالنسبة للمحجوبين أمثالنا، فلا سبيل لهم إلا باكتشاف نهج القرآن في العروج والارتقاء المعنوي من خلال نهجه اللغوي، فإذا قرأوه وآتبعوا بيانه، سلك بهم طريقاً في العروج إلى الجنّة!

ومن أبعاد المنهج التفسيري للإمام، والذي يصبّ في خزانة المعارف الإلهية ويفتح باب العرفان الأصيل، نظرته إلى الألفاظ والكلمات القرآنية ودلالاتها على المعاني المطلقة المجردة. وبهذه الطريقة يوجّهنا الإمام إلى نقطة البدء والانطلاق في رحلة العروج بالقرآن؛ فيقول عَلَيْهِ السَّلَام: "قال علماء الظاهر أنّ الرحمن والرحيم مشتقّة من الرحمة وماخوذ فيها العطفة والرقّة. ورؤي عن ابن عباس: "أنهما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر فالرحمن الرقيق والرحيم العطفوف على عباده بالرّزق والنعم". وحيث أنّ

العطوفة والرقّة يلزمها الانفعال، فمن هذه الجهة قالوا بالتأويل والتوجيه في إطلاقهما على الذات المقدّسة وذهبوا إلى أنّه مجاز، وبعض قالوا بإطلاق هذا النّحو من الأوصاف من قبيل: خذ الغايات واترك المبادئ. فإطلاقها على الحقّ بلحاظ الآثار والأفعال لا بلحاظ المبادئ والأوصاف، فمعنى الرّحمن والرّحيم في الحقّ أي من كان يعامل عباده بالرّحمة بل عدّ المعتزلة جميع صفات الحقّ من هذا القبيل أو ما يقرب منه. وبناءً عليه، فإطلاقها أيضاً على الحقّ مجاز، وعلى كلّ حال فكونها مجازاً بعيد وخصوصاً في الرّحمن، فإنّه بناءً على المجازيّة لا بدّ أن يلتزم بأمرٍ عجيب وهو أنّ هذه الكلمة قد وُضعت لمعنى لا يجوز الاستعمال فيه ولا يجوز، وفي الحقيقة هذا مجاز بلا حقيقة، فتأمل. وقال أهل التّحقيق في الجواب على هذا النّوع من الإشكالات أنّ الألفاظ موضوعة للمعاني العامّة والحقائق المطلقة، فبناءً على هذا فالتقيّد بالعطوفة والرقّة ليس داخلياً في الموضوع له، وفيما وضع له لفظ الرّحمة كذلك، وهذا التقيّد هو مخترع الأذهان العامّة والآ فلا دخل له في أصل الوضع، وهذا المطلب بعيد عن التّحقيق ظاهراً، لأنّه من المعلوم أنّ الواضع أيضاً هو أحد هؤلاء الأشخاص العرفيين، ولم يلاحظ في حين الوضع المعاني المجرّدة والحقائق المطلقة، نعم لو كان الواضع هو الحقّ تعالى أو الأنبياء بالوحي أو الإلهام الإلهيين لكان لهذا المطلب وجه، ولكن هو أيضاً غير ثابت. وبالجملّة، فظاهر هذا الكلام مخدوش. ولكن ليس من المعلوم أن يكون هذا الظاهر أيضاً مقصوداً لأهل التّحقيق. بل يمكن أن يُقال في بيان هذا المطلب أنّ واضع الألفاظ وإن لم يلاحظ في حين الوضع المعاني المطلقة المجرّدة، ولكن ما وضعت له الألفاظ بإزائه هو المعاني المجرّدة المطلقة، فمثلاً لفظ النّور إذا أراد الواضع أن يضعه فما كان في لحاظه من الأنوار وإن كانت هذه الأنوار الحسيّة العرضيّة لأنّه ما كان يدرك ما وراء هذه الأنوار؛ ولكن ما وقع لفظ النّور في إزائه هو الجّهة النّوريّة لا جهة اختلاط النّور

بالظلمة بحيث لو قيل له بأن هذه الأنوار العرضية المحدودة ليست نوراً صرفاً بل هي نورٌ مختلط بالظلمة والفتور، فهل وضعت لفظ النور بإزاء تلك الجهة النورية أو بإزاء النورية والظلمانية، فبالضرورة كان الجواب أنه في إزاء جهة النورية، وأما جهة الظلمة فليس لها دخل في الموضوع له بوجه من الوجود كما أننا كلنا نعلم أن الواضع حينما وضع لفظ النار ما كان في نظره غير النيران الدنيوية وما كان سبباً لانتقاله إلى هذه الحقيقة هو النيران الدنيوية وكان غافلاً عن نار الآخرة ونار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، خصوصاً إذا لم يكن الواضع معتقداً بعالم الآخرة، ومع ذلك لا تكون هذه الوسيلة للانتقال موجبة للتقييد في الحقيقة، بل النار وقعت بإزاء الجهة النارية فلا نقول أن الواضع جرد المعاني حتى يكون أمراً مستغرباً بعيداً بل نقول أن الألفاظ وقعت في إزاء تلك الجهات للمعاني من دون التقييد بقيد، فبناءً على هذا ليس ثمة جهة للاستبعاد في الأمر، وكلما كان المعنى خالياً من الغرائب والأجانب فهو إلى الحقيقة أقرب ومن شائبة المجاز أبعد، مثلاً كلمة نور وهي موضوع لما فيه جهة الظاهرية بالذات والمظهرية للمغير وإن كان إطلاقها على هذه الأنوار العرضية الدنيوية لا يخلو من الحقيقة لأن في إطلاقها عليها لم تلاحظ جهة المحدودية والاختلاط بالظلمة، بل الملاحظ هو الظهور الذاتي والمظهرية، ولكن إطلاقها على الأنوار المكونية التي ظهورها أكمل وإلى أفق الذاتية أقرب ومظهريتها أكثر كماً وكيفاً واختلاطها بالظلمة والتقص أقل، إلى الحقيقة أقرب. وإطلاقها على الأنوار الجبروتية بهذا البيان أقرب إلى الحقيقة وإطلاقها على الذات المقدسة جلّ وعلا وهو نور الأنوار والخالص من جميع جهات الظلمة وهو صرف النور والنور الصّرف إطلاقٌ حقيقي محض وخالص؛ بل يمكن أن يقال أن النور لو كان موضوعاً للظاهر بذاته والمظهر لمغيره بإطلاقه على غير الحق تعالى حقيقة عند العقول الجزئية، وأما عند العقول المؤيدة وأصحاب المعرفة

فمجاز، وفقط إطلاقه على الحقّ تعالى حقيقة. وهكذا جميع الألفاظ التي وُضعت للمعاني الكمالية، أي تلك الأمور التي من سنخ الوجود والكمال."

[مراج السالكين].

إنّ تقييد الكلمات القرآنيّة بالمعاني العرفيّة هو الفاجعة الكبرى التي حلّت بالمسلمين والتي مهّدت لظاهرة الاعتباط اللغويّ في كلّ شيء؛ فضاعت المعاني في لجة الكنايات والمترادفات وحصل التناقض في الآراء والتفسيرات. وبدل أن يكون كتاب الله نبيّاناً لكلّ اختلاف ومرجعاً لكلّ تنازع صار الاختلاف فيه نفسه. ومن المتوقّع والحال هذه، أن يكون مبحث معرفة الله، الذي هو جوهر القرآن وروحه، أكبر الضحايا.

إنّ ضمير "هو" في السور القرآنيّة هو عند العارف مبدأ المعارف لا حصر لها. فعندما يأتي الحديث عن الله بهذا الضمير، فهذا يعني أنّه إشارة إلى الذات الإلهيّة والهويّة الغيبيّة التي لا يحيط بها أحد. لكنّ الله تعالى يحدثنا عن تجلّياتها بحسب التدرّج في مراتب الوجود. ولناخذ عيّنة من كلام الإمام توضح كيفيّة استفادة أهل الحكمة والعرفان من ترتيب الألفاظ القرآنيّة وسياقاتها اللفظيّة: "يمكن أن يكون لسورة التوحيد المباركة التي نزلت للمتعمّقين في آخر الزمان تفسيرٌ حكميّ موافق للموازن الحكميّة والبراهين الفلسفيّة وهذا ما استفدته من الشيخ الجليل العارف الشاه أبادي (مدّ ظلّه) ف (هو) إشارة إلى صرف الوجود والهوية المطلقة. وهو برهان على ستّة مطالب حكمية شامخة أثبتت في السورة المباركة للحق تعالى". [مراج السالكين].

فسورة التوحيد تتضمن دلالات وبراهين تثبت ستّة مطالب حكميّة هي:

1. مقام الألوهيّة.

2. مقام الأحديّة.

3. مقام الصمدية.

4. عدم انفصال شيء منه.

5. عدم انفصاله عن شيء.

6. عدم الكفو والمثل.

فكيف يتوقع قارئ عادي أن يكون هذا الضمير المؤلف من حرفين مفتاحاً لأعظم المطالب الحكيمية. والجواب أنه الترتيب والسياق القرآني الخاص الذي يعتني به الإمام الخميني ومن مثله من العرفاء أشدّ الاعتناء. يقول الإمام: "المطلب الأول: مقام الألوهية؛ وهو مقام استجماع جميع الكمالات وأحدية جمع الجمال والجلال. فإنه قد ثبت في محله من المسفورات الحكيمية أن صرف الوجود والهوية المطلقة هو صرف الكمال وإلا لزم ألا يكون صرف الوجود أيضاً. وحيث أن بيان هذا المطلب يطول ويحتاج إلى مقدمات فأكتفي منه بالإشارة." [معراج السالكين].

1. بناءً على أن "هو" إشارة إلى صرف الوجود الذي لا يدرك كنهه أحد. ولأنّ العدم المطلق الذي يقابله ليس بشيء حتى يكون منشأً لشيء. فإنّ كلّ كمال يرجع إلى صرف الوجود. فتحقق أنّ له مقام الألوهية الذي يجمع كلّ الكمالات.

ويقول الإمام: "الثاني: مقام الأحدية وهو إشارة إلى البساطة التامة العقلية والخارجية والماهوية الوجودية، والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية سواء أكانت جنساً وفصلاً أو مادة وصورة عقلية أو خارجية، أو مادة وصورة خارجية أو أجزاء مقدارية. والبرهان على هذا المطلب أيضاً هو برهان صرف الوجود والهوية المطلقة لأنّ الصّرف إذا لم يكن أحديّ الذات يلزم أن يخرج عن الصّرفية وينسلخ عن ذاتيته." [معراج السالكين].

2. فصرافة الوجود منزّهة عن أيّ تعيّن وتحديد؛ ولا بدّ أن تكون متفرّدة

بالوجود أيضاً. ولهذا قيل "صرف الوجود لا يتشئ ولا يتكرر". وقوله تعالى: "أحد" إشارة إلى عدم وجود ثانٍ له. فقد يُقال أنَّ الواحد يليه "اثنان" أما الأحد فليس له ثانٍ أو ثالث. وإذا ثبت للهوية الإلهية والذات الغيبية صرافة الوجود، فهذا يعني أنها متفردة به ولها مقام الأحديّة.

يقول الإمام: "الثالث: مقام الصمدية: وهو الإشارة إلى نفي الماهية وعدم الجوف له؛ وكونه غير مجوّف يشير أيضاً إلى أنه ليس له ماهية ويستحيل أن يعرض له النقص الإمكانى. لأنّ جميع الممكنات في مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها وجوفها مجوّفة وخالية، وحيث أنّ الذات المقدسة صرف الوجود وهوية مطلقة، فلا يعرض له النقص الإمكانى الذي أصله الماهية، لأنّ الماهية منتزعة من حدّ الوجود، واعتبارها يكون من تعيّن الوجود وصرف الوجود منزّه ومبرأ عن الحدّ والتعيّن، لأنّ كل محدود هو هوية مقيدة ووجود مخلوط لا مطلق ولا صرف". [معراج السالكين].

3. وإذا كان صرف الوجود، فلا يُتصوّر فيه أو إلى جانبه فراغ. فهو على هذا الأساس صمد. لأنّ الفراغ فرع الوجود. وقد علمنا أنّ العدم المطلق ليس بشيء. وما يقابل الوجود المطلق هو العدم المطلق لا الفراغ والجوفية. وعندما نشير إلى فراغ ما، فإننا نشير إلى حيّز وجودي ولا يمكن أن يكون تجلياً للعدم المطلق. فالفراغ أمر وجودي ناقص من أحد مظاهر الوجود وعليه، لما كانت الهوية الغيبية صرف الوجود فلا يُتصوّر الفراغ فيها من الوجود.

يقول الإمام: "الرابع: عدم انفصال شيء منه لأن انفصال شيء عن شيء مستلزم للهويولة بل للأجزاء المقدارية؛ وهذا ينافي الهوية المطلقة وصرافة الوجود ووجود المعلولات من العلة ليس بطريق الانفصال بل بطريق التجلي والظهور والتشوّن والصدور وهو أنه لا ينقص من صدورها

شيء من العلة ولا يضاف برجوعها شيء إليها." [معراج السالكين].

4-5. وإذا ثبت عدم الفراغ وعرفنا معنى الصمدية انطلاقاً من فهم الهوية الغيبية. فلا يتصور فراغ لينفصل من الذات شيء يملأه أو فراغ ليخرج إليه. ولهذا، فهو لم يلد (أي يخرج شيئاً من ذاته إلى فراغ خارجه)، ولم يولد (أي يخرج من ذات أخرى ليملاً فراغاً). يقول الإمام: "الخامس: عدم انفصاله عن شيء وهذا مضافاً إلى المفسدة السابقة ينافي صرافة الوجود وإطلاق الهوية من طريق آخر، لأنه يلزم أن يتقدم على صرف الوجود شيء آخر، وقد ثبت في الفلسفة العالية أن الصرف أقدم الأشياء والمتعين متأخر ويأتي بعد عن المطلق." [معراج السالكين]. ويقول: "السادس: عدم الكفو والمثل ونفي المثل والشبيه وهو أيضاً ثابت ببرهان "صرف الوجود لا يتكرر"، فلا تتصور هويتان مطلقتان، وليس المقيد للمطلق صنواً ونظيراً." [معراج السالكين].

6. ولما كان الحق تعالى بذاته صرف الوجود، فلا مجال لأن يكون إلى جانبه أحد يشبهه أو يماثله، لأنه تعالى لم يترك لغيره في الوجود مجالاً. فالوجود كله له والعدم ليس بشيء حتى يصدر منه شيء.

والبعد الآخر في الاستفادة العرفانية من القرآن، بحسب نهج الإمام، أن تكون قراءتنا له بعد التدبر والفهم، تلقيناً للقلب بحقائقه. وهذا هو المعنى الكامن في الذكر. يقول الإمام: "وأما للمتوسطين وأمثالنا الناقصين فالأدب أن نسّم القلب بسمة العبودية ووسمتها عند التسمية ونخبر القلب عن سمات الله والآيات والعلامات الإلهية ولا نكتفي بقلقة اللسان، فلعل من العناية الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منا ونفتح لقلوبنا طريق إلى تعلم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود." [معراج السالكين].

إن عقل العارف ينطلق نارة من اكتشافاته المباشرة للوقائع، فيلجأ إلى القرآن باحثاً عن الشواهد المؤيدة لما وصل إليه. وقد يكون عقله

محاطاً ببعض الشوائب التي لم تتمكن الرياضة المعنوية من القضاء عليها وتصفيتها، فيصحّ له القرآن ما وصل إليه، فهو لا يعرض القرآن على عقله، وإنما يعرض عقله على القرآن، فيتعرّف منه على حقائق وجودية ما كان ليصل إليها بعقله أبداً، وإنما كانت هذه العطايا العرفانية جوائز إلهية لرسوخه وتعبّده وتسليمه لربه في كتابه، وتسليم عقله وفكره وقلبه لكلّ ما نزل به.

2 . مقامات الأولياء وسيرتهم

ويعبر الإمام عن اتّصاله بالمقامات المعنوية والسنة المطهرة لأهل بيت النبوة (صلّى الله عليهم أجمعين)، واستمداده منهم في بحثه عن المظهر الأتمّ الأعظم في العديد من المناسبات. ومن الطبيعيّ لفقيه متبحّر كالإمام الخميني أن يكون قد جال في آفاق ما جاء عنهم وغاص في أعماق ما ورد منهم، فيكون عرفانه رشحاً من بحار أنوارهم. على أنّ شرحه لدعاء السحر يمثل نموذجاً بارزاً لكيفية استفادة عارف حكيم من نصّ معصوم، إيماناً منه بأنّ فيه ضالّته. يقول الإمام: "لما كان من أعظم النعم على العباد والرّحمة الواسعة في البلاد الأدعية الماثورة من خزائن الوحي والشريعة وحملة العلم والحكمة لأنّها الرابطة المعنوية بين الخالق والمخلوق والحبل المتّصل بين العاشق والمعشوق والوسيلة للدخول في حصنه الحصين والتمسك بالعروة الوثقى والحبل المتين. ومن المستبين عدم إمكان الوصول إلى هذا الغرض الأقصى والمقصد الأعلى، إلّا مع التوجّه بقدر الاستطاعة إلى معناها وبمقدار القدرة إلى سرّها ومغزاها، ورأيت أنّ الدعاء المشهور الموسوم بالمباهلة الماثور من الأئمة الأطهار للتوسّل به في الأسحار إلى نور الأنوار من أجلّ الأدعية قدراً وأرفعها منزلةً لاشتماله على الصفات الحسنى الإلهية والأمثال العليا الربوبية وفيه الاسم الأعظم والتجلّي الأتمّ

الأقدم فأردت أن أشرحه من بعض الوجوه بمقدار الاستعداد مع قلة الباع وقصور الإطلاع فبإله من حرباء أراد أن يصف البيضاء وخفاش قصد أن ينظر إلى إشراق الضياء." [شرح دعاء السحر].

ويقول ﷺ: "ولعمر الحبيب إن علي بن الحسين من أعظم النعم التي من بها ذات الحق المقدس على عباده، وأنزله من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبودية، ولتسألن يومئذ عن النعيم.. وإذا سئلتنا لماذا لم نقدر هذه النعمة ولم نستفد من هذا الرجل العظيم؟ فلا نحير جواباً إلا أن ننكس رؤوسنا ونحترق بنار الندامة والأسف، ولا ينفع حينذاك الندم." [معراج السالكين].

وهنا نحن نعرض لبعض النماذج التي تشير إلى منهج الإمام في استنطاق سنتهم المعصومة المبثوثة في النصوص الشريفة الواردة عنهم ﷺ.

يقول الإمام: "قول الداعي 'إني' لم يكن هذا في الحقيقة إثبات الأنانية، لأن الأنانية تنافي السؤال، والداعي يقول: 'إني أسألك'. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾." [شرح دعاء السحر].

وعند ذكر الحديث المروي في الكافي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: "إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول 'طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره'. يقول الإمام: "هذا، فتباً لعبد يدعي العبودية ثم دعا سيده ومولاه بالأسماء والصفات التي قامت بها سموات الأرواح وأراضي الأشباح، وكان مسؤوله الشهوات النفسانية والذائل الحيوانية والظلمات التي بعضها فوق بعض والرياسات الباطلة وبسط اليد في البلاد والتسلط على العباد." [شرح دعاء السحر].

إن دعاء السحر كما أشار الإمام مشتمل على الصفات الإلهية الحسنى.

فكيف تمّ ذكر هذه الأسماء فيه، وكيف استفاد الإمام من هذا البيان؟ فلنلاحظ - مثلاً - أنّ الإمام عليه السّلام يصف كلمات الله بالتّمام، وهنا سينفتح على قلب الإمام الخميني (رحمه الله) بحث حول هذا المعنى، يصف فيه تجلّيات كلمات الله في عالم الوجود.

وكذلك عندما يصف في دعائه ملك الله تعالى بالفاخر، أو منّه بالقديم، وتراه يقف عند سرّ بده الدّعاء واختتامه بالاسم الله، فيقول: "ولمّا كانت الأسماء الإلهيّة كلّها من مظاهر الاسم الأعظم المحيط عليها المستجمع لجميعها بنحو الوحدة والبساطة الحاكم عليها وله الغلبة والسّلطنة على كلّها وانكشف ذلك على قلب السّالك المتحقّق بمقام الاسم الأعظم الفعليّ رأى أنّ مجيبه في الحقيقة هو الاسم الأعظم بمظاهرة ابتداءً وبنفسه في آخر السّلوك فقال: اللّهمّ إني أسألك بما تجيبني حين أسألك، من الأسماء الإلهيّة التي ترجع كلّها إلى الاسم الأعظم، ولذا عقبه بقوله: فأجيني يا الله. فطلب الإجابة من اسم الله الأعظم، فإنّه مجيبه وحافظ مراتبه ومرتبّه والمانع من قطع طريقه ومن الموسوس في صدره وللإشارة إلى أنّ الاسم الأعظم الإلهيّ محيط على كلّ الأسماء وهو المجيب في الأوّل والآخر وهو الظاهر والباطن افتتح كلامه بذكره فقال: اللّهمّ واختتم به أيضاً وقال: فأجيني يا الله." [شرح دعاء السحر].

ومثل هذه النماذج، وإن كانت تشير إلى شدّة عناية الإمام بنصّ المعصوم من حيث الكلمة واللفظ والأسلوب والترتيب، إلّا أنّ التعرّف إلى عمق النّهج يحتاج إلى دراسة مستوفية لشرح الإمام هذا الدّعاء الشّريف وأكثر ما يذهلنا هو العمق الذي يغوص فيه من بحار معارف أهل البيت (عليهم السلام)، وعظمة ما يستخرجه منها من لطائف؛

نموذج يبيّن كشف الإمام عن مقام إلهيّ من خلال تحليل حديث شريف:

"قد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل: "أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال ﷺ ما حُكي عنه: "كان في عماء". وقد اختلفت كلمة الأصحاب في حقيقة العماء. ف قيل هي الحضرة "الأحدية" لعدم تعلق المعرفة بها، فهي في حجاب الجلال. وقيل هي "الواحدية" لأن العماء هو الغيم الرقيق الحائل بين السماء والأرض، وهذه الحضرة واسطة بين سماء الأحديّة وأرض الكثرة. ونحن نقول: يشبه أن تكون حقيقة "العماء" حضرة الفيض الأقدس والخليفة الكبرى، فإنّها الحقيقة التي لا يعرفها بمقامها الغيبيّ أحد، ولها الواسطة بين حضرة الأحديّة وحضرة الواحدية التي تقع فيها الكثرة اللامتناهية. وإنّا لم نحملها على الحقيقة الغيبية لأنّ السؤال عن الرّب. وهذه الحقيقة غير موصوفة بصفة كما عرفت. ولا على الحضرة الواحدية لأنّها مقام اعتبار الكثرة العلمية. قال المحقّق القنوني في "مفتاح الغيب": "العماء الذي ذكره النبيّ صلّى الله عليه وآله مقام التنزّل الربانيّ، ومنبعث الجود الذاتيّ الرحمانيّ من غيب الهوية وحجاب عزة الإنبيّة. وفي هذا العماء تتعيّن مرتبة النّكاح الغيبيّ الأوّل الأزليّ الفاتح لحضرات الأسماء الإلهية بالتوجّهات الذاتيّة الأزليّة". وهذا الكلام، وإن كان فيه بعض النّقد، إلا أنّه لا يخلو من تأييد لما ذكرناه." [الطائف عرقية].

ونموذج آخر سيظهر عند حديث الإمام عن مقام الاسم المستأثر من خلال تحليل الروايات الصّادرة حوله.

3. عالم التّكوين

إنّ استفادة الإمام من عالم التّكوين تظهر في بعض المناسبات، كما في حديثه عن عظمة الله تعالى. فهو يبني على بعض الاكتشافات الحسية والتجريبية، في الوقت الذي لا تتعارض مع معطيات العقل والحكمة. يقول الإمام: "وكفى في عظمة فعله أنّه من المقرّر أنّ عوالم الأشباح والأجساد بما

فيها بالنسبة إلى الملكوت، كالآن في قبال الزمان، وهي بالنسبة إلى الجبروت كذلك، بل لا نسبة بينهما. وما ثبت إلى الآن من النظام الشمسي يبلغ أربعة عشر مليوناً، كل كنظام شمسنا بأفلاكها وكراتها السيّارة حولها التابعة لها أو أعظم بكثير. حتى أنّ نظامنا الشمسي سيّارة حول واحد منها، مع أنّ كرة نبتون أبعد السيّارات عن شمسنا حسب ما استكشف يبلغ بعده 27465 مليون ميل حسب الآراء الحديثة. ولعلّ ما لم يُستكشف أكثر بكثير مما استُكشف إلى الآن". [شرح دعاء السحر]. ومن ثمّ ينقل عن السيّد هبة الدّين الشهرستاني وصفاً فلكيّاً للأنظمة الشمسيّة والمجرات. ليعقّب قائلاً: "وإيراده مع طوله يجلب توجه الدّاعي إلى عظمة ملك الله وكلماته ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جُنُناً بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾" (الكهف: 109)، فإذا كان أسفل العوالم وأضيقتها كذلك فكيف الحال في العوالم المتسعة العظيمة التي لم تكن العوالم الأجساد وما فيها بالنسبة إليها إلا كالقطرة بالنسبة إلى البحر المحيط، بل لا نسبة بينهما وليست هذه العوالم في جنبها شيئاً مذكوراً" [شرح دعاء السحر].

4. حوادث الحياة الاجتماعية

أما الشقّ المتعلّق بالحياة الاجتماعية وأحداثها الكبرى. فلقد كان للإمام فيها جهادٌ كبير ظهر منه ثمرات عرفانيّة عظيمة توزّعت في كلماته وخطبه وبعض أشعاره ومواقفه. ويحتاج هذا البعد إلى دراسة مستقلة وتحليل مقارن يأتي في محله إن شاء الله.

ويبقى أن نشير إلى مصدر أساسي لعرفان الإمام وهو التّراث الكبير لأهل العرفان الذين ورثوا الأنبياء والأولياء، كلٌّ بحسب جهده وسعة وجوده وسطره كتباً ومسفورات ستبقى شعلة مضيئة في البيئة العلميّة التي تزاد على العرفان إقبالاً يوماً بعد يوم.

9

"لَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ
يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ
أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثُهُ؟ ! إِذَا
لَتَّافَوْتِ ذَاتَهُ، وَلَتَجَزَأَ كُلُّهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنْ
الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَهُ إِذْ وَجَدَ لَهُ
أَمَامَهُ، وَلَالْتَمَسَ التَّامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ".

نوح البدر

6

أعظم التجليات الإلهية
أو الاسم الأعظم

أعظم التجليات الإلهية أو الاسم الأعظم

إنَّ ظهور عظمة الذات المقدسة وتجليها للذَّات نفسها هو المفسر لكلِّ ظاهرة وجودية. ومقتضى "وكل عظمتك عظيمة"، لا يمكن أن يظهر من ذات الحقِّ تعالى آية عظمة يمكن أن يكون ما هو أعظم منها. فكل مظاهر العظمة من جانب الله تعالى هي في الإطلاق وفوق الإطلاق. ولو تأملنا قضية الخلق والإيجاد على أساس أنَّها حصلت من أجل ظهور عظمة الذات، فلن يكون عالم الخلق كلُّه (جميع المخلوقات مأخوذة ككيان واحد) إلا مظهراً تاماً لعظمة الله سبحانه. ولا يمكن أن نبرّر لأيِّ صانع إبداع ما هو أقل من عظمة علمه وقدرته إلا بالعجز.

فالمهندس حينما يرى النقص في صناعته، يقول كان بوْدِّي أن أصنع ما هو أفضل، أو أوجد ما ليس فيه هذا العيب، لكن إمكاناتي لم تسمح. وقد يخفى العيب أو النقص عليه، فيأتي من هو أعلم منه ويكشفه. فهل نتصوّر أن يكون في صنع الله المطلق (الذي هو عبارة عن تمام دائرة الموجودات) جهل أو عجز؟!

إننا نعبّر عن أعظم صنع إلهي بالتجلّي الأعظم أو الاسم الأعظم، لأنّ الاسم - كما سيُتّضح - ليس سوى تجلّي الذات بصفة أو شأن. فما ثمة شيء عند الله تعالى إلّا وهو مظهر تام لعظمته المطلقة. فكلّ صنعه - والحال هذه - متحقّق بالاسم الأعظم.

وأي نقص نراه في دائرة الوجود والصنع إنّما هو بسبب نظرنا المحدودة أو النّظر إلى الأشياء منقطعة عن النّظام الكلّي المترابط. إنّ النقائص التي نراها ليست سوى تلك النّقاط السوداء التي يحتاجها الرّسّام لإضفاء الرونق على لوحته؛ فهي الظلال التي نرى بسببها جمال انعكاس النّور فيها.

يقول الإمام الخميني: "ظهر الوجود ببسم الله، وهذا على حسب مسلك أهل المعرفة وأصحاب السّلك والعرفان، حيث يرون ظهور جميع الموجودات وذرات الكائنات وعوالم الغيب والشهادة بتجلّي الاسم الإلهي الجامع أي الاسم الأعظم". [معراج السالكين].

وعندما ننظر إلى النّاقصين في عالم الطبيعة المتبدّل، ونشاهد فيه هذه الحركة التكامليّة (أي من النقص إلى الكمال)، نعلم في قرارة أنفسنا أنّ الكل متّجه إلى الاسم الأعظم وراجع إليه. بيد أنّ هناك من سيكون له شرف السبق والرّيادة، وهناك من سيكون تحت لواء السابقين؛ أما الكثيرين فسوف يكونون كالنّقاط السوداء في تلك اللوحة البديعة التي تظهر جمالها.

إنّ كل إنسان قد دُعي ليكون في المقدّمة. فالصّورة الإنسانيّة شاهدة على أن من أوجدها وخلقها يريد لصاحبها أن يكون من المتحقّقين بمقام الاسم الأعظم. ولكي يصل الإنسان إلى هذا المقام عليه أن يرتقي في مراتب المعرفة. لأنّ العلم هو أفضل تعبير عن كمال الوجود في العوالم. ومتى ما استقرت المعرفة في النفس، جعلت نفس العالم متحدة مع المعلوم ومتحققة به.

ففي البداية تكون المعرفة أمراً مغايراً للنفس أو مستودعة فيها، لكنّها إذا طوت مراتب تكاملها واشتدادها اتّحدت مع النفس واستقرت فيها، فالناس في هذا مستقر ومستودع..

وبالنسبة لسالك طريق الكمال والمهاجر من بيت النفس المظلم، فإنّ أوّل مراتب التحقّق هي التحقّق بالآيات. ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ النَّبَاَ الَّذِي أَنبَأَهُ آيَاتُنَا فَأَنسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، إشارة إلى هذا المقام. ومن بعدها مرتبة التحقّق بالأسماء التي تحصل في السفر الثاني من الأسفار الأربعة في الحقّ بالحقّ، إلى أن يصل إلى مقام الاسم الجامع لكل الأسماء والصفات. إنّها مسيرة معرفيّة - لكن المعرفة فيها ليست مجرد حصول صور أو ارتسام ماهيّات في الدّهن. وفي هذه المسيرة فإنّ تجلّي الحق تعالى على قلب العبد يعني حصول المعرفة؛ وهما في هذا المجال كالحقيقة والرقيقة.

فليس التجلّي من جانب الحق تعالى - والذي يُعدّ شرطاً لحصول المعرفة - سوى ما يراه أهل الشهود. وبعبارة أخرى، إنّ التجليات الإلهيّة، إذا كانت على نحو الحوادث (كما يحصل من انبعاث الضوء من المصباح أنا بعد أن)، فلا يُعقل نسبتها إلى الله تعالى؛ لأنّه لا طريق للحدوث إلى ذاته؛ وإنّما هي قلوب أهل الشهود تشاهد من عظمة الله بحسب سعتها. ففي بدء الأمر تشاهد مظاهر الأسماء المبتوثة في عالم الخلق وهي آثار التجليات الفعلية؛ ثمّ تشاهد الأسماء وترتقي وتتسع حتّى تشاهد أعظم مظهر يمكن لها أن تشاهده. فللقلوب مهما بلغت سعة ما؛ وسوف تبقى قاصرة عن إدراك حقيقة (لا تعين لها في أي عالم أو حضرة) وهي المعبر عنها بالاسم المستأثر؛ فهو التجلّي الذي استأثره الله لنفسه. ولعلّ التعبير بالاسم إشارة إلى رأي بعض أهل العرفان بإمكانية شهوده؛ وإن كان هذا الشهود خاصّاً بمحمّد وعليّ

لقول النبي ﷺ: "يا علي، ما عرف الله إلا أنا وأنت".

يقول الإمام الخميني في هذا المجال: "إنَّ هذا الترتيب لا يرجع إلى حقيقة كل اسم، بل إلى ظهوره وبعبارة أخرى، إنَّ العارف المكاشف أثناء صعوده ذرى الشهود تتجلى له الذَّات في مظاهر الأسماء، فيرى بعضها حاكماً والبعض محكوماً، وقد تظهر له بصورة الجمال فيستتر الجلال، أو بصورة الجلال فيختفي الجمال، حتى يصل إلى شهود الاسم الأعظم بصورة لا يغلب الظهور على البطون ولا البطون على الظهور، ولا الجلال على الجمال ولا الجمال على الجلال. ولعلَّه بسبب هذا الشهود الأخير حُفظ لكل اسم مقامه. فإنَّ مظهرية كل شيء للاسم "الله" الأعظم، مع اختصاص كل مربوب باسم، ليس إلا من جهة أنَّ كل اسم يستكنَّ فيه كل الأسماء والحقائق." [لطائف عرفانية].

وإذا كان الإنسان مخلوقاً للمعرفة: فلا بدَّ له أن يصل إلى شهود التجلي الأعظم ما دام إنساناً - لأنَّ إنسانيَّة الإنسان وكرامته وقيمته في تفاعله الإيجابي مع مظاهر عالم الخلق التي جعلها الله دلائل وآيات إليه. وهذا التفاعل إذا كان موجوداً، فإنَّه يأخذ بيد صاحبه، ويوصله إلى أعلى مراتب الشهود.

فالاستعداد موجود - ما دام إنساناً - والتجلي موجود لأن الحق دائم الفيض؛ فلا مناص من الحركة العلميَّة التكامليَّة، ولا معنى لوصول الإنسان إلى مقام معرفي والتوقُّف عنده. لأنَّ العلَّة التامَّة للتكامل المعرفي موجودة، إلاَّ أن يخرج هذا الإنسان من إنسانيَّته؛ وهو السقوط في أسفل سافلين.

إنَّ قيمة الأبحاث العرفانيَّة، التي تدلُّنا على الغاية وعلى أعلى مراتب المعرفة، تكمن في أمر واحد؛ وهو بث العزيمة، فينا لنخرج من القرية الظالم أهلها، ونهاجر إلى الله تعالى. فكل فتور عند أصحاب الاستعداد مرده

إلى الركون إلى النفس وإلى المنازل، والرضا عن النفس الذي هو أصل كل شقاء.

والحديث عن الاسم الأعظم له فائدة عظيمة، وهي جعلنا في سلام مع مظاهره الجلالية؛ فنكون بذلك مسلمين حقاً. لأنَّ شهود جمال الحق تعالى متلازم مع شهود جلاله. فمن لم يكن مستعداً لقبول الجلال لن يقبل الجمال. وإنما كان الجلال - في فلسفة تربية العالمين - من أجل إيصال الكائنات إلى معدن العظمة والجمال.

وليس الاسم الأعظم سوى المظهر الجامع لكل مراتب الجمال والجلال، فاستحق أن يكون أعظم تعبير عن التوحيد. وعندما يعجز الإنسان عن إدراك جلال الله في عالم الخلق، ولا يقدر على نسبته إلى الإله الواحد، فسوف يتجه نحو الضلال المبين.

فالشيطان الرجيم الذي هو مظهر كبير لجلال الله ونقمته كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْوَاجًا﴾، يعتمد في غوايته على تثبيت مبدأ الشرك وإيهام الناس بأن حاجاتهم موجودة عند غير الله. ولو تأملنا في جميع الرذائل والقبائح والجرائم لوجدنا أنها ترجع إلى الشرك، أي الاعتقاد بوجود أكثر من مبدأ للخير والشر في العالم.

إن أولياء الله يؤمنون بأنه ليس لإبليس من سلطان أو تأثير مقابل قدرة الحق وسلطانه. ولهذا، فإنهم يستعيذون بالله لدفع شره ويلجؤون إلى الله لمنع تأثيره. وليس هذا إلا الفرار من الله إلى الله: "هارب منك إليك"؛ أي: أعود بجمال الله من جلال الله. وهو عبارة عن الدخول في حصن لا إله إلا الله، وهو حصن الاسم الأعظم. وفي المقابل هناك من يستنكر مبدأ الحق للجلال بكل ما فيه من نقمة وقهر، لأنه ما آمن باتحاد صفات الجمال والجلال؛ أي لم يؤمن بالاسم الأعظم الذي يعد كل عالم

الوجود مظهرًا له أو ظهورًا لسلطانته.

إنَّ عملية التنكير تظهر في اللحظات التي تلي الموت على يديّ ملكين معروفين بمنكر ونكير. ولعلَّ سبب تسميتهما بهذين الاسمين أنَّهما من المظاهر الإلهية التي ينكرها النَّاس. فهما من مظاهر الجلال لأقبالهما على العصاة والمقصرين من موقع الذود عن حرم الذات الإلهية المقدسة. ومن لم يحذر الله في حياته وتجاوز حرم الحقِّ وحدوده، فإنَّ للحقَّ تعالى عليه أن يؤدِّبه. وها هما عمال اللطف الإلهي ينكران على الإنسان ذلك الظلم وهذا التقصير. فإذا اعترف بظلمه وتقصيره شهد منهما كل لطف ورحمة؛ فينقلبان إلى مبشِّر وبشير، ويعلمانه بمقعده في جنة الجمال. وهذا يعني أنَّ كل ما خلق الحقُّ تعالى، وإن كان في مظهر الجلال فهو في الحقيقة في عين الجمال؛ والعكس صحيح أيضاً. ومثل هذا الاتحاد والجمع هو من معاني الاسم الأعظم. فنعلم من مثل هذه الواقعة الحتمية أنَّ أول ما يواجه الإنسان - بعد الانقطاع عن الدنيا وحصول اليقظة - هي قضية الاسم الأعظم جلَّ برهانه.

وأهل المعرفة قد أولوا بحث الاسم الأعظم اهتماماً فائقاً لهذا السبب؛ ووجدوا فيه محوراً لجميع المعارف الأخرى وباباً لمعرفة كلِّ الحقائق الوجودية، ومدخلاً لعرض كل المسائل العلمية. ففيه تجتمع كل المتفرقات، وبه تُحلَّ جميع العقد، ومنه تُفهم كل القضايا.

ففي بحث الاسم الأعظم أربع جهات أساسية؛ هي: جهة العجز وجهة المعرفة وجهة التحقق وجهة البدء.

1. أما جهة العجز: فلأنَّ الاسم الأعظم هو الذي يحفظ الحدَّ بين الخالق والمخلوق. فهو تجلِّي الذات، وقد كان يُظنَّ أنَّه المقام الذي لا يمكن لأحد أن يدركه. فلأنَّه قابل للتصوُّر الكلِّي أو الإجمالي من جهة، ولأنَّ الأذهان

قد تظنّ أنّه المقام المنوع، فلا يمكن أن تشعر بالعجز، وإن أقرت باللسان. وبانتفاء العجز عن معرفة الذات لا يعلم الحد بين الخالق والمخلوق، فيتعدّى الإنسان حدوده ويظلم نفسه.

2. وأما من جهة المعرفة: فلأنّ معرفة الأسماء الإلهية على حقيقتها يعني أنّها مجتمعة في حقيقة واحدة، وأنّها عين بعضها البعض. وهذا هو مقام الاسم الأعظم. فمن لم يدركه وقع في حجاب التكثير الأسمائي والتركيب في الذات الإلهية وإن لم يعلن ذلك.

3. ومن جهة التحقق: فلأنّ غاية المعرفة العرفانية أن يتحقّق السالك بالمعرفة. وما دام الإنسان يتصوّر أنّ معرفة الله عبارة عن ارتسام الصّور وحصول المفاهيم في الأذهان، فهو محجوب عن الحقيقة وواقع في أسوأ الحجب والقيود. فللاسم الأعظم تحقّق في عالم الأعيان، وهو قدوة السالكين والمقام الذي تصبو إليه نفوسهم.

4. ومن جهة البدء: فإنّ أوّل خطوات السّير العرفاني هي الفهم والإدراك الذهني. وهذه الخطوة تبدأ من اللغة. وقد أنزل الله تعالى هذا الاسم في كسوة الحروف والألفاظ.

يقول الإمام الخميني: "واعلم هداك الله إلى الاسم الأعظم وعلمك ما لم تكن تعلم، أنّ لله تبارك وتعالى اسماً أعظم إذا دُعي به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرّحمة انفتحت وإذا دُعي به على مضائق أبواب الأرض للفرج انفرجت، وله حقيقة بحسب الحقيقة الغيبية ① وله حقيقة بحسب المقام الألوهية ② وحقيقة بحسب مقام المألوهية ③ وحقيقة بحسب اللفظ والعبارة ④". [شرح دعاء السحر].

فقد حان الحين لمزيد بيان وكشف عيان حول هذه الحقيقة التي هي لبّ لباب المعارف الإلهية، وبفضلها عُرف الله، وبها عبّد الله.

جهة العجز، وفيه سرّ التوجه:

يقول الإمام: "وأما الاسم الأعظم بحسب الحقيقة الغيبية التي لا يعلمها إلا هو ولا استثناء فيه، فبالاعتبار الذي سبق ذكره، وهو الحرف الثالث والسبعون المستأثر لنفسه في علم غيبه. كما في رواية الكافي في باب ما أعطوا من اسم الله الأعظم بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: "إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند أصف منها حرفاً واحداً فتكلم به وخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". ومثلها رواية أخرى. وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: "إن عيسى بن مريم أعطي حرفين كان يعمل بهما، وأعطى موسى أربعة أحرف، وأعطى إبراهيم ثمانية أحرف، وأعطى نوح خمسة أحرف، وأعطى آدم خمسة وعشرين حرفاً، وإن الله تعالى جمع ذلك كله لمحمد صلى الله عليه وآله. وإن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً أعطى محمد صلى الله عليه وآله اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحد". انتهى [شرح دعاء السحر].

فالبيان اللطيف لأهل العصمة حول الحرف الثالث والسبعون يدلنا على الجهة الغيبية المستتر للإسم الأعظم؛ وهي التي تدل على عجز المكنات مهما بلغوا من إدراك حقيقة العظمة ومعدنها. ولا شك بأن الأمر ليس في عالم الكم أو الحروف، بل هو نوع بيان لتقريب المعنى إلى الأذهان. وأنت تعلم أن الاسم لا يعطي المعنى من دون تمام حروفه. وهكذا يكون مقام الاسم الأعظم بالنسبة لما استأثره الله لنفسه كلاً شيء، فكيف بالنسبة لكنه الذات. وهل يمكن لشيء مهما علا وعظم أن يقارن بذات الله. تعالى الله عن ذلك

علوًّا كبيرًا. ولو جمعنا كل الصفات لما استطاعت أن تعبّر عن ذلك البعد الغيبي، لأنه لا اسم له ولا رسم.

"إنّ الأسماء والصفات الإلهية أيضاً بحسب كثراتها العلمية، أي بما هي مشهودة للسالك كأسماء وصفات غير مرتبطة بهذا المقام الغيبي، غير قادرة على أخذ الفيض من حضرته بلا توسط شيء. بل إنّ اسم "الله" الأعظم بحسب أحد مقاميه الذي يكون فيه مستجمعاً للأسماء استجماع الكلّ للأجزاء، أي مقام ظهوره في مرآتي الصفات والأسماء، فإنّ بينه وبين تلك الحقيقة الغيبية حجاباً نورياً مقهور الذات. هذا الحجاب النوريّ معدوم التعيّن من ذلك الإتيّة في الهوية الغيبية، غير موصوف بصفة. ويُعدّ أيضاً المقام الآخر للاسم الأعظم، ويُسمّى بالحجاب الأكبر، وهو الفيض الأقدس من شوائب الكثرة والظهور. وسر تسميته بالحجاب الأكبر علم من المقدمات،"

[لطف عرفانية].

جهة المعرفة وكمالها

"وأما الاسم الأعظم بحسب مقام الألوهية والوحدانية فهو الاسم الجامع لجميع الأسماء الإلهية جامعية مبدأ الأشياء وأصلها لها، والنواة للأشجار من الفرع والأغصان والأوراق، أو اشتغال الجملة على أجزائها كالعسكر على الأنفاج والأفراد، وهذا الاسم بالاعتبار الأول، بل بالاعتبار الثاني أيضاً، حاكم على جميع الأسماء، وجميعها مظهره، ومقدّم بالذات على المراتب الإلهية، ولا يتجلّى هذا الاسم بحسب الحقيقة تامّاً إلّا لنفسه، ولمن ارتضى من عباده وهو مظهره التام؛ أي صورة الحقيقة الإنسانية، التي هي صورة جميع العوالم، وهي مربوب هذا الاسم. وليس في النوع الإنسانيّ أحدٌ يتجلّى له هذا الاسم على ما هو عليه إلّا الحقيقة المحمدية، صلى الله عليه وآله، وأوليائه الذين يتحدون معه في الروحانية، وذلك هو الغيب الذي

استثنى منه من ارتضى من عباده. وفي رواية الكافي: "والله لمحمد، صلى الله عليه وآله، ممن ارتضاه" [شرح دعاء السحر].

ولأن جوهر العبادة عبارة عن صرف التوجه إلى الذات الإلهية لخرق جميع الحجب الظلمانية والنورانية وتحقيق كمال الانقطاع إليها؛ ولأن الأسماء الإلهية هي حجب نورانية للذات المقدسة، كما قال الإمام في شرح دعاء السحر: "اعلم يا حبيبي وفقك الله لمعرفة أسمائه وصفاته وجعلك من المتدبرين في أسرار آياته أن الأسماء الحسنى الإلهية والصفات العليا الربوبية حجب نورية للذات الأحدية المستهلك فيها جميع التعينات الأسماوية المستجن في حضرتها كل التجليات الصفاتية"، فإن الوصول إلى شهود الاسم الأعظم لهو دليل على خرق تلك الحجب وتحقيق التوجه المطلق وكمال الانقطاع المرضي عند الله تعالى، والذي يتولى أمر صاحبه فيما بعد. ونحن نرد في الدعاء عن الأئمة المعصومين عليهم السلام: "إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك". ولهذا، أشار الإمام الخميني رحمته الله إلى الحركة المعنوية لأصحاب الأسرار الغيبية، الذين استقبلوا التجليات الربانية بالقلب والروح، وأدركوا معنى حجاب الأسماء والصفات، وصار شهود التجلي الأعظم للذات المقدسة مقصدهم الأسنى: "وأصحاب الأسرار الغيبية يصرفون باطن الروح عن الجهات المشتتة لكثرات الغيب والشهادة، ويجعلون جهة سر الروح أحدية التعلق، ويجعلون جميع الكثرات فانية في سر أحدية الجمع. فإذا تنزل هذا السر الروحي في القلب، يظهر الحق في القلب بظهور الاسم الأعظم الذي هو مقام الجمع الأسماوي، وتفنئ الكثرات الأسماوية وتضمحل في الاسم الأعظم، وتصبح وجهة القلب في هذا المقام إلى حضرة الاسم الأعظم. فإذا ظهرت هذه من باطن القلب إلى ظاهر الملك،

كانت صورة إفناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه، وصورة التوجّه إلى حضرة الجَمْع في التوجّه إلى مركز بسط الأرض الذي هو يد الله في الأرض "مِعراج السالكين".

وكما أنَّ كلَّ مقام من مقامات الألوهية ومراتب الواحدية متّصل بالذّات المقدّسة (بحسب ما يدركه أهل المعرفة والشهود) بواسطة الاسم الأعلى الذي يحيط به، فيكون عرفان هذا الاسم طريقاً إلى المعرفة الحقّة كذلك، وما لم يشهد العارف هذا الارتباط القيوميّ بين الاسم المحيط والاسم المحاط، لا يكون قد عرف ربّه. "وقد عرفت أن ارتباط الأسماء الحسنی والصّفات العليا بهذا الخليفة ارتباط افتقار ووجود، كما أنَّ ارتباط الخليفة بها ارتباط تجلّ وظهور. وذلك لأنّ الحقيقة الإطلاقيّة الغيبية لا ظهور لها بحسب حقيقتها، وكلّ ظهور في عالم الوجود وإن كان منها إلّا أنّه ليس هي، فلا بدّ لظهورها من مرآة تتجلّى فيها. فالتعيّنات الصّفاتية والأسمائية مرآتي ذلك النور العظيم ومحلّ ظهوره." [ملطف عرفانية]، ولنعط مثلاً يقرب المعنى إلى الذّهن. وهو لو أنّنا أردنا أن ندرك المعنى الدّقيق للعلم أو القدرة، فما لم نرهما تجلّيات الحياة وفروعها، فهذا يعني أنّنا ما زلنا نجعل أهمّ ما فيهما من معنى. وقد قيل أنّ القدرة والعلم يرجعان إلى الحياة. ولما كنّا قد حصرنا معنى الحياة بالنموّ والحركة، فقد عجزنا عن إدراك أهمّ ما فيها من معانٍ؛ وهكذا أغلقنا على أنفسنا باب معرفة الصّفات المتفرّعة عنها أو المتحدة فيها أيضاً. فالأسماء تعرف ببعضها، لأنّها متحدة في الحقيقة وإن اختلفت بحسب الاعتبار المفهومي وتباينت. وهذا الاتحاد هو المحقق لمعنى الاسم الأعظم. فيه عرفت الأسماء الإلهية وظهرت.

"كلّ اسم كان أُنْفَه إلى أفق الفيض الأقدس أقرب، كانت وحدته أُنْمَ، وجهة غيبه أشدّ وأقوم. لأنّ أفق الفيض الأقدس هو الغيب والوحدة،

ولهذا تكون جهات الكثرة والظهور فيه أنقص وعن أفقها أبعد. وعلى سبيل التّعاكس، كلّما بُعد عن حضرته ورفض مقام قربه، كانت الكثرة فيه أظهر وجهات الظّهور أكثر. ومن هذا، ينكشف لقلب كل عارف أنّ الاسم الأعظم المستجمع لجميع الأسماء والصفات مع اشتماله للكثرات واستجماعه للرّسوم والتّعينات فإنّه أقرب إلى الوحدة. وأنّ هذا الاشتمال منزّه عن الكثرة الحقيقيّة من وجه، بل حقيقته متّحدة مع الفيض الأقدس الذي هو مقام الغيب المشوب بمقابل الغيب المطلق الذي هو للهوية الغيبية. وعليه يكون اختلاف الاسم الأعظم مع الفيض الأقدس بمحض الاعتبار، كاختلاف المشيئة والفيض المقدّس مع التّعين الأوّل المعبر عنه في لسان الحكماء بـ"العقل الأوّل". [إلتفت عرفيّة].

ويثبت الحكماء أنّ الدّات الإلهيّة لمّا كانت واحدة لا يُتصوّر لها ثانٍ، وأنّها بسيطة لا يُعقل فيها التركيب (لأنّ التركيب فرع الاحتياج والاحتياج من صفات المخلوق)، فإنّ كل صفة لها أو اسم ينبغي أن يكون عين الاسم الآخر حقيقةً ومفهوماً. وإنّما تكثر الأسماء من حيثيّة النّظر وزاوية الفهم. فنحن الذين جعلناها متباينة الذات بإضافة القيود والحدود إلى المعاني. ولو أدركنا حقيقة العلم لما رأيناه مبيناً للقدرة أبداً. ومثل هذا الإدراك يمثّل الغاية القصوى والمرتبة العليا من معرفة الأسماء، وهي معرفة الاسم الأعظم.

"أوّل من يستفيض من حضرة الفيض الأقدس والخليفة الكبرى هو حضرة الاسم "الله" الأعظم بحسب مقام تعيّنه، باستجماع جميع الأسماء والصفات ومقام ظهوره في جميع المظاهر والآيات. فإنّ التّعين الأوّل للحقيقة اللامتعيّنة هو كلّ التّعينات والظهورات مستجمعة. ولا يرتبط أي واحد من الأسماء والصفات بالفيض الأقدس إلا بتوسّط الاسم الأعظم على التّرتيب المنسّق: كلّ حسب مقامه الخاص به." [إلتفت عرفيّة].

جهة التحقق

والاعتبار الآخر للاسم الأعظم هو بحسب الحقيقة العينية المنزلة في ملابس كثرات عالم الطبيعة التي هي منزل أسفل سافلين. فللاسم الأعظم إحاطة بجميع الحضرات والعوالم. ومن هنا فإنه ظاهر الرحمة التي وسعت كل شيء، "أول ما ظهر من مظاهر الاسم الأعظم مقام الرحمانية والرحيمية الذاتيتين: "ورحمتي وسعت كل شيء". وهما من الأسماء الجمالية الشاملة لكل الأسماء. ولهذا سبقت رحمته غضبه. وبعدهما الأسماء الأخرى من الأسماء الجلالية على حسب مقاماتها. [لطيف عرفية]. والتي لبست لباس أشرف الخليقة الذي أرسله الله رحمةً لجميع العوالم الوجودية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. ويفضل هذا التجلي والاعتبار فتح باب معرفة الله. ولولاه لما عرف أحد ربه، "هذه الخلافة هي روح الخلافة المحمدية وربها وأصلها ومبدؤها. منها بدأ أصل الخلافة في العوالم كلها. وقد ظهرت تمام الظهور في حضرة الاسم "الله" الأعظم، رب الحقيقة المحمدية المطلقة وأصل الحقائق الإلهية الكلية. فهي أصل الخلافة والخلافة ظهورها، بل هي الظاهرة في هذه الحضرة لاتحاد الظاهر والمظهر، كما أشار إليه الوحي الإلهي إشارة لطيفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. حيث قال العارف الكامل الشاه آبادي: "إنَّ "هاء" أنزلناه إشارة إلى الحقيقة الغيبية النازلة في البنية المحمدية التي هي حقيقة ليلة القدر". [لطيف عرفية]. وسوف يأتي الحديث مفصلاً عن هذا المعنى في فصل الإنسان الكامل ودوره المحوري في معرفة الله تعالى. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "وأما الاسم الأعظم بحسب الحقيقة العينية فهو الإنسان الكامل خليفة الله في العالمين، وهو الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله التي بعينها الثابت متحدة مع الاسم الأعظم في مقام الإلهية وسائر الأعيان الثابتة بل الأسماء الإلهية من تجليات هذه الحقيقة، لأن الأعيان الثابتة تعينات الأسماء الإلهية والتعين عين المتعين في العين غيره

في العقل. فالأعيان الثابتة عين الأسماء الإلهية، فالعين الثابت من الحقيقة المحمدية عين الاسم الله الأعظم وسائر الأسماء والصفات والأعيان من مظاهره وفروعه، أو من أجزائه باعتبار آخر. فالحقيقة المحمدية هي التي تجلّت في العوالم من العقل إلى الهولي، والعالم ظهورها وتجليها؛ وكل ذرة من مراتب الوجود تفصيل هذه الصورة. وهذه هي الاسم الأعظم وبحقيقتها الخارجية عبارة عن ظهور المشيئة التي لا تعين فيها، وبها حقيقة كل ذي حقيقة وتعين كل متعين: "خلق الله الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها". وهذه البنية المسماة بمحمد بن عبد الله، النازلة من عالم العلم الإلهي إلى عالم الملك لخلاص المسجونين في سجن عالم الطبيعة، مجلّة تلك الحقيقة الكلية؛ وانطوى فيها جميع المراتب انطواء العقل التفصيلي في العقل البسيط الإجمالي". [شرح دعاء البحر].

جهة البدء والانطلاق

وقد تجلّى الاسم الأعظم في ملابس الحروف والألفاظ على نحو فريد لا يشبه أي أسلوب لغوي اتقنه البشر. فعليك أن تطلبه من اللغة، لكن لا على النحو الذي تتصوره من تراكيب الألفاظ. وإذا تحقّق التوجّه التام والانقطاع الكامل أثناء قراءة بعض الآيات أو السور، فقد تدرك مقام الاسم الأعظم. ولفهم هذه الإشارة، نتذكر أنّ من أهم منطلقات الارتقاء المعنوي: الارتقاء الفكريّ. وهو عبارة عن السير في فضاء المعاني والغوص في بحر الأفكار. فمن اصطاد - أثناء سيره وغوصه - المعاني الجليلة والأفكار البديعة، حقق الاستعداد للوصول إلى الأحوال القلبية. وإن من سعة رحمة الله تعالى أن جعل اللغة والبيان، وسيلةً للارتقاء الفكريّ ومنه إلى المعنويّ. حيث يفتح باب التكامل الذي لا نهاية لها. فمفتاح المعرفة موجود عند كل عاقل، وباللغة والبيان يصنع الإنسان ويتكامل العقل. وإلى هذا السفر العرفاني

الإشارة في حديث الإمام الصادق عليه السلام: "ما زلت أردّد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها".

إنّ مقام الاسم الأعظم حقيقة وجوديّة يمكن إدراكها من خلال السير المعنويّ. والارتقاء المعنويّ قابل للتحقّق بالارتقاء الفكريّ الذي يمكن تحقيقه من خلال قراءة مجموعة من الألفاظ والحروف بشرط التوجّه التام. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "وأما حقيقته بحسب اللفظ والعبارة فعلمها عند الأولياء المرضيّين والعلماء الراسخين ومخفيّة على سائر الخلق. وما ذكر من حرف الاسم الأعظم أو كلماته في كتب القوم من العرفاء والمشايخ، إمّا من الآثار النبويّة أو من أثر الكشف والرياضة عند الخلوص عن دار الوحشة والظلمة؛ كما نقل عن الشيخ مؤيد الدين الجنديّ أحد شراح الفصوص أنّ من أسماء هذا الاسم هو الله المحيط والقدير والحَيّ والقيوم ومن حروفه "أ، د، ذ، ر، ز، و". قال "ذكره الشيخ الكبير في سؤال الحكيم الترمذي".

وقال الشيخ الكبير في الفتوحات: "الألف هو النّفس الرّجماني الذي هو الوجود المنبسط؛ والدال هي حقيقة الجسم الكلّي؛ والذال المتغذّي، والزاء الحسّاس المتحرك، والواو حقيقة المرتبة الإنسانية. وانحصرت حقائق عالم الملك والشهادة المسمّى بعالم الكون والفساد في هذه الحروف". انتهى كلامه.

وقال الشيخ المحدث الجليل الحاج الشيخ عباس القميّ سلّمه الله تعالى في كتاب مفاتيح الجنان بهذه العبارة: في ذكر بعض الآيات والأدعية النافعة المختصرة التي اخترتها من الكتب المعتمدة.

الاول، ما نقله السيد الأجلّ علي خان الشيرازي رضوان الله عليه في كتاب الكلم الطيّب من أن الاسم الأعظم لله تعالى هو الذي يكون افتتاحه "الله" واختتامه "هو"؛ وليس في حروفه نقطه؛ ولا يتغير قراءته أعرب أم لم

يعرب، وهو في القرآن المجيد في خمس آيات مباركات من خمس سور هي: البقرة، وآل عمران والنساء وطه والتغابن. قد قال الشيخ المغربي في كتابه: اجعل كل من هذه الآيات الخمس وردا لك واقرأها كل يوم إحدى عشرة مرة فسوف يسهل كل صعب وعسير وكل هام إن شاء الله تعالى؛ وهي:

1. «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» إلى آخر آية الكرسي. 2. «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ». 3. «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا». 4. «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى». 5. «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». انتهى. [شرح دعاء السحر].

إنَّ حديث العرفاء عن صور الاسم الأعظم وتجلياته يهدف إلى ربطنا بالوسائل التي توصلنا إليه. فعندما نعلم أنَّ كتاب الله فيه اسمه الأعظم، سوف نتمسك به ليأخذ بأيدينا إلى هذا المقام المرضي، على طريقته وأسلوبه. وعندما نعلم أنَّ أهل بيت العصمة والطهارة قد أعطوا الاسم الأعظم فسوف نتمسك بهم حتَّى يوصلونا إليه. وإنَّما اتَّسعت رحمة الله بعباده بإنزال هذه الحقيقة العظيمة في قوالب الأبدان والأشخاص والألفاظ ليُعلم أنَّ الاسم الأعظم قادر على مَدِّ يده إلى أدنى العوالم وأبعدها عنه، ليرجعها إليه راضية مرضية، كي لا ترجع مقهورة معذبة.

يقول الإمام الخميني رحمته: "وبعبارة أخرى هذه الصَّحيفة النورانيَّة صورة الاسم الأعظم كما أنَّ الإنسان الكامل أيضاً صورة الاسم الأعظم؛ بل حقيقة هذين في حضرة الغيب واحدة؛ وهما في عالم التفرقة متفرقان بحسب الصَّورة، ولكن بحسب المعنى أيضاً لا يفترقان. وهذا أحد معاني "لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض". وكما أنَّ الحقَّ تعالى خَمَر طينة آدم الأول والإنسان

الكامل بيدي الجلال والجمال، كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيدي الجمال والجلال، ولعلّه لهذه الجهة أيضاً يُقال له "القرآن" لأنّ مقام الأحدية جمع الوحدة والكثرة؛ ولهذه الجهة ليس هذا الكتاب قابلاً للنسخ والانقطاع، لأن الاسم الأعظم ومظاهره أزلية وأبدية، وجميع الشرائع دعوة إلى هذه الشريعة والولاية المحمدية، ولعلّ الذكر في الآية الشريفة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ بِصِيفَةِ الْجَمْعِ لَمَّا ذَكَرْنَا مِنَ النَّكْتَةِ فِي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ لَأَنَّ الْأَمَانَةَ بِحَسَبِ الْبَاطِنِ هِيَ حَقِيقَةُ الْوَلَايَةِ وَبِحَسَبِ الظَّاهِرِ هِيَ الشَّرِيعَةُ أَوْ دِينَ الْإِسْلَامِ أَوْ الْقُرْآنَ أَوْ الصَّلَاةَ﴾. [معراج الشّكّين].



"يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنُهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)،
لَا بَصَوْتَ يَقْرَعُ، وَلَا بِنْدَاءٍ يُسْمَعُ، وَأِنَّمَا
كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فَعَلَّ مِنْهُ أَنْشَاءً وَمِثْلَهُ، لَمْ
يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا
لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا".



التجلى الذي استأنثوه

الله لنفسه:

سرّه ومن يعرفه؟

التجلي الذي استأثره الله لنفسه : سرّه ومن يعرفه ؟

"الحمد لله وسبحانك اللهم، صلّ على محمد وآله مظاهر جمالك وجلالك وخزائن أسرار كتابك الذي تجلّت فيه الأحديّة بجميع أسمائك حتّى المستأثر منها، الذي لا يعلمه غيرك واللعن على ظالمهم أصل الشجرة الخبيثة". [الوصية السبلبية].

لما كانت الذات الإلهيّة عين الوجود، ولا وجود إلّا لها. وكلّ موجود فهو بوجوده ظلّ وجودها.

ولما كانت الذات الغيبيّة في عين الوحدة والبساطة، فإنّ كلّ موجود في حقيقة وجوده هو عين الموجود الآخر، وإن اختلفت الماهيات فالكلّ متحدٌ بالكلّ في الحقيقة وإن اختلف في الظهور والتعيّن.

فلو اطلعت في عين الشهود على حقيقة أي شيء.. مهما اشتدّت مظهريّة أو ضعفت.. فلن ترى سوى حقيقة واحدة هي الذات المقدّسة.

إلّا أنّ هذا الشهود، لو حصل، فإنّه يحصل متدرّجاً على المنوال التالي:

إذا عبرت حجاب الكثرات، وتخلصت من قيود الماهيات التي هي
الاسماء التي ابتدعها الناس، فسوف تشاهد أعيانها الثابتة وهي عبارة عن
حقائقها في العلم الإلهي. وهو العلم بالأشياء كما هي.

وإذا عبرت حجاب الأعيان الثابتة ترى الأسماء الإلهية، لأنها بمنزلة
العلل لتلك الأعيان.

وإذا خرقت حجاب الكثرة الأسمائية، فسوف تشاهدها في عين الجمع
المسمى بالاسم الأعظم.

وإذا عبرت الاسم الأعظم، تشهد جهة غيبه وانتسابه إلى الذات المعبر
عنها بالاسم المستأثر.

وإذا عبرت حجاب الاسم المستأثر فما ثمة شيء سوى الذات دون
حجابه.

على أنّ الثابت بالبرهان والمنقول بعمق البيان أنّه ليس للإنسان لعبور
الاسم الأعظم من إمكان.

وأنت لو كان لك تلك العين وأمعنت النظر في أيّ شيء من الأعيان
الخارجية، لشاهدت فيه عينه الثابتة في الحضرة العلمية بعد سقوط القيود
الزمانية وانمحاء الحدود المكانية.

ولو زاد إمعانك في النظر في الشيء نفسه، لسقط حدّ العين الثابتة رغم
عظمته، وشاهدت فيه الاسم الذي يرّيه.

فزدد الآن في حدّة النظر، وسوف ترى في هذا الشيء الاسم الأعظم
وليس وراء الاسم الأعظم سوى احتراق العين.

أما الفكر الثاقب فإنّه يعطي معنى ما ذكرنا، لأنّه سيرٌ علميٌّ شرفه الله
تعالى وجعله أحبّ الخلق إليه. فهو الذي يثبت حقيقة ما ذكرنا من أنّه ما ثمة

وجود إلا وجود الذات. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "بل نقول: إنّ الوجودات بمراتبها السّافلة والعالية كلّها مرتبطة بالوجه الخاصّ بالله تعالى بلا توسّط شيء، فإنّ المقيّد مربوط بباطنه وسرّه بالمثل؛ بل هو عين المطلق بوجه يعرفه الراسخون في المعرفة. وكان شيخنا العارف الكامل أدام الله ظلّه على رؤوس مرديده، يقول: إنّ المقيّد بباطنه هو الاسم المستأثر لنفسه؛ وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا هو؛ لأنّه باطنه المطلق، ويتعيّن ظهره لا بحقيقته، فالكلّ حاضر عند الله بلا توسّط شيء. ومن ذلك يُعرف نفوذ علمه وسريان شهوده تعالى للأشياء؛ فيرى بواطنها كظواهرها، وعالم الملك كالمملوك، والعالم الأسفل كالأعلى، بلا توسّط شيء كما يقول المحجوبون. ولا تفاوت شدّة وضعفاً في الظهور والحضور عنده. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام على ما في الوافي: "علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى". فليتدبر في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ (الواقعة: 85). ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16). وهو ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (نصّلت: 54). بل لا وجود لشيء على الحقيقة، ولا هوية على الإطلاق لموجود من الموجودات، فهو هو المطلق والقيوم التام. فانتبه من نوم الغفلة وكن من المؤمنين والموحدين." [شرح دعاء السحر].

وإذا كان الاسم الأعظم هو عصارة التجليات والمصحح لمقامات الشهود، فإنّ الاسم المستأثر هو المصحح لحقيقة التوجّه الفطري إلى الذات المقدسة. فمن تصور الذات على رأس سلسلة الكائنات، فقد وقع في حجاب الجهل والشرك، حتى لو قال أنها أعظم وأكبر من كل شيء، أو قال أنها خالقة كل شيء ومصدر كل خير وكمال. فالهوية الغيبية وإن لم تكن مشهودة لأحد، فهي مع كل شيء. وقوله هو معكم في الإشارة إلى الذات، لا يعني أنكم معه في هذا المقام. وهي المقصودة بقولنا الله أكبر من أن يوصف. وهذا التكبير هو روح كل عبادة؛ والتي هي عبارة عن التوجّه الفطري إلى ذات الحق، وإن

لم تكن معروفة أو قابلة للشهود

فمعية الذات، مع احتجابها بما لا يتناهى من الحجب هي الجهة الغيبية لكل شيء، والتي لا يمكن لأحد أن يعرفها أو يشهد بها. وهذا هو الاسم المستأثر. فهو غيب كل شيء. بل غيب الغيوب، لأن الكثير من الغيب مشهود إلى أن ينتهى إلى غيب لا يمكن لأحد شهوده.

ويظهر الاسم المستأثر في بعض مواطن كلمات الإمام العرفانية، وكان الإمام له رأيان فيه. فهو تارة غير معروف لأحد بشهادة الرواية المنقولة عن الإمام الباقر (عليه السلام)، والتي يشير فيها إلى أَنَّ حَرْفًا مِنَ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى اسْتَأْثَرَهُ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ. أَوِ الرَّوَايَةُ الْمُنْقُولَةُ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عليه السلام) حيث يقول فيها: "وَأَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفًا أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ (صلى الله عليه وآله) اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفًا وَحُجِبَ عَنْهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ". [الكافي].

لكن كلامه في الوصية السياسية الإلهية يبين أَنَّ خزانة الأسرار كلها مستودعة في قلوب أهل بيت النبوة بما فيها الاسم المستأثر!

والذي تبادر إلى ذهني - أنا اللاشيء - أَنَّ الاسم المستأثر هو الدرجة التي أدركها هؤلاء الأطهار بنزولهم إلى عالم الطبيعة وكفاحهم وجهادهم فيها. كما ورد بشأن الإمام الحسين (عليه السلام) أَنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ جَدَّهُ الْمُصْطَفَى (صلى الله عليه وآله) يخبره أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ دَرَجَةً لَنْ يَنَالَهَا إِلَّا بِالشَّهَادَةِ أَوِ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

إن ما يفضي إليه النظر العميق فيما ورد عن مقاماتهم عليهم السلام، إن مقام الاسم الأعظم كان لهم دون الحاجة إلى عبور بلايات الدنيا. بمعنى أن صفاء أوعيتهم واكتمال عقولهم وطهارة أنفسهم كانت متحققة في الأيام الأولى التي تفتحت فيها عيونهم على هذه الدنيا. ومع وجود هذا الاستعداد فلا يبقى من مانع أمام شهود الاسم الأعظم. وأما ما امتحنوا به في أيام حياتهم، ونجاحهم في الاستقامة على الطريقة رغم عظمة المصائب وشدة

الأذى، فقد كان سبباً لنيل توفيق شهود الاسم المستأثر واكتمال حروف
الاسم الأعظم.

ولن تكتمل دائرة البحث العرفاني إلا بطرح بحث الاسم المستأثر. لأنه
يرتبط بشأن الله وشأن الألوهية الذي فوق إدراك الإنسان. فما من معنى
يمكن أن يشير إليه بمثل الاسم المستأثر.



"لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، قَتَجَرِي عَلَيْهِ
الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
فَضْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ
وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْدَعُ وَالْبَدِيعُ".



الإنسان الكامل ودوره في
معرفة الله

الإنسان الكامل ودوره في معرفة الله

لطالما أكد الإمام على أن "التمسك بأولياء النعم الذي اهتدوا إلى طريق العروج إلى المعارج، وأتموا السير إلى الله هو من لوازم السير إلى الله". [معراج الشفيعين]. ذلك لأن الحق تعالى شأنه كما جعل محمداً (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته وسائط الهداية وعينهم الهداة لنا ونجى الأئمة ببركاتهم من الضلالة والجهل، فإنه "يرتم بشفاعتهم قصورنا ويتم نقصنا ويقبل طاعاتنا وعباداتنا غير اللانقة، فإنه ولي الفضل والإنعام". [معراج الشفيعين]. وهذا علي بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين "من أعظم النعم التي من بها ذات الحق المقدس على عباده، وأنزله من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبودية". [معراج الشفيعين].

ولأجل ذلك، يذكر الإمام مقاماتهم، تارة، تحت عنوان الإنسان الكامل وخصائصه التي تجتمع تحت عنوان المظهرية التامة؛ وحيناً بما لهم من مقام محمود، امتازوا به في مراتب الإنسانية، فبلغوا مرتبة البرزخية العظمى التي يصعب فهمها وإدراكها.

عندما يذكر الإمام ما يصل إليه الإنسان في نهاية مسيرته التكاملية

يأتي على حديث مروي عن النبي الأكرم: "من الحى القيوم الذي لا يموت إلى الحى القيوم الذي لا يموت أما بعد فإني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال صلى الله عليه وآله: فلا يقول أحد من أهل الجنة للشيء كن إلا ويكون"، ويقول: "فإذا أسقط العبد تصرفاته وسلم مملكة وجوده كلها إلى الحق وخلى بين البيت وصاحبه وفني في عز الربوبية، فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها فتصير تدبيراته تدبيرات إلهية، فيكون بصره بصر إلهياً وينظر ببصر الحق، ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسمع بسمع الحق.. وتكون نتيجة هذا التسليم لإرادة الحق في الآخرة: أن الحق تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية، ويجعله مثلاً أعلى لنفسه". [مراج السالكين].

فله المثل الأعلى في السماوات والأرض؛ وهو أحد معاني الاسم الأعظم والتجلي الأتم الأكرم. وهو الإنسان الذي تخلق بأخلاق الله وتحقق بأسمائه. ويظهر هذا المقام بصورة الولاية على كل العوالم، ومنها عالم الدنيا الذي هو عالم التغير والتبدل، وهو عالم مشهود لمن كان في أسفل سافلين؛ فيقول الإمام: "فلا مانع من أن تقع التغيرات والتبديلات في عالم الطبع في ليلة القدر بما أنه ليلة التوجه التام للولي الكامل وليلة ظهور سلطنته الملكوتية، بتوسط النفس الشريفة للولي الكامل، وإمام كل عصر، وقطب كل زمان؛ وهو اليوم حضرة بقية الله في الأرضين سيدنا ومولانا وإمامنا وهادينا الحجة بن الحسن العسكري (أرواحنا لمقدمه الفداء) فما أراد ﷺ من جزئيات الطبيعة يبطئ حركته، وما أراد سرعته يسرعه، وما أراد من رزق يوسعه، وما أراد يضيقه، وهذه الإرادة إرادة الحق وظل الإرادة الأزلية وشعاعها وتابعة للأوامر الإلهية، كما أن ملائكة الله أيضاً لا يتصرفون من عند أنفسهم وتصرفاتهم جميعاً، بل تصرفات جميع ذرات الوجود، تصرف إلهي وهي من تلك اللطيفة الغيبية الإلهية، (فاستقم كما أمرت)". [مراج السالكين].

أما سر السر فهو أن هذه الولاية عبارة عن ظهور الأسماء المطلقة وتجليها في كل مراتب الوجود، "إن حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الألوهية وهي أصل الوجود وكماله". [معراج السالكين] وهذه الولاية عبارة عن تجلي تربية الاسم الأعظم لكل الوجود "فالخضرة الإلهية رب الإنسان الجامع الكامل". [شرح دعاء السحر].

وبسببها يصل الإنسان الكامل إلى الاسم المستأثر أو يتصل به، "وتلك اللطيفة الإلهية هي حقيقة الوجود المنبسط، والنفس الرحمانى، والحق المخلوق به"، الذي هو بعينه باطن الخلافة الختمية والولاية العلوية المطلقة.

[معراج السالكين].

فبالنظر إلى محورية الإنسان في عالم الخلق، لكونه الموجود الوحيد الذي يعكس جميع التجليات الإلهية (ولهذا عبّر عنه بالكون الجامع)، فإن سير سائر الموجودات إنما يكون بتوسطه؛ ولا يمكن أن ترجع كثرات السموات والأرض إلا في ظل تربية الأسماء الإلهية مجتمعة. وهو السر في خلافة آدم الذي علمه الله الأسماء كلها. ولهذا به عرف الله وعبد. ومبدأ هذا السر أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي له قابلية النزول إلى أسفل سافلين، فيجمع الكثرات اللامتناهية ما شاء الله. وليس ذلك سوى الضد التام للوحدة المطلقة التي هي هدف السير المعرفي؛ والضد يظهر حسنة الضد. ولهذا، وصف الإنسان في كتاب الله العزيز بالصفات السلبية كالهلع والجزع والمنع والعجل والخسر والكفر والكند وغيرها. وكأنه ما من صفة سلبية إلا وتظهر في أصل الإنسان، وتدل على أنه مجمع كل القابليات، كما قال تعالى بشأنه: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. حتى إذا رجع هذا الإنسان بتفعيل قابليته، وبإخراج القوى والاستعدادات من حالة الكمون إلى التحقق، صار مظهراً تاماً لأسماء الله وصفاته.

فلأن الملائكة لا تعصي، لا يكون للتوبة من معنى في وجودها وحركتها،

فلا يمكن أن تظهر حقيقة الغفاريّة والتوّابيّة، ويبقى الاسم الغفار أو التواب (على سبيل المثال)، في بطون وكمون، والله تعالى أحب أن يظهر جميع صفاته وأسمائه الحسنى. وكان الإنسان القابل المطلق لظهور حضرة جمع الأسماء والصفات.

يقول الإمام الخميني: "وليُعلم أن لكل من الموجودات صراطاً خاصاً به، ونوراً وهدايةً مخصوصة. والطّرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، وحيث أن في كلّ تعين حجاباً ظلمانياً، وفي كلّ وجود وانية حجاباً نورانياً، والإنسان مجمع التعينات وجامع الموجودات، فهو أحجب الموجودات عن الحقّ تعالى؛ ولعلّه إلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، ومن هذه الجهة فصرّاط الإنسان أطول الصّراط وأظلمها. وأيضاً حيث أن ربّ الإنسان حضرة الاسم الله الأعظم ونسبة الظاهر والباطن والأوّل والآخِر والرّحمة والفهر، وبكلمة أخيرة نسبة جميع الأسماء المتقابلة له على السّواء فلا بدّ أن يحصل لنفس الإنسان في منتهى سيره مقام البرزخيّة الكبرى، ولهذه الجهة يكون صراطه أدقّ من جميع الصّراط". [إعراج السّالكين].

وقد ذكرنا أن كلّ الموجودات العينيّة والمظاهر الكونيّة هي ظلال الأسماء الإلهيّة، بل هي عينها من وجه التحقق عند الله. ولأنّ مرجع كل الأسماء إلى الاسم الأعظم، فإن رجوع مظاهر الأسماء سيكون إليه أيضاً؛ قال تعالى: ﴿إِن إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعِيّ﴾. وهو أحد معاني تربية الاسم لمظهره.

وحيث تميّز الإنسان بقابليّة الرجوع إلى الاسم الأعظم دون توسط، فإنّ ظهور تربيته فيه يكون أجلى وأتم؛ وبسببه صار قائداً لحركة رجوع الكل إليه. ولهذا، يكون عقاب خيانتة لهذه الأمانة وجحوده وإنكاره والإعراض عنه هو الأشدّ. فالإنسان الكامل مظهر الاسم الأعظم، وبواسطته ترجع مظاهر الأسماء كلها إليه.

"وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَخَذَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَحَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ".

نهج البلاغة

ما معنى مظهرية الاسم الأعظم

لا يخفى أنَّ من نظر إلى العالم من الجهة الإلهية، فإنه لن يرى فيه سوى الاسم الأعظم (وهو معنى العظمة الإلهية المطلقة). وبناء عليه، يستحيل أن يكون لأيّ شيء في هذا العالم مانعية ظهور هذه الحقيقة. فجميع الأشياء في وجودها الجمعي تمثل مظهرية الاسم الأعظم. وعندما يقول أولياء الله الكاملون: "ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه"، فذلك لأنهم كانوا يرون الأشياء في هذه المرتبة الوجودية، لا في مراتبها الناقصة وقيودها العدمية. وإذا كان النظر إلى الأشياء من جهة يلي الخلق، متدرجاً في مراتب الشهود - وهو الذي يحصل للسالك أثناء عبور مراتب الكمال - فإنَّ الإنسان الكامل سيكون في المشهد النهائي المظهر الوحيد للاسم الأعظم. ونعلم حينها لماذا كان سير كلِّ الموجودات إليه، وما هو سرُّ كونه غاية كلِّ المخلوقات. يقول الإمام الخميني رحمته: "وقد ثبت في العلوم الإلهية أنَّ معاد جميع الموجودات إنما يتحقَّق بتوسُّط الإنسان الكامل ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، "بكم فتح الله وبكم يختم"، "وإياب الخلق إليكم" ﴿معراج الشاكين﴾.

".. حيث أنَّ تربية نظام عالم الملك من الفلكيات والعنصریات

والجوهريات والعرضيات مقدّمة وجود الإنسان الكامل، وفي الحقيقة هذا الوليد عصارّة عالم التحقّق والغاية القصوى للعالمين، ولهذه الجّهة صار الوليد الأخير، وحيث أنّ عالم الملك متحرّك بالحركة الذاتيّة الجوهريّة وهذه الحركة الذاتيّة استكمالية فأينما انتهت فهو غاية الخلقة ونهاية السّير، فإذا نظرنا بالطريق الكلّي إلى الجسم الكلّ، والطّبع الكلّ، والنبات الكلّ، والحيوان الكلّ، والإنسان الكلّ، فإنّ الإنسان هو الوليد الأخير الذي وجد بعد الحركات الذاتيّة الجوهريّة للعالم وانتهت الحركات إليه، فبد التّربية للحقّ تعالى قد ربّت الإنسان في جميع دار التحقّق، والإنسان هو الأوّل والآخر". [معراج السّالكين].

"فالإنسان مخلوق لأجل الله، ومصنوع لذاته المقدّسة، وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات، وغاية سيره الوصول إلى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف بفناء الله، ومعاده إلى الله ومن الله وفي الله وبالله؛ كما يقول سبحانه في القرآن: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾. وسائر الموجودات ترجع إلى الحقّ تعالى بواسطة الإنسان؛ بل مرجعها ومعادها إلى الإنسان كما يقول في الزيارة الجامعة المظهرة لنبيّة من مقامات الولاية "وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم". ويقول: "بكم فتح الله وبكم يختم"... وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾، وقوله ﷺ في الزيارة الجامعة: "وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم"، سرّ من أسرار التوحيد، وإشارة إلى الرجوع إلى الإنسان الكامل هو الرجوع إلى الله؛ لأنّ الإنسان الكامل فإن مطلق وباق ببقاء الله، وليس له من عند نفسه تعيّن وإنيّة وأنانية؛ بل هو نفسه من الأسماء الحسنی وهو الاسم الأعظم. كما إنّ الإشارة إلى هذا المعنى في القرآن والأحاديث الشريفة كثيرة". [معراج السّالكين].

العارف يقول إنني إذا شهدت الأشياء بعين الله فسوف أراها جميعاً

مظاهر أسمائه. وإذا أمعنت النَّظْرَ، فسوف أرى الإنسان الكامل مظهر اسمه الأعظم بالتَّمام والكمال؛ لا يحجب هذا الإنسان الكامل أي شيء منه، وذلك لفنائه التَّام فيه. ولأنَّ الاسم الأعظم ربَّ الأسماء كُلِّها وهي إشعاعاته وتجلياته، فإنَّ مظهره الأتمَّ مربِّي جميع الأعيان والمظاهر الخلقية التي هي مظاهر الأسماء. يقول الإمام: "وأوَّل اسم اقتضى ذلك هو الاسم "الله" الأعظم، ربَّ العين الثابتة المحمَّدية في النشأة العلميَّة. فحصل الارتباط بين الظاهر والمظهر والروح والقالب والبطون والظهور. فالعين الثابتة للإنسان الكامل أوَّل ظهور في نشأة الأعيان ومفتاح مفاتيح سائر الخزائن الإلهيَّة والكنوز الربَّانية المختفية، كلُّ ذلك بسبب الحب الذاتي في حضرة الألوهية". [لطيف عرفانية].

وعندما نرى العالم في حركته الرَّجوعيَّة إلى الله، فسوف نرى مظهر الاسم الأعظم متقدِّماً قافلته. وهذا المقام الذي يُترجم في الحياة الاجتماعية ويظهر بمقام قيادة الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام للمجتمعات البشرية. ولم يكن الهدف من قيادتهم الاجتماعية إلا أن يأخذوا بأيدي الناس في رحلة الرجوع إلى الاسم الأعظم. وقد جعلهم الله تعالى بفضل ذلك في مقام الفاعلية المطلقة وهو مقام الولاية الإلهية المشار إليه أنفأ؛ فأصبح كل من سواهم منفعلاً لهم، ويكون حاصل عمله وسعيه لمصلحة ما يريدون.

"إذا أراد السَّالك أن تكون تسميته حقيقيَّة فلا بدَّ له أن يوصل رحمت الحقِّ تعالى إلى قلبه ويتحقَّق بالرحمة الرحمانيَّة والرحيميَّة، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنَّه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتَّلطف، ويطلب الخير والصَّلاح للجميع، وهذا هو نظر الأنبياء العظام والأولياء الكَمَل عليهم السلام، غاية الأمر أنَّ لهم نظرين: أحدهما النَّظر إلى سعادة المجتمع ونظام العائلة والمدينة الفاضلة، والآخر النَّظر إلى سعادة الشخص؛ وهم

مُحِبُّونَ بِشَكْلِ كَامِلٍ لِهَاتَيْنِ السَّعَادَتَيْنِ وَالْقَوَانِينِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَوْسَّسُ وَتَنْفُذُ وَتَكْشِفُ وَتَجْرِي بِأَيْدِيهِمْ، يَرَاعُونَ فِيهَا هَاتَيْنِ السَّعَادَتَيْنِ حَتَّى فِي إِجْرَاءِ الْقِصَاصِ وَالْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ وَأَمْثَالِهَا، وَالَّتِي تَبْدُو أَنَّهَا أُسِّسَتْ وَفُتِنَتْ بِلِحَازِ نِظَامِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ، قَدْ لَوْحِظَ فِيهَا كِلْتَا السَّعَادَتَيْنِ لِأَنَّ لِهَذِهِ الْأُمُورِ فِي الْأَغْلَبِ دَخَالَةً كَامِلَةً فِي التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، وَإِيصَالَهُ إِلَى السَّعَادَةِ؛ حَتَّى الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ نُورُ الْإِيمَانِ وَالسَّعَادَةِ فَيَقْتُلُونَهُمْ بِالْجِهَادِ وَأَمْثَالِهِ كِيَهُودِ بَنِي قَرِيطَةَ؛ فَهَذَا الْقَتْلُ لَهُمْ أَيْضًا صِلَاحٌ وَإِصْلَاحٌ؛ وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ مِنَ الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ لِلنَّبِيِّ الْخَاتَمِ لِأَتْلَهُمْ مَعَ وَجُودِهِمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَهَيِّتُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ الَّذِي لَا يَسَاوِي يَوْمٌ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَعَسَرُهَا كُلَّ أَيَّامِ الْحَيَاةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ. وَهَذَا الْمَطْلَبُ وَاضِحٌ جَدًّا عِنْدَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مِيزَانَ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا وَالْأَسْبَابَ وَالْمُسَبِّبَاتِ فِيهَا، فَالسَّيْفُ الَّذِي يُضْرِبُ أَعْنَاقَ يَهُودِ بَنِي قَرِيطَةَ وَأَمْثَالِهِمْ كَانَ وَلَا يَزَالُ أَقْرَبَ إِلَى أَفْقِ الرَّحْمَةِ، مِنْهُ إِلَى أَفْقِ الْغَضَبِ وَالسَّخَطِ". [مِراجِ السَّلَكِ].

إِنَّ إدْرَاكَ مَوْقِعِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ، وَمَعْرِفَةُ مَصْدَاقِهِ الشَّخْصِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هِيَ مِفْتَاحُ مَعْرِفَةِ الْأَسْرَارِ وَالْمَعَانِي؛ وَلِهَذَا، نَحْمَدُ الْإِمَامَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَنْقُلُ هَذَا الْحَدِيثَ الْمَرْوِيَّ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): "أَعْلَمُ أَنَّ الصُّورَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ أَكْبَرُ حُجْجِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَهِيَ الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبَهُ بِيَدِهِ، وَهِيَ الْهَيْكَلُ الَّذِي بَنَاهُ بِحُكْمَتِهِ، وَهِيَ مَجْمُوعُ صُورَةِ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ الْمَخْتَصَرُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهِيَ الشَّاهِدُ عَلَى كُلِّ غَائِبٍ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَالصِّرَاطُ الْمَمْدُودُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، انْتَهَى".

فَيَقُولُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): "فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، مَخْلُوقٌ عَلَى صُورَتِهِ، مُتَصَرِّفٌ فِي بِلَادِهِ، مَخْلُوعٌ بِخَلْقِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، نَافِذٌ فِي خَزَائِنِ مُلْكِهِ وَمُلْكُوتِهِ، مُنْفُوعٌ فِيهِ الرُّوحُ مِنَ الْحَضَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ ظَاهِرُهُ نَسْخَةُ الْمُلْكِ وَالْمُلْكُوتِ، وَبَاطِنُهُ خَزَانَةُ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. وَلَمَّا كَانَ جَامِعًا لِكُلِّ صُورِ الْكُونِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ كَانَ

مرتبى بالاسم الأعظم، المحيط لجميع الأسماء والصفات، الحاكم على جميع الرسوم والتعينات، [شرح دعاء السحر].

وعليه، فإن معرفة مراتب الوجود، من المراتب المجردة إلى المثالية إلى الحسية، تتحقق بمعرفة هذا الإنسان؛ لأنه عصارة الأكوام والمفسر لمعنى وجودها، يقول الإمام: "واعلم أن الإنسان هو الكون الجامع لجميع المراتب العينية والمثالية والحسية، منطوف فيه العوالم الغيبية والشهادية وما فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وقال مولانا ومولى الموحدين صلوات الله عليه على ما نقل:

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
فهو مع الملك ملك، ومع الملوك ملوك، ومع الجبروت جبروت. [شرح دعاء السحر].

"والإنسان الكامل لكونه كوناً جامعاً ومرآة تامة لجميع الأسماء والصفات الإلهية، أمّ الكلمات الإلهية؛ بل هو الكتاب الإلهي الذي فيه كل الكتب الإلهية". [شرح دعاء السحر].

"فالإنسان الكامل [جامع] جميع سلسلة الوجود وبه يتم الدائرة، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الكتاب الكلي الإلهي". [شرح دعاء السحر].
"اعلم أن الإنسان الكامل هو مثل الله الأعلى وآيته الكبرى وكتابه المستبين والنبأ العظيم؛ وهو مخلوق على صورته ومنشأ بيدي قدرته، وخليفة الله على خليقته، ومفتاح باب معرفته؛ من عرفه فقد عرف الله وهو بكل صفة من صفاته وتجل من تجلياته آية من آيات الله. ومن الأمثال العليا على معرفة بآرثه معرفة تامة". [شرح دعاء السحر].

"وفي التجلي العيني أيضاً كان التجلي للإنسان الكامل باسم الله بلا واسطة من الصفات أو اسم من الأسماء؛ وعلى سائر الموجودات بتوسط

الْاَسْمَاءِ. وَهَذَا مِنْ اَسْرَارِ اَمْرِ اللّٰهِ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ ﷺ؛ وَإِنْ جَهِلَ بِحَقِيقَةِ هَذَا الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ، لِقَصُورِهِ. وَلَوْ لَا تَجَلَّى اللّٰهُ بِاسْمِهِ الْمَحِيطِ لِآدَمَ ﷺ؛ لَمَا تَمَكَّنَ مِنْ تَعَلُّمِ الْاَسْمَاءِ كُلِّهَا. وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ مَرْبُوبَ اِسْمِ اللّٰهِ، لَمَا وَقَعَ الْخُطَابُ عَلَى سَجْدَتِهِ، وَلَمَا قَصَرَ عَنْ رُوحَانِيَّةِ آدَمَ ﷺ. وَكَوْنِ آدَمَ مَظْهَرِ اِسْمِ اللّٰهِ الْاَعْظَمِ اقْتَضَى خِلَافَتَهُ عَنِ اللّٰهِ فِي الْعَالَمِينَ". [تَرْجُحُ دَعَاءِ السَّحَرِ].

"فَالْحَقِيقَةُ الْمَحْمُودِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَجَلَّتْ فِي الْعَوَالِمِ مِنَ الْعَقْلِ إِلَى الْهَيُولَى، وَالْعَالَمِ ظَهْرُهَا وَتَجَلَّىهَا، وَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ تَفْصِيلُ هَذِهِ الصُّورَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْاِسْمُ الْاَعْظَمُ". [تَرْجُحُ دَعَاءِ السَّحَرِ].

"فَالْإِنْسَانُ الْجَامِعُ لْجَمِيعِ الْعَوَالِمِ وَمَا فِيهَا ظِلُّ الْحَضْرَةِ الْجَامِعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَالَمُ الْأَعْيَانِ ظِلُّ حَضْرَةِ الْغَيْبِ الْمَطْلُوقِ، وَعَالَمُ الْعُقُولِ وَالنَّفُوسِ ظِلُّ حَضْرَةِ الْغَيْبِ الْمُضَافِ الْأَقْرَبِ إِلَى الْمَطْلُوقِ، وَعَالَمُ الْخَيَالِ وَالْمَثَالِ الْمَطْلُوقِ ظِلُّ حَضْرَةِ الْغَيْبِ الْمُضَافِ الْأَقْرَبِ إِلَى الشَّهَادَةِ، وَعَالَمُ الْمَلِكِ ظِلُّ حَضْرَةِ الشَّهَادَةِ الْمَطْلُوقَةِ. أَلَمْ تَرِ إِلَى رَيْكِ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ فِي الْحَضْرَةِ الْأَسْمَانِيَّةِ وَالْأَعْيَانِ الثَّابِتَةِ بِالظِّلِّ الْأَقْدَسِ وَفِي حَضْرَةِ الشَّهَادَةِ، وَعَالَمِ الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْجَبْرُوتِ بِالظِّلِّ الْمُقَدَّسِ". [تَرْجُحُ دَعَاءِ السَّحَرِ].

وَإِنَّمَا كَانَ الْفَيْضُ الْأَقْدَسُ الَّذِي هُوَ نُورُ تَجَلِّيِ الذَّاتِ ظُلَامًا مِنْ جِهَةِ مَقَارِنَتِهِ بِأَصْلِهِ؛ وَكَذَلِكَ الْفَيْضُ الْمُقَدَّسُ. فَكُلُّ الْأَنْوَارِ إِذَا قُورِنَتْ بِمَنْبَعِ الْأَنْوَارِ لَيْسَتْ سِوَى ظِلَالٍ.

"فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَظْهَرَ اِسْمِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَفِي كُلِّ حَالٍ وَشَأْنٍ يَظْهَرُ لَهُ مَحْبُوبُهُ بِاسْمِهِ وَيَتَجَلَّى عَلَيْهِ مَعْشُوقُهُ وَمَطْلُوبُهُ بِتَجَلُّلٍ مِنَ اللَّطْفِ وَالْقَهْرِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ". [تَرْجُحُ دَعَاءِ السَّحَرِ].

"وَأَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِكُونِهِ كَوْنًا جَامِعًا، وَلَهُ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ النَّزُولِيَّةِ وَالصُّعُودِيَّةِ نَشَآتٌ وَظُهُورَاتٌ وَعَوَالِمٌ وَمَقَامَاتٌ، فَلَهُ بِحَسَبِ كُلِّ نَشْأَةٍ وَعَالَمٍ

لسان يناسب مقامه". [شرح دعاء السحر]

"اعلم أيها السالك الطالب أن لله تعالى بمقتضى اسم **كُلُّ يَوْمُ هُوَ فِي شَأْنِهِ** في كلِّ آنٍ شأنًا، ولا يمكن التجلّي بجميع شؤوناته إلا للإنسان الكامل، فإنَّ كلَّ موجود من الموجودات من عوالم العقول المجردة، والملائكة المهيمنة، والصفات صفًا، إلى النفوس الكلية الإلهية، والملائكة المدبرة، والمدبرات أمراء، وسلطان الملكوت العليا، وسائر مراتبها من الملائكة الأرضية مظهر اسم خاص يتجلّى له ربّه بذلك الاسم، ولكلٍّ منها مقام معلوم، "منهم رُكِعَ لا يسجدون، ومنهم سَجَدَ لا يركعون"، لا يمكن لهم تجاوز مقامهم وتخطي محلّهم. ولهذا قال جبرئيل عليه السلام حين سأله النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، عن علّة عدم المصاحبة: "لو دنوت أتملة لاحترقت".

وأما أهل يثرب الإنسانية ومدينة النبوة فلا مقام لهم؛ فلهذا صاروا حاملبي الولاية المطلقة العلوية التي هي كل الشؤون الإلهية؛ وصاروا مستحقّين للخلافة التامة الكبرى؛ وصاروا أصحاب مقام الظلوميّة التي هي كما قيل تجاوز جميع المقامات وكسر أصنام الأنايات والإنيات والجهولية التي هي الفناء عن الفناء، ومرتبة الجهل المطلق والعدم المحض". [شرح دعاء السحر]. وعند العارف قد يكون الوصف السلبي للإنسان بمعنى المدح، لأنّه إشارة إلى قابليته. وما لم يكن الإنسان في أصل وجوده ظلوماً وجهولاً، لا يمكن أن يصبح عادلاً وعليماً.

"ولمّا كان الإنسان مظهر الذات باعتبار مقام الألوهية المستجمعة لجميع الكمالات الظاهرة والباطنة، وكلّ الكمالات مستجّنة في ذات ربّه استجنان الفروع في الأصول والكثرات في العقل الفعّال بنحو البساطة والجمعية، الخالصة عن شوب الكثرة والتركيب، المقدّسة عن وصمة الكثرات والحيثيّات والاعتبارات، كان مربوبه - الذي ظهر عن هذا المقام الجمعيّ -

مستودعاً فيه الجمال والجلال، والظهور والبطون، والأولية والآخرة، بل كل الأشياء بنحو الوحدة والبساطة والاندماج والإجمال، فكان خلقه عين استيداع الكمالات الوجودية من السلسلة النزولية". [التعليق على الفوائد الرضوية].

"إنَّ الإنسان الكامل صورة مجموع العوالم بوحدته الجمعية وبساطته الذاتية؛ كما أنَّ العوالم الوجودية صورة تفصيلية من الإنسان الكامل، فإذا كان الإنسان مظهر الاسم الرحمن الذي هو لبسط حقيقة الوجود وسلسلتي النزول والصعود، كما قيل: ظهر الوجود ببسم الله الرحمن الرحيم، فالرحمة الرحمانية لبسط حقيقة الوجود بشرائره، والرحمة الرحيمية لبسط كمال الوجود؛ فإذا كان مربوب اسم الرحمن الجامع لجميع المراتب والواجد لتمام الحقائق الذاتية والعرضية هو الإنسان الكامل، والإنسان صورة مجموع العوالم، كانت الحقائق المسؤول عنها محققة في الإنسان بنحو البساطة والوحدة، وفي العوالم بنحو البسط والكثرة... فالإنسان الكامل المودع فيه حقائق الأسماء ومقتضياتها من اللطف والقهر، والرحمة والغضب، والهداية والإضلال، والظهور والبطون، متحققة في الحقائق بطريق اللطف والبساطة؛ وحيث كان العالم صورة تفصيلية للإنسان الكامل، ولا بد من ظهور دول الأسماء الإلهية بطريق الوحدة والكثرة، كانت هذه الحقائق المسؤول عنها من الموجودات والمتحققات". [التطبيق على الفوائد الرضوية].

"فإنَّ لهم عليهم السلام مقام إطلاق المشيئة ولسائر الخلق مقام تعيُّناتها، والمقيّدات تنزلات المشيئة المطلقة ومظاهرها، كما ورد من طريقهم عليهم السلام: "خلق الله من نورنا العرش والكرسي والجنة والنار والشمس والقمر"، وورد: "بكم فتح الله وبكم يختم". فمقام الولاية المطلقة داخل فيه كلُّ من شرب من كأس الوجود من عوالم الغيب والشهود شقيّاً وسعيداً، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: "آدم ومن دونه تحت لوائي"، ومن

دخل فيه سلوكاً أيضاً فهو من أهل السعادة؛ فإنها الحصن الحصين الآمن من العذاب، وإن كان سلوكك كلَّ سالك - شقيّاً وسعيداً حقّاً وباطلاً - إلى الولاية المطلقة، ومن باب الولاية إلى الله تعالى: إمّا إلى الرحمن الرحيم، إن كان من المؤمنين وأصحاب السعادة، أو إلى المضلّ والمنتقم، إن كان من الظالمين وأهل الشقاوة، والكلُّ إلى اسم الله الجامع ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. فمقام ولاية الله المطلقة مظهر اسم الله الأعظم مفتاح سلسلة الوجود ومختمها وأولها وآخرها". [التعليقة على الفوائد الرضوية].

"من سلك سبيل الحقّ، وخرج عن الأنانيّة بقول مطلق، وفنى ذاتاً وصفةً وفعلاً وشأناً في الربّ المتعال، وسلّم مملكة وجوده إلى القيوم ذي الجلال، وأتى الله بقلب سليم، ووصل إلى مقام العبوديّة بالطريق المستقيم، وتحقّق بحقيقة "لا موجد سوى الله، ولا هو إلّا هو"، ربّما شملته الرحمة الواسعة الإلهيّة والفيوضات الكاملة الربوبيّة، بإرجاعه إلى مملكته وإبقائه بعد فئانه، فيرجع حين يرجع رابحاً في تجارته غير خاسرٍ في معاملته، فإنّه تعالى أكرم المتعاملين وأجود المتابعين، فأعطاه تعالى في مقابل تسليم روحه الجزئيّة روح الكلّ، وفي مقابل نفسه الجزئيّة نفس الكلّ، وفي مقابل جسمه الجزئيّ جسم الكلّ، فيصير عالم الوجود مملكة وجوده ومقرّ سلطنته ومسند أمارته. [التعليقة

على الفوائد الرضوية].



"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ،
وَجَلَالَ كِبَرِيَّاتِهِ، مَا حَيَّرَ مُقِلَّ الْعُقُولِ مِنْ
عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَّعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ
النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كَمِّ صِفَتِهِ".



الوحدة في عين الكثرة
أو علاقة الذات بما سوى

الوحدة في عين الكثرة أو علاقة الذات بما سوى

لما كانت معرفة الله هي الهدف من الخلق، ينبغي أن نعلم أن هذه المعرفة لا تتم إلا بتوحيده. فالوحدة أو الأحدية صفة مقومة لجميع الصفات الإلهية؛ بمعنى أننا لو عرفنا الله تعالى بجميع أسمائه الحسنی دون توحيده، لا نكون قد عرفنا شيئاً منها في الحقيقة، فهو عز وجلّ العليم القدير، لكننا لو جعلنا لغيره القدرة أو العلم في مقابله فقد جهلنا قدرته وعلمه. والجهل بالله تعالى لا يُعذر؛ نظراً لما أَرانا الله من آيات توحيده، وأتمّ علينا من حجج وحدانيته. نستطيع أن نعبر عن التوحيد بعبارات واضحة وموجزة، فنقول: لو قُدِّر لنا أن نرى كل شيء دفعة واحدة، لسطع نور الذات الإلهية المقدسة في بساطة وصرافة لا تركيب فيها ولا تكثير. ولو بلغنا هذا المقام وأشرَفنا عنده على أي شيء، فلن يحجبنا هذا الشيء عن أعظم تجليات الذات المقدسة. ولو صدرت منا أفعال وحرركات في هذا المحضر، فلن تكون سوى عبادة لله وخضوع له.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "هو تعالى وتقدس مع علوّ شأنه وتقدّسه عن مجانسة مخلوقاته وتنزّهه عن ملابسة التعيّّنات بائن في المظاهر الخلقية، ظاهر في مرآة العباد؛ وهو الأوّل والظاهر والباطن، كذلك الأفعال والحركات والتأثيرات كلّها منه في مظاهر الخلق. فالحقّ فاعلٌ بفعل العبد، وقوّة العبد ظهور قوّة الحقّ. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: 17). فجميع الذوات والصفات والمشيّئات والإرادات والآثار والحركات من شؤون ذاته وصفته، وظلّ مشيئته وإرادته، وبروز نوره وتجليه؛ وكلّ جنوده ودرجات قدرته؛ والحقّ حقّ والخلق خلق، وهو تعالى ظاهر فيها وهي مرتبة ظهوره.

ظهور توبه من است ووجود من از تو

ولست تظهر لولاي لم أكن لولاك

فمن نسب الفعل إلى الخلق وعزل الحقّ عنه، بزعم التنزيه والتقديس، فهو قاصر وظالم لنفسه وحقّه، ومحجوبٌ عن الحقّ، ومطرودٌ عن الرّب؛ تنزيهه وتقديسه تقصيرٌ وتحديدٌ وتقليدٌ فهو داخلٌ في قوله ﴿المغضوب عليهم﴾ عاكفٌ في الكثرات بلا توحيد. ومن نسبه إلى الحقّ مع عدم حفظ الكثرة فهو ضالّ بتجاوزه الاعتدال، وداخل في قوله ﴿الضالين﴾. والصّراط المستقيم والطريق المستبين الخروج عن التّعطيل والتشبيه، وحفظ مقام التوحيد والتكثير، وإعطاء حقّ الحقّ وحقّ العبد". [شرح دعاء السحر]

ولأجل بلوغ هذا التوحيد، اقتضت حكمة الله تعالى أن يتدرّج الإنسان الغافل المحتجب في مراتب التّربية؛ فيتفعل فيه الاستعدادات تلو الاستعدادات وكانت الحكمة والقدرة والمشيّئة أن يتكامل وجوداً بتكامله معرفة. وفي رحلته المعرفيّة هذه، فإن أفضل مؤشر على التكامل الواقعي هو التكامل في إدراك التّوحيد. ويتكامل معرفته التّوحيدية واشتدادها، سوف يفسّر الأشياء من حوله وفق هذا التوحيد.

فأول مرتبة من التوحيد أن يلتفت إلى أنه شخص واحد؛ ثم يعلم أنه ينتمي إلى مجتمع واحد أو أمة واحدة؛ ثم يكتشف أنه يعيش في عالم واحد. وإنما يكتشف الوحدة في أي شيء، إذا أدرك الارتباط المحكم بين الأعضاء أو الأجزاء الظاهرة لذلك الكيان.

وعندما ينسجم العالم الطبيعي في نظره ويراه كياناً مترابطاً لا تفاوت فيه، فإنه يدرك أن له خالقاً ومديراً واحداً؛ وسوف يعلم من صفات هذا الخالق الواحد بمقدار ما سيدركه من هذا العالم الطبيعي وخصائصه. فانتظام العالم المادي - الذي يشار إليه بأنه أول معلوم مرتبة وإدراكاً - هو الذي يهيئ الإنسان لإدراك أول تجليات التوحيد، كالتوحيد في الخالقية أو التدبير.

ويبقى أمام من يسلك الطريق التكاملي بقدم المعرفة عوالم أعلى هي السموات السبع التي سيتجلى فيها توحيد الخصائص والصفات الإلهية بصورة أشد وأقوى.

ولهذا كان التحدي المعرفي الكبير الذي يواجه الإنسان (وهو في هذه الدنيا وخصوصاً في زماننا هذا زمن التجزيء والتفكيك)، في مدى قدرته على جمع الأجزاء الكثيرة التي تنسجم في خصائصها، وفي اكتشاف الترابط المحكم الذي يجمعها ويوحد بينها، فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأساسية نحو إدراك فقرها واحتياجها (كمجموعة واحدة) إلى الغني المطلق. ومثل هذه الخطوة هي التي تخرج الإنسان من حجاب الكثرة.

يقول الامام الخميني رحمته الله: "فنفهم القلب أنه لا كمال ولا كامل في جميع دار التحقق سوى الذات المقدسة الكاملة على الإطلاق فإن تلك الذات المقدسة كمال بلا نقص، وجمال بلا عيب، وفعلية بلا شوب القوة، وخير بلا اختلاط بالشر، ونور بلا شوب ظلمة. وكل ما في دار التحقق من

الكمال والجمال والخير والعزة والعظمة والتورانية والفعلية والسعادة فهو من نور جمال تلك الذات المقدسة، وليس لأحد شراكة مع الذات المقدسة في كمالها الذاتي، وليس لموجود جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء إلا بجمال تلك الذات المقدسة وكمالها ونورها وبهائها". [معراج السالكين].

فما دام الإنسان قاصر النظر على أجزاء الشيء الواحد في كثرتها المتفرقة، فهو ما عرف حقيقتها. كما إذا افترضنا أن إنساناً لم يشاهد في حياته اليد أو الرجل متصلةً بالجسد، فيستحيل عليه أن يعرف أن هذه يد أو رجل. وذلك لأن اليد أو الرجلية في اليد والرجل منوطة بوجودها ضمن جسد واحد. ونحن بعد معرفتنا بكمال الجسد، عرفنا اليد فيما إذا شاهدناها لوحدها.

وهكذا حقيقة الصفات والأسماء الإلهية، لا تُعرف إلا في وجودها الجمعي المعبر عنه بمقام الواحدية أو الاسم الأعظم. "وكما أنه في معرفة شؤون الربوبية جلّت عظمتها، عُرِف الحق سبحانه في العلو الأعلى والدنو الأدنى بمقام الجامعة، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. و﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخره، "ولو دَلِّيمُ بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِينَ السُّفْلَى لَهَبِطْتُمْ عَلَى اللَّهِ"، ﴿فَأَيْنَمَا تُؤْلُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. إلى غير ذلك مما قاله ويحصل به للمعارف بالمعارف الإلهية والمجذوب بالجذبات الرحمانية طرب ملكوتي ووجد لا هوتي. كذلك فقد أُسْرِى التوحيد العملي القلبي إلى آخر مراتب أفق الطبيعة وملك البدن، ولم يحرم موجوداً من حظ معرفة الله". [معراج السالكين].

وهذا التجلي الأعظم له حضرة تعكس ماهيته بكل أبعادها وعالم يظهر تجلياته في أتم معانيها ومراتبها؛ وما لم نر تجلياته المتكررة إلى ما شاء الله متحدة مترابطة فنحن نجعله؛ وبجهلنا إياه نجعل الصفات والأسماء التي هي

تجلياته الحسنی، وبجهلنا للأسماء نكون قد جهلنا الله، حيث لا عذر لنا معه. إنَّ هدف العارف أن يفتح أعيننا على عوالم التَّوْحِيد. ولأجل ذلك يدلُّنا على طريقين متكاملين الأوَّل: طريق العوالم والمراتب الوجودية التي تنسجم مع خلقتنا، وهي العوالم الأنفسية. والثاني: طريق العوالم الآفاقية، التي نراها خارج أنفسنا، والتي ستبدولنا في رحلة التوحيد الشاملة سبعة عوالم كلية. "فبنظر الكثرة ورؤية التعيّنات والموجودات المتكثّرة ومراتب الوجود وتعيّنات العالم تكون الأسماء مختلفة، فرحمانية ورحيمية وقهرية ولطيفة. وبنظر اضمحلال الكثرات وانحاء الأنوار الوجودية في النور الأزلي للفيض المقدّس، فليس لغير الفيض المقدّس والاسم الجامع الإلهي خبرٌ ولا أثر، وهذان النظران موجودان في الأسماء والصفات الإلهية أيضاً. فبالنظر الأوَّل تكون حضرة الواحديّة مقام كثرة الأسماء والصفات وجميع الكثرات من تلك الحضرة، وبالنظر الثاني ليس سوى حضرة الاسم الله الأعظم من اسم أو رسم وهذان النظران حكيمان ويقدم الفكر. وأمّا إذا كان النظر نظراً عرفانياً بفتح أبواب القلب ويقدم السلوك والرياضات القلبية يتجلّى الحقّ تعالى بالتجليات الفعلية والاسمية والذاتية في قلوب أصحابها تارة بنعت الكثرة وطوراً بنعت الوحدة". [معراج السالكين].

ومثلما أن معرفة الإنسان بنفسه تبدأ من معرفته بأفعاله وإدراكه أنها نابعة من مصدر آخر هو الصفات، وأن هذه الصفات ليست سوى تجلٍ لأصل واحد هو الذات، كذلك فإنَّ معرفته بربه تتدرج من التوحيد الأعلى إلى التوحيد الصفاتي، ثم إلى التوحيد الذاتي، وهو عين التوحيد الحقّ كما أشرنا. وهذه المعرفة الأنفسية التي تحصل في السلوك العلمي والعملية هي التي تؤهل السالك لمشاهدة مراتب التوحيد؛ بل هي بنحو آخر عين ذلك الشهود لقوله من عرف نفسه فقد عرف ربه.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "إذا رأى السَّالِكُ نفسه حاضراً في محضر الحقِّ المقدَّسِ جلَّ وعلا، بل وجد باطنه وظاهره وسره وعلمه عين الحضور، كما رُوي في الكافي والتوحيد أنَّ الصادق عليه السلام قال: "إنَّ روح المؤمن لأشدَّ اتِّصالاً بروح الله من اتِّصال شعاع الشَّمسِ بها"، بل ثبت بالبرهان القويَّ المتين في العلوم العالية أنَّ جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى منازل الشُّهود هي عين التعلُّق والرِّبط، ومحض التدلِّي والفقر، إلى القيوم المطلق جلَّتْ عظمته". [معراج السالكين].

"فيمكن أن نحصل للسَّالِك في هذا المقام حالة التوحيد الذاتيَّ وينصرف عن كثرة الأسماء والصفات أيضاً، وتكون وجهة القلب حضرة الذَّات بلا حجب الكثرات. وهذا هو كمال التَّوحيد الذي يقوله إمام الموحِّدين ومقدِّم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين: "وكمال التوحيد نفى الصفات عنه" لأنَّ للصفة وجهة الغيرية والكثرة. وهذا التوجُّه إلى الكثرة الأسمائية بعيد عن سرائر التوحيد وحقائق التجريد، ولهذا فلعلَّ سرَّ خطيئة آدم عليه السلام كان التوجُّه إلى الكثرة الأسمائية التي هي روح الشجرة المنهية". [معراج السالكين].

وقد يسلك الإنسان العوالم الآفاقية، وفي كلِّ عالم ما شاء الله من الموجودات، فيتعرف - بعد إدراك الرِّابطة الوجودية الواحدة بين موجودات هذا العالم - على خصائص وحدانية خالق هذا العالم. والعوالم الكلية، كما أشرنا، سبعة هي السَّمَاوَات السَّبع. ويجدر الإشارة إلى أن الأرض بعد أن تشرق بنور ربِّها وتسلك طريق التبدُّل تصبح عالماً تنعكس فيه أنوار الرب المتعال وتتحد مع السماء الأولى. وعندها تترقى في المرتبة الوجودية وتزداد قوة وعظمة في إظهار توحيد الحق المتعال.

وهذان الطريقان (طريق الأنفس وطريق الآفاق) متضافران، تتكامل إمكاناتهما وتتسع في رحلة الإنسان المعرفية. ومع كل عبور ناجح لعالم وجودي، تزداد قوة الإدراك في الإنسان، وتفتح حواسه الباطنة وقنوات معرفته واتصاله ليصبح مؤهلاً لعبور العالم اللاحق، فعينه التي كان يرى بها من العوالم السبعة عالماً واحداً هو عالم المادة المتصرمة، ستزداد قوة وبصيرة فيرى من تلك العوالم عالماً ذا خصائص إضافية، وهكذا. وكذلك لنرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. وبعبارة أخرى، إن هذه الأرض سيراها طوراً بعد آخر بحسب قوة نظره؛ فيرى فيها مع كل طور المزيد من الخصائص التوحيدية ومراتبها، وهي التي ما كان ليراها قبل قوة النظر وحدته. حتى إذا صار البصر حديداً شهد حقيقته التي هي المالكية العظمى وقامت قيامته: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. فهذه هي حقيقة القيامة الكبرى التي تنعدم فيها كل الأوهام من أمام الأبصار فلا ترى سوى الله.

"فكلما خلس الوجود من شوب الأعدام والفقدانات واختلاط الجهل والظلمات يصير بمقدار خلوصه بهتاً حسناً. فعالم المثال أبهى من ظلمات الطبيعة، وعالم الروحانيات والمقربين من المجردات أبهى منهما، والعالم الربوبي أبهى من الكل، لخلوصه من شوب النقص، وتقديسه عن اختلاط الأعدام، وتنزهه عن الماهية ولواحقها، بل لا بهاء إلا منه، ولا حُسن ولا ضياء إلا لديه، وهو كل البهاء وكله البهاء.

قال السيد المحقق الداماد قدس سره في القبسات على ما نقل: "وهو تعالى كل الوجود وكله الوجود، وكل البهاء والكمال وهو كله البهاء والكمال، وما سواه على الإطلاق لمعات نوره ورشحات وجوده وظلال ذاته". انتهى.

فهو تعالى بهاء بلا شوب الظلمة، وكمال بلا غبار النقيصة، وسناء بلا اختلاط الكدورة، لكونه وجوداً بلا عدم وأنيّة بلا مهية. والعالم باعتبار كونه علامة له ومنتسباً إليه وظله المنبسط على الهياكل الظلمانية والرحمة الواسعة على الأرض الهولائية، بهاء ونور وإشراق وظهور، ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: 84)، وظلّ النور نور ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان: 45) وباعتبار نفسه هلاك وظلمة ووحشة ونفرة، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (النجم: 88). فالوجه الباقي بعد استهلاك التعينات وفناء الماهيات، هو جهة الوجوب المتدلّية إليه التي لم تكن مستقلة بالتقوم والتحقّق ولا حكم لها بحيالها، فهي بهذا النظر هو. ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: "لو دُلّيتُم إلى الأرض السفلى لهبطتم على الله". فهو هو المطلق والبهاء التام لا هوية ولا بهاء لغيره والعالم بجهته السوائية لم يكن له البهاء والهوية ولا الوجود والحقيقة، فهو خيالٌ في خيال والكلّيّ الطبيعي غير موجود فإذا لم يكن موجوداً فكيف يكون له البهاء والنور والشرف والظهور، بل هو التّقصان والقصور والهلاك والدثور". [شرح دعاء المحرّ].

ومن تحقّق بهذا البصر في الحياة الدّنيا فهو الذي انعتق من الموت أو يكاد فلا يحتاج إلى هذا العبور القهريّ الجلالِيّ لإدراك الحقيقة التي هي غاية الغايات.

لو أدرك الإنسان وحدة أفعاله (عرف نفسه)، فإنّه سيدرك الوحدة في فاعليّة كل من يشبهه (عرف غيره بنفسه، لأن الكل فقير وعين الفقر)، وعندها سيرى جميع الأفعال نابعة من فاعلٍ واحد هو الله (عرف ربّه). "إنّ جميع الاعمال من الهبات الإلهيّة والنّعم التي أجراها الحقّ تعالى على يد العبد، فإذا استقرّ التوحيد الفعليّ في قلب السّالك، فلن يرى العمل من نفسه ولا يطلب الثّواب؛ بل يرى الثّواب تفضّلاً والنّعم

ابتداءً". [معراج السالكين].

"إِنَّ مِنْ مَهَمَّاتِ السُّلُوكِ وَأَرْكَانِ الْعُرُوجِ: التَّوَجُّهُ التَّامُّ إِلَى تَوْحِيدِ الْحَقِّ الْفَعْلِيِّ وَتَذَكِيرِ الْقَلْبِ بِهَذِهِ اللَّطِيفَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَائِدَةِ السَّمَاوِيَّةِ، وَإِذَاقَةِ الْقَلْبِ حَقِيقَةَ مَالِكِيَّةِ الْحَقِّ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ وَالْمَلَكِ وَالْمَلَائِكَةِ؛ حَتَّى يَرْتَضِيَ الْقَلْبُ بِالتَّوْحِيدِ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَنَفْيِ الشَّرِّكَ فِي التَّصَرُّفِ وَيَخْمُرُ بِالتَّخْمِيرِ الْإِلَهِيِّ وَيُرَبِّي بِالتَّرْبِيَةِ التَّوْحِيدِيَّةِ". [معراج السالكين].

"إِنَّ السُّلْطَنَةَ الْإِبْجَادِيَّةَ وَالْإِسْتِقْلَالَ فِي التَّأْثِيرِ بِلِأَصْلِ التَّأْثِيرِ مَنْحَصِرٌ بِالذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ وَلَيْسَ لِسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ فِيهَا شَرَكَةٌ". [معراج السالكين].

"وَبِالْجُمْلَةِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ مِنْ مَتَفَرِّعَاتِ الْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوْحِيدِ الْحَقِيقِيِّ، وَمَنْ لَمْ تَتَجَلَّ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَطْهَرْ قَلْبُهُ مِنْ مَطْلُوقِ الشَّرِّكَ فَقَوْلُهُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْ حَصْرِ الْعِبَادَةِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِالْحَقِّ وَلَا يَكُونُ شَاهِدًا لِلَّهِ وَطَالِبًا لِلَّهِ، وَإِذَا تَجَلَّى التَّوْحِيدُ فِي الْقَلْبِ فَإِنَّهُ يَنْصَرِفُ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ وَيَتَعَلَّقُ بِعِزِّ قُدْسِ الْحَقِّ بِمَقْدَارِ تَجَلِّيهِ إِلَى أَنْ يَشَاهِدَ أَنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ يَقَعُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وَتَتَجَلَّى لِقَلْبِهِ بَعْضُ حَقَائِقِ "أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ". [معراج السالكين].

"فَفِي هَذَا التَّوْحِيدِ الْفَعْلِيِّ أَيْضًا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ صَدَقَ اللِّسَانُ مَوْصُولًا بِصِفَاءِ سِرِّ الْقَلْبِ لِأَنَّ الْحَقَّ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْخَالِقُ وَلَا مُؤَثَّرٌ غَيْرُهُ وَجَمِيعِ الْإِرَادَاتِ وَالْمَشِئَنَاتِ ظَلَّ إِرَادَتُهُ وَمَشِئَتُهُ الْأَزَلِيَّةُ السَّابِقَةُ". [معراج السالكين].

"وَلْيُعْلَمَ أَنَّ نَاصِيَةَ الْعِبَادِ يَدُ الْحَقِّ تَعَالَى وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّنَفُّسِ وَالنَّظَرِ إِلَّا بِقُدْرَةِ الْحَقِّ تَعَالَى وَمَشِئَتِهِ وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي مَمْلَكَةِ الْحَقِّ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ وَإِنْ كَانَ تَصَرُّفًا تَافَهًُا إِلَّا بِإِذْنِ وَإِرَادَةِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»". [معراج السالكين].

فهذه هي المرتبة الأولى من التوحيد وهي التوحيد الفعلي أو الأفغالي الذي يعني أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى.. ولو أدرك هذا الإنسان بعدها وحدة صفاته وكيف أنها ترجع جميعاً إلى أصل واحد، فإنه سيتمكن من رؤية جميع الكمالات في هذا الوجود نابعة من أصل واحد أيضاً، وعندها سيدرك أنها قائمة بالله. "إِنَّ الْعَبْدَ السَّالِكَ إِلَى اللَّهِ إِذَا حَصَرَ الْمُحَمَّدَةَ فِي رُكْنِ التَّحْمِيدِ بِالْحَقِّ تَعَالَى وَسَلَبِ الْكَمَالِ وَالتَّحْمِيدِ عَنِ الْكَثْرَاتِ الْوُجُودِيَّةِ يَقْرُبُ مِنْ أَفْقِ الْوَحْدَةِ وَتَعْمَى بِالتَّدرِجِ عَيْنَهُ النَّظَرَةَ إِلَى الْكَثْرَةِ وَتَتَجَلَّى عَلَى قَلْبِهِ الصُّورَةُ الرَّحْمَانِيَّةُ الَّتِي هِيَ بَسْطُ الْوُجُودِ وَالصُّورَةُ الرَّحِيمِيَّةُ الَّتِي هِيَ بَسْطُ كَمَالِ الْوُجُودِ وَيَصِفُ الْحَقُّ بِالْأَسْمِينَ الْمُحِيطِينَ الْجَامِعِينَ الْمُضْمَحَلَّةَ فِيهِمَا الْكَثْرَاتِ فَيَحْصِلُ لِلْقَلْبِ بِوَاسِطَةِ التَّجَلِّي الْكَمَالِي الْهَيْبَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ الْجَمَالِ فَتَسْتَقَرُّ عَظْمَةُ الْحَقِّ فِي قَلْبِهِ". [معراج السالكين].

وهذا هو التوحيد الصفاتي الذي يعني إرجاع كل الكمالات والخيرات والمحامد والمدائح إلى أصل واحد وذات فارد؛ وهو أصل الوجود ومنبعه؛ لأن الوجود منبع كل شرف.

وإذا أدرك معنى وجوده الواحد، سيدرك أنَّ كل ما حوله ليس له سوى وجود واحد، وكأنه ينبع أو يقوم في وجوده من مصدر واحد وهو الله. فلا يبقى من كثرة وجودية بل هو وجود واحد له كل هذه المظاهر. يقول الإمام الخميني رحمته الله: "إِنَّ التَّوْحِيدَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِتِّقَالِ مِنَ الْكَثْرَةِ إِلَى الْوَحْدَةِ وَجَعَلَ جِهَاتِ الْكَثْرَةِ مُسْتَهْلَكَةً وَمُضْمَحَلَّةً فِي عَيْنِ الْجَمْعِ". [معراج السالكين].

إنَّ شهود الكثرة دليل على بقاء العمى عن الوحدة والحقيقة. سواء كانت هذه الكثرة في الأفعال أو صفات الكائنات أو في الإنبيات والوجودات. فما لم نرجع هذه الكثرات إلى أصل واحد فنراها تشعبات ذات واحدة، فإننا ما زلنا بعيدين عن إدراك الحقيقة. "فَاعْلَمْ أَيُّهَا الْفَقِيرُ أَنَّ الْعَالَمَ بِوُجْهِهِ

السَّوَابِيَّة زائل ودائر وفان وباطل؛ ليس لأحد من الموجودات من قبل نفسه شيء، وليس في ذاته جمال ولا بهاء ولا نور وسناء، والجمال والبهاء منحصر بالذات المقدسة. فتلك الذات المقدسة كما أنها متفردة في الألوهية ووجوب الوجود، فهي أيضاً متفردة بالجمال والبهاء والكمال؛ بل متفردة بالوجود. وإنَّ ذلَّ العدم الذاتي والبطلان منقوش على ناصية ما سواه فاصرف قلبك الذي هو مركز لنور فطرة الله عن الجهات المشتتة للأباطيل والأعدام والتواقص، ووجهه إلى مركز الجمال والكمال وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصافي.. ما يقوله العارف الشيرازي:

لا تسع قلوبنا أحداً غير الحبيب

فدع الكونين للعدو فإنَّ الحبيب يكفيني". [معراج السالكين]. وبالرغم من سهولة المطلب علمياً، فإنَّ التحقق به ومعايشته في النفس والقلب والعمل أمرٌ في غاية الصعوبة. أجل، إنَّ الواصلين ممَّن سبقت لهم منه الحسنَى يتعجبون كيف لا يرى النَّاس هذه الوحدانية ويقولون عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً. "فنحن واقعون في التكثير وليس عندنا خبرٌ من التوحيد الذي هو قرّة عين أهل الله، ندقَّ طبلَ لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله، ومع ذلك نمدَّ عين الطمع ويد الطلب إلى من هو أهل وغير أهل". [معراج السالكين]. ولو تأملنا في هذه المشكلة لوجدنا أنَّ مركزها وأصلها يقع في ساحة القوى الإدراكية للإنسان. ولهذا، دارت جميع المعارك حولها. ولو فرضنا أنَّ العوائق أو المشاكل الأخرى لم تنته إلى هذا المركز، فمن الممكن أن يجبر الإنسان هذا الضرر ويحل هذه المشاكل.

إنَّ القوى الإدراكية للإنسان، تكون في بداية الأمر، في منتهى الضعف؛ ولأجل ذلك جعل الله بقية الكائنات التي تحيط به تهبَّ لنجدة. وبهذه العناية من المفترض أن تتفعل تلك القوى، وتخرج من الضعف وتسلك

طريقها المحمود في التكامل. هذا هو المتوقع في الحياة الطيبة التي أرادها الله للبشر على هذه الأرض؛ ولكن إذا قام النَّاسُ بتخريب تلك القوى وتعطيلها من خلال التربية الفاسدة، فسوف تنحرف عن مسارها الذي تحدَّثنا عنه آنفاً، ويفقد فرصة تفتِّح حواسه الباطنية. إن البيئة الأولية للإنسان كانت بكلِّ أبعادها وتفصيلها جاهزة ومناسبة لتكامل القوى الإدراكية التي يتمكَّن بواسطتها من عبور مراتب شهود الحقيقة، ليصل إلى حقيقة الحقائق؛ لكنَّ النَّاسَ وبتابعهم لخطوات الشيطان خرَّبوا هذه البيئة وأفسدوها بعد أن كانت أفضل حاضن لتربية الإنسان. وبسبب ذلك بقيت العوالم الوجودية الأخرى تنتظر من يسلك طريقها وهو طرق السموات. ولكن، ما الحل؟ والنَّاسُ قد عطلوا الكثير من مقومات العالم الأوَّل الذي كان يُفترض أن يكون منصَّة عروج إلى العوالم الأخرى.

ولهذا، صار لزاماً على كلِّ من يريد طيَّ طريق المعرفة أن يسعى لإصلاح البيئة الاجتماعية (لأنها السبب في التخريب الذي يحصل للأرض منصَّة العروج) أولاً من أجل أن ينتقل لإصلاح البيئة الكونية ثانياً. فإذا سعى جهده من أجل أن يهاجر إلى الله ورسوله، ولم يتمكن من الإصلاح في حياته، فسوف يقع أجره على الله، فيأخذ بيده عبر عوالم الوجود الأخرى؛ قال تعالى: ﴿وَالشَّهْدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. وهناك سيستوفي حظه من المعرفة ويتكامل في رحلة يسرها له ربه، لأنه أراد أن لا يُعصى في الأرض أبداً. وفي الروايات والنصوص الدينية إشارات إلى حدوث تحوُّل نوعي في أذهان الذين يسلكون طريق "اتباع مصلح الأرض ومخلص البشرية". قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إنَّ تخريب المجتمع الإنساني يؤدي إلى إيجاد بيئة تتفاقم فيها الشبهات

وتكثر المغالطات وتهيمن عليها التفسيرات الخاطئة للأحداث والتحرّكات. فلو نظرنا اليوم إلى الإعلام الذي يهيمن على مسرح تفسير الأحداث الاجتماعية لوجدناه بمعظمه واقعاً بأيدي الطواغيت أو متأثراً ومنفعلاً بهم. هذا الإعلام الذي يقوم يومياً بتجزئة الوقائع - إن لم نقل أنه يخلق الوقائع - فيردّ كل واقعة جزئية إلى سبب قريب دون أن يرجعها إلى سببها الأول، ويفكك الرابط بينها، وعندها سيختفي المشهد العام لحركة البشرية بقيادة الأولياء المصلحون. وليس هذا إلا أحد مظاهر التّكثير الذي ينبع من بحر الجهل الأجاج. وإنّ أشدّ ما يخافه إبليس اللعين وأولياؤه المشركون أن يتمكن الناس من اكتشاف الروابط بين أحداث الحياة الكبرى؛ لأنّ ذلك سيرجعها إلى أصل واحد، وهناك سنشهد عظمة التدبير الإلهي لكل مجريات الحياة ووقائعها.

هذا الإعلام الأعمى بقدم لنا إسرائيل في يومياتها، فإذ بنا نراها قوّة متسلّطة ممسكة بزمام الأمور تفعل ما تشاء. ولو انطلق الإعلام من رؤية كونية توحيدية، وقام بوضع كل تحولات هذا الكيان في سياق زمنيّ تاريخي، لظهرت إسرائيل وهي تسير منذ تأسيسها نحو مصير مشؤوم؛ ولظهر معها مدى خواء الاستكبار الذي صنعها ومستوى حماقتها.

وها هو تخريب البيئة الاجتماعية بتسليط الظالمين يؤدي إلى تخريب الأرض ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾؛ فالظلم يؤدي إلى الفقر؛ والفقراء والمعوزون سيضطرون إلى تسخير الأرض بطريقة تخريبية؛ قال أمير المؤمنين (عليه السلام): "وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها". إنّهج البلاغة. ويتصاعد التخريب إلى السماء الدنيا، ويغلب على الناس حال العبث واليأس، وتنتشر بينهم نزعة الصدفة واللغو. فكيف يتوقع، والحال هذه، أن لا تقدم الحركة العلمية والتوجهات الفكرية هذا الكون الذي نحن

فيه إلا كحصىلة انفجار كبير قد نتج عن تراكم ذرات صغيرة!

ومن الطبيعي عندئذ أن تنحسر الحواس وتتوقع في دائرة واحدة لا تتعدى هذا العالم المادي البعيد عن النظام المحكم، فينسد باب المعارف التوحيدية، ويصبح عبوره صعباً وعسيراً. لقد كان من المفترض أن يكون العالم المادي مرآة ومنظراً جيداً للإطلاع والنظر إلى العالم الأعلى؛ فانظر ماذا فعل الناس به.. وقد نجم عن كل هذه العبثية مساع كثيرة لإدراك الحقيقة المخفية، فظهرت المذاهب وتعددت الفلسفات، وصار كل حزب من الناس بما لديهم فرحين بما يقدمونه من تفسير للحياة والوجود والمصير. ولما ازدحم الجواب خفي الصواب. وإنما لجأ العلماء إلى الطريق الفكري المتعرج بعد أن تم إقصاء المعلمين الواقعيين عن حكومة المجتمع وقيادته، وهم الأدلاء على الله والدعاة إلى الحقيقة.. وهذه هي العقوبة الإلهية الكبرى لأهل الأرض بتركهم سبيل الأنبياء.. وهي أول جزاء على إغراضهم عن السبيل السهل الميسر.

وقد رأى العديد من المؤمنين بالأنبياء ضرورة القيام بتصحيح تلك التفسيرات الخاطئة أو الرد عليها؛ وبعضهم لم يلتفت إلى أنهم وقعوا في فخ النهج الخاطئ الذي سلكه خصوم الأنبياء. فخرجت الحقائق من بين أيديهم صعبة المنال؛ وابتلي الناس بسبب ذلك بالنفور منها بسبب العجز عن إدراكها.

هذا، وأنت تسمع وتقرأ للطيبين أن طريق الحقيقة واضح ميسر، وهي ليست بعيدة عن العقل والإدراك. وإن الوصول إليها لا يحتاج إلى أكثر من طهارة الباطن وصفاء القلب. وإن العقل المتحرر من قيود الأوهام وأسر الأهواء قادر على سبر أغوار العوالم كلها.

ولا شك بأن جانباً مهماً من أسباب إغراض الناس عن حقائق المعارف

يرجع إلى انشغالهم عنها بهذا العرض الأدنى وتوجه قلوبهم إلى الدنيا الدنية التي زينها لهم عمال إبليس. لكن هذا لا يعفي أهل العلم من مسؤولية تحرير المعارف التوحيدية من تلك التعقيدات، لأن بدء التغيير يكون من العلم وبالعلم. وإن من يتأمل في مسيرة الإمام الخميني رحمته الإصلاحية يقطع بأن هذا القائد لو لم يكن من أهل العلم والتعليم - وخصوصاً المعارف الإلهية - لما حقق ما حققه على مستوى الإصلاح الاجتماعي.

إن بداية إصلاح البيئة الاجتماعية من أجل تفعيل القوى الإدراكية يكون بضخ المعارف التوحيدية بما يتناسب مع حجم الضلال الحاصل والإضلال المستعمل ومستواه وطرقه. وما لم ننتصر في هذه المعركة، فلن نتقدم على صعيد إصلاح المجتمع واستنقاذه.

لقد ثبت لنا من خلال التجربة التعليمية المديدة أن العنصر المحوري في فهم المطالب العرفانية وحل مشكلات التعقيد في العبارة أو الجهل بالمصطلح وكثرته هو في مدى إقبال الطالب. فلو استطعنا أن نحقق بيئة مناسبة يتوجه فيها الناس إلى هذه المعارف ويقبلون عليها، فإن معظم المشكلات والعوائق ستزول تلقائياً.

هذا، ويمثل الحركة العلمية المبنية على العقل والاستدلال المنطقي السلاح الوحيد بأيدي أهل العلم ممن لا سلطة لهم ولا بسط يد، في غمرة هذا الضياع وفي أجواء خفاء النهج. فوارثو نهج الأنبياء يصرون على استخدام العقل عسى أن يشقوا طريقاً في هذه الأرض الوعرة. ولهذا، تراهم يعرضون التوحيد ويستدلون عليه بطرق شتى لعل ذلك يحدث في النفوس الغافلة ذكراً، فتستيقظ من سباتها وتوجه إلى الحق الواضح الساطع أشد من سطوع الشمس في رابعة النهار.

وهكذا نرى العارف يسعى متسلحاً بالمنطق، لحل إشكالية العلاقة بين

الوحدة والكثرة. فيبدأ عمله من حيث وصل في شهوده، ويحلل مفهوم الوجود والالوهية بعد ثبوتها ليثبت منهما وحدانية الذات، فيقول: "واعلم أن الوجود كلما كان أبسط وإلى الوحدة أقرب كان اشتماله على الكثرات أكثر وحيطته على المتضادات أتم والمتفرقات في عالم الزمان مجتمعات في عالم الدهر والمتضادات في وعاء الخارج متلائمات في وعاء الذهن والمختلفات في النشأة الأولى متفقات في النشأة الآخرة كل ذلك لأوسعية الأوعية وقربها من عالم الوحدة والبساطة". (شرح دعاء السحر)

إن إدراك معنى التوحيد أمرٌ عسير على من قيد إدراكاته بالمحسوسات، واقتصر في النظر على الماديات. فما لم تدركه العناية الإلهية والرحمة الرحيمية، وتحرره من جلباب بشريته، فلن يكون له نصيب من معرفته. كيف لمن اعتاد على تصوّر الأشياء في قوالب الزمان والمكان أن يعرف خالق الزمان والمكان؟! وأنتى له الجمع بين المحدود والمطلق. فإن إدراك المطلق يكون بعد نفي المحدود عند المحجوبين، والمطلق ما به تُعرف الأشياء عند الواصلين. ألا ترى أن أكثر الذين سلكوا طريق الإيمان في بداياته كيف حجبهم الشرك عن بلوغ نهاياته: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. فما لم يطهروا النفس بالإخلاص، لن يحصل لهم من الشرك خلاص: ﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وللأسف، فإن أكثر الناس بسبب عجزهم عن الجمع ما بين معرفة الأشياء ومعرفة الله، ولما رأوا أن معرفة التوحيد الخالص ستنتفي وجود الأشياء، اختاروا الارتكاز على يقينهم بأصل الأشياء ليفسروا أو يعرفوا به معنى وجود الإله الواحد. وكانت النتيجة غلبة الشرك، وهو إبقاء وجود الأشياء إلى جانب وجود الله تعالى! وفي مقابل هذه الفئة الكثيرة، طائفة غلب عليها التوحيد، وسيطر عليها معنى الألوهية دون أن تتمكن من فهم

معنى وجود الأشياء، فانقطعت عن عوالم المعرفة وقضاءات الشهود. يقول الإمام الخميني رحمته الله:

"وليعلم أنه من المقرّر والثابت في العلوم العالية أنّ جميع دار التحقّق ومراتب الوجود صورة الفيض المقدّس الذي هو التجلّي الإشرافيّ للحقّ تعالى، وكما أنّ الإضافة الإشرافيّة هي محض الرّبط وصرف الفقر؛ كذلك تعيّناتها وصورها أيضاً محض الرّبط، وليست لها من أنفسها حيثيّة واستقلال. وبعبارة أخرى إنّ جميع دار التحقّق فانية في الحقّ ذاتاً وصفةً وفعلًا؛ لأنه لو استقلّ موجود من الموجودات في شأن من الشؤون الذاتية سواء أكان في الهويّة الوجوديّة أم في شؤونها لخرج عن حدود بقعة الإمكان وتبدّل إلى الوجوب الذاتي؛ وهذا واضح البطلان. فإذا رسخت هذه اللطيفة الإلهيّة في القلب وذاقها الفؤاد كما ينبغي؛ فيُكشف له سرّ من أسرار القدر وتنكشف له لطيفة من حقيقة الأمر بين الأمرين. فيمكن إذاً نسبة الآثار والأفعال الكمالية إلى الحقّ بنفس النسبة التي لها إلى الخلق، من دون أن تكون مجازاً في أية جهة. وهذا يتحقّق في نظر الوحدة في الكثرة والجمع بين الأمرين. نعم، من كان واقعاً في الكثرة المحضة ومحبوباً عن الوحدة؛ ينسب الفعل إلى الخلق ويفعل عن الحقّ، كحالنا نحن المحجوبين. ومن تجلّت في قلبه الوحدة فيُحجب عن الخلق وينسب جميع الأفعال إلى الحقّ. والعارف المحقّق يجمع بين الوحدة والكثرة؛ وفي الوقت الذي ينسب الفعل إلى الحقّ من دون شائبة مجاز، ينسبه إلى الخلق بلا شائبة مجاز، والآية الشريفة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، التي نفت الرّمي في عين إثباته وأثبتته في عين نفيه، تشير إلى هذا المشرب العرفانيّ الأحمليّ والمسلك الإيمانيّ الدقيق؛ وإنّما قلنا الأفعال والآثار الكمالية لنخرج النقائص، لأنّ النقائص ترجع إلى الأعدام وهي من تعيّنات الوجود، ولا تُنسب إلى الحقّ إلّا بالعرض." [معراج السالكين].

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنَصَّبَةٍ، خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ... أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا".

نهج البلاغة

ثمار التوحيد وآثاره

"إن الإيمان بأن المتصرف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هو الحق تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرف إلا التصرف الإذني الظلي يؤدي إلى الكثير من الكمالات النفسانية والأخلاق الإنسانية الفاضلة، مثل التوكل والاعتماد على الحق وقطع الطمع بالمخلوق الذي هو أم الكمالات، ويوجب كثيراً من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة وترك الكثير من القبائح". [معراج السالكين].

لعل البدء من بعض الأسئلة البسيطة قد يعيننا على معرفة أهمية التوحيد وموقعيته في الحياة؛ فقد نسأل: ما المشكلة في أن يشرك الناس بالله وما الذي يضر لو جهلوه؟ أو إذا لم يعتد المشركون أو يظلموا فلماذا يستحقون كل هذا العذاب والعقاب؟ ولماذا شدد سبحانه التكبير على الشرك فجعله ذنباً لا يُغتفر؟

وإذا كان مجرد الاعتقاد بوجود مبادئ أخرى في الخلق أو التأثير لن يحرك الإنسان باتجاه الفساد، فلماذا يعاقب عليه بالخلود في جهنم؟ لعل أكثر الناس يجدون في هذا الوعيد الإلهي مبالغة، ولذلك لا

يعملون بالقدر الكافي على التخلص من الشرك في نفوسهم؛ فهم لا يتصورون أن مجرد حمل أفكار خاطئة يستأهل عذاب الخلد، كما نقرأ في كتاب الله الحكيم: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾، غالباً ما نرى أن هؤلاء لا يأخذون الرياء الذي هو شرك على محمل الجد؛ بينما تجدهم في غاية الحذر من الزنا والسرقه، رغم أن هاتين الموبقتين لا تعبيران عن الشرك كما هو حال الرياء الذي جاء في الحديث أنه شرك كله!

إن الوصول إلى الجواب الصحيح يعتمد على إدراكنا لحقيقة غاية خلقنا، وما هي نتيجة إعراض الإنسان عن الوصول إليها. وقد اتضح من الفصول السابقة أن حكمة الله في الخلق اقتضت ظهور عظمة الله المطلقة؛ وأن هذه العظمة إنما تتجلى بأبهى ما يكون في الاسم الأعظم. أما جهنم والخلود في النيران فليست سوى ظهور رفض الإنسان لتحقيق هذا الهدف ومعاذته لإرادة الله. هناك سيكون هذا الكافر بواقع ينعكس فيه جلال الله المطلق ونقمة اللامتناهية.

إن تصوّر العذاب الإلهي كعقاب اعتباري، مثلما يحدث من قبل القاضي الذي يتخير ما يراه مناسباً لمعاقبة المتهم في القضية سواء كان مذنباً أو لا، هو الذي يجعل قضية العقاب الإلهي أمراً مبهماً؛ إننا نتصور ذلك لأننا نرى حكمة الله تعالى أمراً مغايراً لقدرته، وأن قدرة الله تعالى التي تتجلى في قهره ونقمة قد تتحرك خارج حكمته المطلقة؛ إنه قياس الخالق على المخلوقين؛ وهو الذي جرنّا إلى التساؤلات المذكورة. وكان من

المفترض أن نبحت عن الآثار الحتمية للشرك وفق نظام السنن والقوانين ومبدأ السنخية بين العلة والمعلول. لأن هذه القوانين تحكي عن حكمة الله تعالى، التي ستكون القدرة تابعة لها دوماً. فالشرك أمر تكويني؛ وسيكون له بحسب نظام الحكمة أثر أو آثار بما يتناسب مع عالم التكوين. فالحرري بنا أن نفهم هذا الأثر لنذكر تناسبه مع عقابه.

إنَّ التوجّه المعنوي الصادق إلى خالق العالم ومدبره هو الذي يتجلى في عمل الإنسان الخاص الذي نسّميه عبادة، والعبادة الحقيقية ليست أمراً يقرر العارفون إنشائه لرغبتهم به أو لخطوره في بالهم. بل إنها عبارة عن تجلي عرفانهم وانعكاس معرفتهم بربهم في أعضائهم وجوارحهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وفي المقابل تفقد العبادة الخالية من المعرفة أو الحركة المعرفية أثرها المنشود ولا تكون ذات قيمة متناسبة مع دورها. والمعرفة إذا اكتملت في النفس ظهرت في حركة الجوارح وصارت منشأ للأعمال الصالحة. والعمل الصالح سيعود على أهل المعرفة بأنواع الخير والكمال، لما فيه من تفعيل لقابليات الإنسان الكامنة وتزكية لنفسه المستعدة.

من عرف الله أدرك أن له الكمال المطلق؛ وكل كمال إنما يفاض من الله المتعال. ولأنَّ الإنسان في عمق كيانه وفطرته، التي فطره الله عليها، لا يريد سوى هذا الكمال الخالص المطلق، فهو يتوجه بحسب الفطرة والجبلة إلى مبدأ هذا الكمال، أي الله تعالى. فمن عرف الله حق المعرفة، يكون قد حدد المصدر الواقعي لما يصبو إليه. وإذا اشتد حضور هذه المعرفة في النفس، توجّه بكل وجوده نحو الله تعالى دون أن يكون في البين اعتبار أو حاجة إلى التصنّع. فهنا بالذات، تستلزم هذه الدرجة من المعرفة صدور هذا النحو من التوجه والانقطاع. أما إذا جهل هذا الإنسان من هورب العالمين، فإنه يفقد

المصدر الوحيد للخير والكمال؛ فكيف يتَّجه نحوه أو يقصده.

وليس الشُّرك في حقيقة الأمر سوى استفحال حالة الجهل بهذا الإله. إن من أهم معاني الألوهية أن إله العالم يتَّصف بالغنى الذاتي المطلق؛ والّا صار مخلوقاً، فيستحيل أن يكون خالق كل شيء محتاجاً، لأنَّ الاحتياج للغير من صفات المخلوقين، والمخلوق هو الذي يكون فقيراً بذاته من حيث الوجود وكمال الوجود. ولو صار غنياً، فلا يمكن أن يكون غناه من ذاته. لأنَّ فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه.

كما أنَّ المحدود في الوجود والكمال والتأثير لا يمكن أن يكون إلهاً. لأنَّ كل محدود فله من يحده، فصار مقهوراً لغيره. ومن كان كذلك كان مخلوقاً. كما أن الموجود لا يمكن أن يختار لنفسه المحدودية، فيجعل نفسه محدوداً بعد أن كان مطلقاً. فمن كان محدوداً، دلَّ على أنَّه كان مغلوباً على أمره في وجوده. وليس هذا إلا المخلوق الفقير.

والشُّرك يعني الاعتقاد بوجود أشياء إلى جانب الخالق تشاركه في الوجود أو الكمال أو التأثير. وهذا التشريك نافي للألوهية، لأنه يستلزم التحديد. فلا تعدد إلا في ظل المحدودية. إنَّ افتراض شريك لله يستلزم أنَّ الشريك يملك ما لا يملكه الشريك الآخر. ويعني ذلك أن كل شريك صار ناقصاً محتاجاً، ولم يعد إلهاً. ولهذا كانت عقيدة الشرك بأي شكل من أشكالها، عبارة عن الكفر بالألوهية ونفي لمعناها الجوهرية والمصيري.

والمشرك لا يمكن أن يكون جاهلاً بالله عن قصور، إلا بصورة مقطعية محدودة. لأنَّ آيات الألوهية عمت كل شيء، ومظاهر الوحدانية ملأت أركان كل شيء؛ فقد تظاهرت الحجج وسطعت البراهين، فأضاءت شمس الحقيقة أرجاء الوجود كله. والله تعالى قد أظهر تفردَه وكبرياءه ووحدانيته في كلِّ شيء ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

يَكْفِرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

فلم يبق في الشرك سوى الرفض والكفر والإنكار. وما علينا إلا أن نتصور حال من يرفض حقيقة بهذه الدرجة من الوضوح والبداهة. وكيف يمكن أن يكون عليه حال نفس تتنكر كل لحظة لأمر هو في غاية العظمة والجمال. ولأن مثل هذا الخبث سيكون في تفاعل مع مواقف الحياة الكثيرة والتي تدور حول أمر واحد ومطلب فارد هو: التسليم لله تعالى، فإن صاحبه سوف يتخذ المواقف الخاطئة حتماً. لأن الحسن والحق والصحة والسلامة كامنة في الإنسجام مع قوانين هذا العالم كما خلقها الله وجعلها، لا كما يفسرها الجاهلون والماديون؛ وبناء عليه، يكون المشرك خاسراً دوماً وإن ربح. إن طبيعة المواقف التي تمر في حياتنا، والتي هي تفاصيل هذه الحياة ومجرياتها، من كباتر الأمور وصغائرها، ليست سوى تدبيرات إلهية وأفعال ربانية، تحملنا على التفكير وتتطلب منا موقفاً تفسيريّاً. ولا يمكننا نحن العقلاء أن نتجاوز ذلك، إلا إذا قررنا التخلي عن عقلانيتنا. إن طبيعة التكوين البشري تستلزم ردة فعل تجاه الهدية والتكريم. وعندما يجمد الإنسان أمام مثل هذه المواقف، فلن يكون الأمر طبيعياً.

إن جميع شؤون الحياة وأحداثها هي من صناعة الخالق وتديره. وكل حادثة منها تتفاعل داخل النفس الإنسانية، وتحفزها على التفكير في معناها ومنشأها. ولهذا، يستحيل أن لا يتخذ الإنسان من كل واحدة منها موقفاً يعبر عن اعتقاده بسببه والغاية منه؛ إلا إذا خرج عن إنسانيته. وهذا الموقف يتمحور حول الاعتراف بسببه وعلته ومنشئه. لأن إدراك السببية هو أول المعارف والإدراكات وأكثرها بداهة. ومن أنكر السبب، فقد حرم نفسه من العقل الذي هو مبدأ الإنسانية وقاعدة تكاملها. قال رسول الله ﷺ: "العقل

ما عرف به الرحمن واكتسب به الجنان".

فنحن في قضية الشرك أمام عملية تشويه للإنسانية ومسح للخلقة وفساد للصناعة الإلهية. كل هذا يتم بأبشع صورة، لأنه سيحدث في كل موقف من مواقف الحياة، وسيواجه عملية التفاعل الإيجابي مع آيات الله، سعيًا لإبطالها.

وعندما يتنكر الناس والمجتمع لمعنى الألوهية في آيات الله ووحدانيته الماثلة في كل أرجاء الوجود والحياة، ويجدون أنفسهم في مواجهة معها، فإنهم بذلك ينشئون جبهة في مقابل إرادة الحق تعالى وخطته الحكيمة للبشرية والأكون. قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إن الشرك مرض خبيث، إذا لم يتم اجتثاته، فسرعان ما سينتشر ليتحول إلى ظاهرة اجتماعية، تخرب المجتمع، وتفسد البيئة؛ وكفى بهذا ظلماً. بل كل ظلم يرجع إلى الشرك ويتغذى منه.

إن الحياة بكل تفاصيلها هي ساحة المعرفة والاعتراف بالحقيقة. والمشرِك، بالإضافة إلى تنكره لهذه الفلسفة، يعمل على تخريب هذه المدرسة. إنه غير مبال بهذه التربية الإلهية ويسعى إلى تعطيلها. وإنما لم نلاحظ وخامة الشرك من عموم بلواه من جهة، ومن عدم قدرتنا على ربط كل الجرائم والفساد والشرب.

وعليه، يكون التوحيد أصل كل الخيرات. ويكون الشُّرك أصل جميع الشرور. فالتوحيد يعني:

1. المعرفة الصحيحة بالألوهية (منبع الكمال وأصله).

2. التوجُّه التام نحو الكمال الواقعي.

إن اختصار حقيقة المشيئة الإلهية بظهور الاسم الأعظم لهو تعبير دقيق عن الحقيقة. ومعنى ظهور الاسم الأعظم هو أن يكون الوجود كله

مظهراً للعظمة المطلقة المتضمنة كلَّ كمال على نحو الإطلاق؛ وإنَّ تحقق جنَّة
الخلد التي هي جنَّة الله لا يكون إلَّا باندفاع النَّاس نحو عمارتها؛ وإنَّ هذا
الاندفاع موقوفٌ في قسم كبيرٍ منه بسبب الخوف من جهنَّم الخلد (التي هي
تجلي الجحود بكلِّ المعاني الجميلة والكمالات اللامتناهية).



"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا
تُحَوِّيه الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا
تَحْجِبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ
خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ،
وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ".



التجليات الأسمائية
والصفاتية والذاتية

التجليات الأسمائية والصفاتية والذاتية

"وغاية هذا السلوك هي تخلية النفس من غير الحق، وتحليتها بالتجليات الأسمائية والصفاتية والذاتية. فإذا حصل للمسالك هذا المقام حينئذ ينتهي سلوكه، وتحصل له الغاية من السير والسلوك". [معراج السالكين]

وكما أن سير العارف في مراتب التوحيد يبدأ من التوحيد الأفعالي، فينتقل بعدها إلى التوحيد الصفاتي، حتى ينتهي إلى الذاتي، فإنه في كل مرتبة - ونتيجة توحيده - ينال شرف الاستعداد لاستقبال تجليات الألوهية، من التجليات الأفعالية التي يعبر عنها بالأسماء الفعلية، والصفاتية التي هي أسماء الصفات، حتى يصل إلى الأسماء الذاتية بعد حصول التوحيد الذاتي، فإن التوحيد هو الباب الواسع للدخول إلى عالم معرفة الله. ومن لم يوحد الله، فلن يعرفه.

إن السير العقلي بالنسبة للغافل أو الشاك يبدأ من إثبات التوحيد الذاتي الذي يعني وحدة واجب الوجود وإثبات هذا التوحيد، نستدل على ضرورة اتصاف الواجب الغني بكل صفات الكمال على الإطلاق، والذي يعني انحصار الكمال به. وعندها يصبح الذهن مستعداً لإثبات التوحيد

الأفعاليّ الذي يعني أن لا مؤثّر في الوجود إلّا الله.

وبذلك تنحل مشكلة الإنسان تجاه كل أنواع الاختلافات في الخلق والنقائص في التكوين والتقدير في الرزق، وتزول الحيرة من عدم تصور المعنى الدقيق للأمر بين الجبر والتفويض، فينال بذلك راحة دائمة وعيشاً هنيئاً.

وبعبور جسر الشكّ بانتهاء السّير العقليّ، تبدأ رحلة تثبيت هذه المراتب الثلاث للتّوحيد في القلب والباطن؛ فيكون بدء السلوك النفسي من حيث نهاية التوحيد العقلي، من التّوحيد الفعليّ إلى التوحيد الذاتيّ مروراً بالصّفتيّ.

وكم هو صعب أن يرى المرء كل الوجود منحصراً بالله، وهو يرى نفسه والأشياء من حوله مستقلات في الوجود ومتقابلات في الهوية والانية. ولما كانت الذوات والانيات منشأ ظهور الصفات والكمالات، ولما كانت الصفات والملكات منشأ صدور الأفعال والسلوكيات، فإن رؤية اضمحلال الذوات وفناء الهويات يأتي - بالنسبة للإنسان المحجوب - في نهاية المطاف. ومن أراد الخروج من الاحتجاب، فعليه أن يتدرّج من نفي تأثير نفسه ورؤية فناء أفعاله، ثم إلى رؤية حقيقة انحصار الكمال بالله تعالى، حتى يبلغ مقام شهود لا موجود إلا الله تعالى.

إن الفارق بين السلوك العقلي والسلوك القلبّي، أي الاختلاف بين الاستدلال والشهود، يرجع إلى أن الأول لا يتطلب توضيحاً وعطاءً من النفوس التي أحضرت الشح بطبيعتها، بينما يقوم الثاني على الإيثار، وهو أصعب شيء على النفوس. وشتان ما بين الإدعان العقلي بالحقيقة، والتصرف العملي على أساسها.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "إعلم أنّ لجميع أسماء وصفات الحقّ جلّ وعلا

مقامين ومرتبتين بصورة كلية: أحدهما مقام الأسماء والصفات الذاتية الثابتة في الحضرة الواحدية كالعلم الذاتي الذي هو من الشؤون الذاتية والقدرة والإرادة الذاتيتين وسائر الشؤون الذاتية.

والثاني: مقام الأسماء والصفات الفعلية الثابتة للحق بتجلي الفيض المقدس كالعلم الفعلي الذي يشته الإشراقيون ويرونه مناطاً للعلم التفصيلي، وقد أقام البرهان عليه أفضل الحكماء الخواجة نصير الدين الطوسي نصر الله وجهه، وتبع الإشراقيين في هذا المعنى وهو أن الميزان في العلم التفصيلي العلم الفعلي، وهذا المطلب وإن كان على خلاف التحقيق، بل العلم التفصيلي ثابت في مرتبة الذات وإن كشف العلم الذاتي وتفصيله أعلى وأكثر من العلم الفعلي، كما ثبت وحقق في محله على وجه البرهان النوري، ولكن أصل المطلب وهو أن نظام الوجود هو العلم الفعلي التفصيلي للحق ثابت ومحقق في سنة البرهان ومشرب العرفان؛ وإن كان للمسلك العرفاني الأعلى وذوقه الأحلى طريقة غير هذه الطرق. (مذهب العاشق غير جميع المذاهب)". [معراج السالكين].

ففي السير العقلي يتمكّن المفكر من ملاحظة انتساب بعض الصفات الكمالية بحسب المفهوم إلى الذات الغنية، دون الحاجة إلى حضور الخلق والإضافة في هذه الصفة، فتكون هذه الصفات للذات، كالاسم القدوس أو العلمي. وفي المقابل يعجز عقله عن تصوّر بعض الصفات دون الإضافة إلى الخلق، فتكون هذه الصفات أسماء أفعال الذات، كالاسم الرزاق؛ حيث يُقال أنه لا رزق دون مرزوق. "فالأحرى بالسالك إلى الله أن يكسر رجل سلوكه وأن يتبرأ من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله تماماً، ويفنى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائماً نصب عينيه، حتّى يقع مورداً للعناية دائماً. ويطوي طريق المئة عام بجذبة ربوبية

في ليلة واحدة". [معراج السالكين].

"اعلم أنَّ أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التَّوْحِيدِ الْأَفْعَالِيِّ، كما أنَّ الرُّكُوعَ عندهم إشارة إلى التَّوْحِيدِ الصِّفَاتِيِّ والسَّجُودَ إلى التَّوْحِيدِ الذَّاتِيِّ".

[معراج السالكين].

أمَّا في السَّلُوكِ الْقَلْبِيِّ والسير الإيماني، فلأنَّ القلب هو محل المعرفة وتجلياتها بحسب درجة المجاهدة ورياضاتها، فإنَّ استعداد القلب وسعة الوعاء هو الذي سيحدّد هذه التجليات وأنواعها ودرجاتها (أي يحدّد ظهور الأسماء على قلبه). فتكون التجليات الأسمائية بحسب مقام السَّالِكِ في التَّوْحِيدِ؛ وهو طور فوق طور المفاهيم والألفاظ. يقول الإمام الخميني رحمته: "وليُعلم أنَّ أسماء الذَّاتِ والصِّفَاتِ والأفعال التي أشير إليها فهي على طبق اصطلاح أرباب المعرفة؛ وبعض مشايخ أهل المعرفة قسّم الأسماء في كتاب إنشاء الدَّوَانِرِ إلى أسماء الذَّاتِ وأسماء الصِّفَاتِ وأسماء الأفعال؛ وقال إنَّ أسماء الذَّاتِ هي الله، الرَّبُّ، الملك، القدّوس، السَّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، العليّ، العظيم، الظاهر، الباطن، الأوّل، الآخر، الكبير، الجليل، المجيد، الحقّ، المبين، الواجد، الماجد، الصّمد، المتعالى، الغنيّ، النّور، الوارث، ذو الجلال الرقيب.

وأسماء الصِّفَاتِ هي: الحيّ، الشكور، القهار، القاهر، المقتدر، القوي، القادر، الرَّحمن، الرَّحيم، الكريم، الغفار، الغفور، الودود، الرّؤوف، الحليم، الصبور، البرّ، العليم، الخبير، المحصي، الحكيم، الشهيد، السميع، البصير.

وأسماء الأفعال هي: المبدئ، الوكيل، الباعث، المجيب، الواسع، الحسيب، المقيت، الحفيظ، الخالق، البارئ، المصور، الوهاب، الرزّاق، الفتّاح، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع، المعزّ، المذلّ، الحكيم، العدل، اللطيف، المعيد، المحيي، المميت، الوالي، التّوابع، المنتقم، المقسط، الجامع، المغني، المانع، الضارّ، النّافع،

الهادي، البديع، الرشيد (انتهى).

وذكروا في ميزان هذا التقسيم أنَّ الأسماء وإن كانت كلها أسماء الذات؛ ولكنها باعتبار ظهور الذات يُقال لها أسماء الذات؛ وباعتبار ظهور الصفات والأفعال يُقال لها الأسماء الصفاتية والأفعالية؛ أي أنَّ كل اعتبار يكون أظهر فالاسم يكون تابعاً له. فلهذا، قد يجتمع في بعض الأسماء اعتباران أو اعتبارات ثلاثة، فيكون من الأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية، أو الاثنين من هذه مثل الرَّبِّ كما ذكر.

وهذا المطلب لا يستقيم على مذاق الكاتب ولا يطابق الذوق العرفاني؛ بل ما يبدو للنظر في هذا التقسيم أنَّ الميزان في هذه الأسماء هو أنَّ السَّالِكَ يقدم المعرفة إذا حصل له الفناء الفعلي، فتجليات الحق تعالى على قلبه هي التجليات بأسماء الأفعال؛ وبعد حصول الفناء الصفاتي تكون التجليات الصفاتية؛ وبعد الفناء الذاتي تكون التجليات بأسماء الذات، وإذا كان قلبه قادراً على الحفظ بعد الصحو فما يخبر عنه من المشاهدات الأفعالية فهو أسماء الأفعال، ومن المشاهدات الصفاتية فهو أسماء الصفات. وهكذا أسماء الذات، ولهذا المقام تفصيل لا ينبغي لهذه الأوراق. [معراج السالكين].

وبناءً عليه، فإنَّ الرَّازِقَ سبحانه قد يتجلى على قلب السَّالِكِ في مرتبة التَّوْحِيدِ الذاتي فيقول والحقَّ رازق ولا مرزوق، وهو تعالى خالق إذ لا مخلوق، كما رُوي عن الإمام الرضا (عليه السلام) في الخطبة التوحيدية.

ويقول الإمام: "واعلم أنَّ الركوع حيث أنَّه أول، والسَّجود ثان، فيفترق التَّسْبِيح والتَّحْمِيدُ فيهما بفروق. وأيضاً يفرق الرَّبُّ في المقامين؛ لأنَّ الرَّبَّ، كما قال أهل المعرفة، من الأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية بالاعتبارات الثلاثة.

فبناءً على ذلك، الرَّبُّ في ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لعله من الأسماء

الفعليّة بمناسبة مقام القيام، وهو مقام التوحيد الأفعاليّ، وفي الرّكوع من الأسماء الصّفاتية، بمناسبة أنّ الركوع مقام توحيد الصّفات؛ وفي السّجود من الأسماء الذاتيّة من حيث أنّ السّجود مقام توحيد الذّات، والتسبيح والتحميد الواقعان في كلّ مقام يرتبطان بذلك المقام". [معراج السالكين].

وللإمام عليه السلام مشربٌ آخر في تحديد التجلّيات الأسمائيّة بحسب المراتب الثلاث للتوحيد؛ وهو لا يتعارض مع مشربه العرفانيّ هذا؛ فإنّ لكلّ منها طريقاً بحسب سير السّالك، وهذا المشرب مستفاد من السّير القرآنيّ. فكثيراً ما يذكر الإمام اسماً تحت عنوان الفعل أو الذّات انطلاقاً من ترتيبه في السورة والآيات. وذلك لأنّ آيات القرآن وسوره تنزّل من الشؤون الذاتيّة والحقائق العلميّة للحضرة الواحديّة إلى المنازل الخلقيّة وألبسة الأطوار الفعليّة. وقد روعي هذا التّرتيب أيضاً عندما اكتسى القرآن كسوة الألفاظ والحروف الدنيويّة. كلّ ذلك من أجل أن يبقى طريق العروج مفتوحاً. وهكذا نجد الإمام يفسر أحد الصفات الإلهية في القرآن على أنّه من أسماء الذّات تارة، ومن أسماء الصفات تارة أخرى، أو من أسماء الأفعال، وذلك بحسب ترتيبه في سياق الآيات؛

"وبالجملة من عود نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهيّة من كتاب التّكوير والتّدوين الإلهيين يصبر قلبه بالتّدريج على صورة الذّكرى والآية، ويتحقّق باطن الذّات بذكر الله، واسم الله، وآية الله؛ كما فسّر وطبّق "الذكر" على الرّسول الأكرم، وعليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهما وألّهما؛ والأسماء الحسنی على أنعم الهدى؛ وكذلك فسّرت وطبّقت "آية الله" عليهم، فهم الآيات الإلهيّة وأسماء الله الحسنی وذكر الله الأكبر. ومقام الذّكر من المقامات العالية الجليلة التي لا يسع المجال لبيانها وهو فوق حدود التّقرير والتّحرير، وتكفي لأهل المعرفة والجذبة الإلهيّة وأصحاب

المحبة والعشق الآية الشريفة الالهية ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وقال الله تعالى لموسى: "يا موسى أنا جليس من ذكرني". وفي رواية الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من أكثر ذكر الله أحبه الله" [معراج السالكين].

إن لأصحاب القلوب تجربة خاصة مع القرآن الكريم. وفيها يكون ارتقاؤهم بآياته في مراتب التوحيد والحقيقة مختلفاً عن أصحاب الحركة الفكرية أو التحقيق اللغوي. ولذلك ترى الإمام معتقداً بوجود معانٍ مشككة للفظ أو الجملة الواحدة في القرآن كما في حديثه في البسملة حيث يقول: "ويُحتمل أن يكون بسم الله في كل سورة متعلقاً بتلك السورة، فمثلاً ﴿بسم الله﴾ سورة الحمد المباركة متعلق بالحمد؛ وهذا مطابق للذوق العرفاني ومسلوك أهل المعرفة، لأنه إشارة إلى أن حمد الحامدين وثناء المثنيين أيضاً بقيومية الاسم الله. بناء على هذا، فإن التسمية في مقدمة جميع الأقوال والأفعال، التي هي من جملة المستحبات الشرعية للتذكر بأن كل قول وفعل لابد وأن يتحقق بقيومية اسم إلهي؛ لأن جميع ذرات الوجود تعين اسم الله؛ وباعتبار آخر هي نفسها أسماء الله؛ فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله بنظر الكثرة في كل سورة وفي كل قول وفعل مختلف" [معراج السالكين].

وبعد أن يأتي على رأي علماء اللغة وكيفية تفسيرهم للأسماء الإلهية يؤكد على مشرب القرآن الذي نزل بأعلى مراتب الذوق العرفاني، فيقول: "قال علماء الأدب أن الرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة والمبالغة، ولكن المبالغة في الرحمن أكثر منها في الرحيم. والقياس يقتضي أن يكون الرحيم مقدماً على الرحمن، ولكن الرحمن حيث أنه بمنزلة العلم الشخصي ولا يُطلق على سائر الموجودات فلهذا قُدّم. وقال البعض أن كليهما بمعنى واحد، وتكرارهما لمحض التأكيد.

وأما الذوق العرفاني الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه، فيقتضي أن

يكون الرَّحْمَنُ مقدِّماً على الرَّحِيمِ؛ لأنَّ القرآنَ الشَّرِيفَ عندَ أصحابِ القلوبِ نازلةَ التَّجَلَّيَاتِ الإلهيَّةِ والصُّورةَ الكُتِيبِيَّةَ للأسماءِ الربوبيَّةِ المحسني. وحيث أنَّ الاسمَ الرَّحْمَنُ أكثرُ الأسماءِ الإلهيَّةِ إحاطةً بعدَ الاسمِ الأعظمِ، وقد حَقَّقَ عندَ أصحابِ المعرفةِ أنَّ التَّجَلِّيَّ بالأسماءِ المحيطةِ مقدَّمٌ على التَّجَلِّيِّ بالأسماءِ المحاطةِ، وكلَّ اسمٍ يكونُ أكثرَ إحاطةً فالتَّجَلِّيُّ به أيضاً مقدَّمٌ، فلذا كانَ التَّجَلِّيُّ الأوَّلُ في الحضرةِ الواحديَّةِ التَّجَلِّيُّ بالاسمِ الله الأعظمِ وبعدهُ التَّجَلِّيُّ بمقامِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وإنَّ التَّجَلِّيَّ بالرَّحِيمِيَّةِ بعدَ التَّجَلِّيِّ بالرَّحْمَانِيَّةِ، وهكذا في التَّجَلِّيِّ الظَّهَوِيِّ الفَعْلِيِّ أيضاً، التَّجَلِّيُّ بمقامِ المشيئةِ الذي هو الاسمُ الأعظمُ في هذا المشهدِ، وظهورُ الاسمِ الأعظمِ الذاتيِّ مقدَّمٌ على جميعِ التَّجَلَّيَاتِ، والتَّجَلِّيُّ بمقامِ الرَّحْمَانِيَّةِ الذي له الإحاطةُ بجميعِ موجوداتِ عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى "ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ" مقدَّمٌ على سائرِ التَّجَلَّيَاتِ وإليه يشيرُ "سبقت رحمتي غضبي"، ببعضِ الوجودِ

وبالجملة، حيثُ أنَّ بِسْمِ الله بحسبِ الباطنِ والرَّوحِ صورةَ التَّجَلَّيَاتِ الفَعْلِيَّةِ، وبحسبِ السرِّ وسرِّ السرِّ صورةَ التَّجَلَّيَاتِ الأسمائيَّةِ بل الذاتيَّةِ؛ والتَّجَلَّيَاتِ المذكورةِ هي التَّجَلَّيَاتِ بمقامِ الله أولاً، وبعدهُ بمقامِ الرَّحْمَنِ، وبعدهُ بمقامِ الرَّحِيمِ، فلا بدَّ أن تكونَ صورتُها اللفظيَّةُ والكُتِيبِيَّةُ أيضاً كذلك، حتَّى تطابقَ النِّظامَ الإلهيَّ والرِّبَّانيَّ؛ وأمَّا تأخُّرُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في سورةِ الحمدِ المباركةِ عن رَبِّ العالمين، فلعلَّه من جهةٍ أنَّه في ﴿بِسْمِ الله﴾ كانَ النَّظَرُ إلى ظُهورِ الوجودِ من مكانٍ غيبِ الوجودِ، وفي السُّورةِ الشَّريفةِ النَّظَرُ إلى الرَّجوعِ والبطونِ، وفي هذا الاحتمالِ إشكالٌ. ولعلَّه لأجلِ الإشارةِ إلى إحاطةِ الرَّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ والرَّحِيمِيَّةِ، ولعلَّه لنكتةٍ أخرى. وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ هذه النُّكْتَةُ التي ذُكرتْ في ﴿بِسْمِ الله﴾ جديرةٌ

بالتصديق ولعلها من بركات الرحمة الرحيمية في قلبي أنا اللاشيء، وله الحمد على ما أنعم". [مراج السالكين].

ولأن تناول الأسماء الإلهية على طريق البحث المفهومي يصبح حجاباً فيما لو اكتفي به، ولأن المطلوب هو التحقق بحقائق الأسماء والتخلق بها لا أخذ العلم عنها، فإن الانحراف أو السقوط أثناء عبور هذا الوادي السلوكي، يحصل بسبب حصر القوى الإدراكية وتقييدها بواسطة أهواء النفس؛ فلا بد من تحريرها وفك أقفالها بالمجاهدة القلبية والرياضة النفسية.

يقول الإمام رحمه الله: "واعلم أن السالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله لا بد له أن لا يقتنع بالحد العلمي لهذه المعارف ولا يصرف كل عمره في الاستدلال الذي هو حجاب، بل الحجاب الأعظم، لأن هذه المرحلة لا يمكن طيها بالرجل الخشبية؛ بل ولا بطائر سليمان. إن هذا الوادي وادي المقدسين، وهذه المرحلة مرحلة الأحرار، فما لم يخلع نعلي حب الجاه والشرف والأهل والولد، وما لم يلق عصا الاعتماد والتوجه إلى الغير من يمينه، لا يمكن أن يضع قدمه في الوادي المقدس الذي هو مكان المخلصين ومنزل المقدسين. وإذا خطى السالك في هذا الوادي بحقائق الإخلاص والقي الكثرات والدنيا (وهي خيال في خيال) وراء ظهره، فإن بقي فيه بقايا من الأنانية فيؤيد من عالم الغيب ويندك جبل إنيته بالتجليات الإلهية، وتحصل له حالة الصعق والفناء، وقبول هذه المقامات للقلوب القاسية، التي ليس عندها خبر سوى الدنيا وحظوظها، ولا تتعرف على شيء إلا بالغرور الشيطاني، يكون صعباً جداً ونسب إلى نسج الأوهام؛ مع أن الفناء الذي نحن الآن فيه بالنسبة إلى الطبيعة والدنيا - بحيث أننا غافلون تماماً عن عوالم الغيب التي هي أظهر من جميع الجهات من هذا العالم؛ بل أننا غافلون عن الذات وصفات الذات المقدسة التي يختص بها الظهور، ونتشبث لإثبات تلك العوالم والذات

المقدسة للحقّ جلا وعلا بذيل البرهان والاستدلال - أغرب وأعجب بمراتب
من الفناء الذي يدّعيه أصحاب العرفان والسلوك شعرا:

الحيرة ثم الحيرة من هذه القصص

كيف يُدهش الخاصّ في الأخسّ

وإن كان الأخسّ (بالصاد) فليس فيه هذا القدر من الحيرة، لأنّ فناء
النّاقص في الكامل أمر طبيعيّ وموافق للسّنة الإلهيّة، فالحيرة في محلّ
يكون الأخسّ (بالسين)، كما أنّ هذا الصّعق والفناء متحقّق الآن لنا جميعا؛
وقد انغمرت أسماعنا وأبصارنا في الطبيعة إلى حدّ ليس لنا أيّ خبر عن
ضوضاء عالم الغيب، "معراج السّالكين".

إنّ السرّ وراء اهتمام أهل معرفة الله بترتيب الأسماء بحسب التجليات
يرجع إلى شدّة عنايتهم بالسّير المعنويّ والارتقاء العروجيّ، الذي لا
يتحقّق إلّا بمشاهدة الأسماء الإلهيّة. وهذا هو السّير بقدم المعرفة بحسب
اصطلاحاتهم

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "والعلّيّ من الأسماء الذاتيّة؛ وبحسب رواية
الكافي، هو أوّل اسم اتّخذه الله لنفسه. أي هو أوّل تجليات الذات للذات،
والعبد السّالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فينال
فخر هذا التجلّي الذاتيّ" [معراج السّالكين]. فإنّ الدّليل الأكبر والمؤشّر الحقيقيّ
على صحّة التّكامل وسلامة السّير هو معرفة الله التي لها نظام خاص
بحسب تجلياته سبحانه.

"في نقل الكلام المنسوب إلى الشيخ محيي الدين

(نور): قد نسب داوود بن محمود القيصرّي شارح "فصوص الحكم"،
ومحمّد بن حمزة بن الفناري شارح "مفتاح غيب الجمع والوجود" للمحقّق

العارف محمد بن إسحاق القونوي في شرحيهما إلى الشيخ الكبير محيي الدين العربي الأندلسي: إنّ النور من أسماء الذات وقد جعل الاسم الذي دلّته على الذات أظهر من أسماء الذات، والذي دلّته على الصفات أو الأفعال أظهر منهما. قال ابن الفناري قلت: الشيخ الكبير بعد ما ضبطها بهذا الجدول (ثم كتب الجدول وذكر في الأسماء الذات النور) قال: وهذه الأسماء الحسنی منها ما يدلّ على ذاته جلّ جلاله، وقد يدلّ مع ذلك على صفاته أو أفعاله أو معاً. فما كان دلّته على الذات أظهر، جعلناه من أسماء الذات؛ وهكذا فعلناه في أسماء الصفات وأسماء الأفعال من جهة الأظهر، لا أنّه ليس له مدخل في غير جدولها كالربّ، فإنّ معناه "الثابت" فهو للذات، و"المصلح" فهو من أسماء الأفعال ومعنى "المالك" فهو من أسماء الصفات.

وقال فيه أيضاً: واعلم أنّا ما قصدنا بها (أي الأسماء المذكورة في الجدول) حصر الأسماء ولا أنّه ليس ثمة غيرها، بل سبقنا هذا الترتيب بينها. فمتى رأيت اسماً من أسمائه الحسنی فالحقه بالأظهر فيه. انتهى ما نسب إلى الشيخ.

أقول: كون النور من أسماء الصفات بل من أسماء الأفعال أظهر، لأنّه في مفهومه مأخوذ مظهرية الغير، فإذا اعتُبر في الغير الأسماء والصفات في الحضرة الإلهية كان من أسماء الصفات، وإذا اعتُبر به مراتب الظهورات العينية كان من أسماء الأفعال، كما في قوله تعالى: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾ (النور: 35)، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللّهُ نُورَهُ مِنْ شَاءِ﴾ (النور: 35)، وقول سيّد الموحّدين أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء كميل: "وينور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء"، وفي دعاء السمات: "وينور وجهك الذي تجلّيت به للجبل فجعلته دكاً وخرّ موسى صعقاً". فهو تحت اسم الظاهر وربّ الشهادة المطلقة أو الشهادة المقيّدة، وكذلك الربّ الذي عين الشيخ أنّه من أسماء

الذَّاتِ، فهو أيضاً بأسماء الأفعال أشبه. ولأمثال هذه المقامات زيادة إيضاح
وبيان لا يناسب وضع هذه الأوراق والصفحات مع ضيق المجال والأوقات
وكثرة تهاجم البلايا وتراكم التَّقَمَّاتِ. اللهم أصلح العاقبة، واقلع شجرة
الظلمة". [شرح دعاء المسحر].



"وَاحِدٌ لَا بَعْدَ ، وَدَائِمٌ لَا بَأْسَ ، وَقَائِمٌ لَا بَعْدَ ، تَلْقَاهُ
الْأَذْهَانُ لَا بِمُسَاعَرَةٍ ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَايِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ ،
لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا ، وَبِهَا أَمْتَعَ مِنْهَا ،
وَالِئِهَا حَاكَمَهَا ، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ أَمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ
فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا ، وَلَا بِذِي عَظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ
فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا بَلْ كَبَّرَ شَأْنًا ، وَعَظَّمَ سُلْطَانًا ."



تجليات
الجمال والجلال

تجليات الجمال والجلال

اقتضت حكمة الله أن تكون تربية الإنسان بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى؛ وذلك لأنَّ الكمال المقصود والمظهر المنشود هو ذاك الجمال الإطلاقي الذي لا طاقة للمخلوق المحدود أن يحيط به. فللجمال المطلق هبة لا يقوم لها شيء، وصعقة لا يصحو منها أحد. فلكي لا يعرض عن هذا الجمال لشدة سطوته، ولكي يصل إلى ما كان الغاية من خلقه وإيجاده، ولكي لا يولّي وجهه عنه يوم يلقاه، كان لا بدّ أن يتدرّج في مراتب الهيبة والسُّطوة، فيرتاض بقبول الشدائد والنقمات، فيما إذا صدرت عن جمال الجميل.

إنَّ السرَّ الأعظم وراء نقمة الله بأوليائه يكمن في عملية إعدادهم لتقبّل عظمة جماله. فالتأّر بحسب أهل المعرفة ليست سوى جلال الجمال؛ ولهذا فهي مختفية في الجنّة وكامنة فيها لكن أهلها لا يشعرون. فأصحاب النار الذين لم يشهدوا جمال الله في حياتهم لا يمكنهم أن يشاهدوا من الجنّة إلّا ما يزيد من عذابهم. فهي نقمة وعذاب وجلال. وكلّ من كان من أهل النار يستحيل عليه أن يرى الجمال بما هو جمال.

أَمَّا الْكَمَلُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالَّذِينَ بَلَغُوا التَّجَلِّيَ الْأَعْظَمَ وَأَدْرَكُوا مَقَامَ
الاسْمِ الْأَعْظَمَ الْجَامِعَ، فَلَيْسَتْ النَّارُ فِي مَرَأَهُمْ سِوَى جَلالِ الْجَمالِ الْمَطْلُوقِ
الَّذِي شَهِدُوهُ "وَالْوَصِلُونَ إِلَى بَابِ الْأَبْوَابِ وَالْمُشَاهِدُونَ لْجَمالِ الْمَحْبُوبِ
بِلا حِجَابٍ وَالْمُتَحَقِّقُونَ بِمَقامِ الْوَلایَةِ الْمَطْلُوقَةِ هُمُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ الدُّنْيا
وَالْآخِرَةِ وَتَجَرَّدُوا عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَلَمْ يَخْلُطُوا الْعَمَلَ الصَّالِحَ بِالسَّيِّئِ،
جُونَ دَمٍ وَحَدَثَ زَنًى حَافِظَ شُورِ يَدِهِ حَالٍ خَامِهِ تَوْحِيدَ كَشِّ بَرِّ وَرَقِ
انْسٍ وَجَانِ

بِئْنِي وَبِئْنِكَ إِنِّي يَنْزَعُنِي فَارْفَعْ بِلَطْفِكَ إِنِّي مِنَ الْبَیِّنِ
وَهُوَ مَقامِ اسْتِهْلَاكِ جَهَةِ الْخَلْقِي فِي وَجهِ الرَّبِّي، وَوَضَعَ نَعْلِي الْإِمْكانِ
وَالْتَعَيَّنَ. وَلَا مَقامَ فَوْقَ هَذَا إِلَّا مَقامِ الْاسْتِقْرارِ وَالتَّكْمِيلِ وَالرَّجُوعِ إِلَى الْكَثْرَةِ
مَعَ حَفْظِ الْوَحْدَةِ، فَإِنَّهُ آخِرَةُ مَنازِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَلَيْسَ وَراءَ عِبَادانِ قَرْيَةٍ.
وَالْإِشْارَةُ إِلَى هَذَا الْمَقامِ وَرَدَتْ: "إِنَّ لَنَا مَعَ اللَّهِ حَالَاتٍ هُوَ هُوَ وَنَحْنُ نَحْنُ".
[شرح دعاء السحر]

فَكُلَّ مَصائِبِ عَالَمِ الدُّنْيا وَشِدائِهَا لَيْسَتْ سِوَى تَجَلِّيِ جَهَنَّمَ الْجَلالِ؛
كُلَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَهْيِئَةِ الْمُسْتَعْدِينَ لِشَهِودِ جَنَّةِ الْجَمالِ. فَالدُّنْيا بِيَدِكَ وَأَنْتَ
الَّذِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهَا جَلالاً صَرَفاً فَتَكُونَ مَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وَلَنْ يَكُونَ الْيَقِينُ الَّذِي تَلْقَاهُ سِوَى الْجَحِيمِ ﴿كَلَّا
لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. كَمَا أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ كُلِّ جَلالٍ
فِيهَا جَمالاً: "مَا رَأَيْتَ إِلَّا جَمِلاً". وَالْمِفْتَاحُ لِذَلِكَ هُوَ طَهارةُ الْقَلْبِ وَصَفائِهِ
الَّذِي بِهِ يَدْرِكُ حَقِيقَةَ الْاسْمِ الْأَعْظَمِ الْجَامِعِ لِمَقامِي الْجَمالِ وَالْجَلالِ.

فَمَنْ شَهِدَ الْاسْمَ الْأَعْظَمَ، لَنْ يَحْجِبَهُ اسْمٌ عَنْ اسْمٍ، وَلَنْ يَكُونَ الْجَلالُ
النَّاعِ مِنْ شِدَّةِ الْجَمالِ مانِعاً أَوْ طارِداً، فَتُحْرَمَ مِمَّا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ. وَمَا دَمَتْ غَيْرُ
قَادِرٍ عَلَى تَفْسِيرِ مَظاهِرِ النِّقْمَةِ فِي حَياتِكَ تَفْسِيراً رَحِيماً، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ

قلبك ما زال معيوباً، لأنّ في كلّ نقمة لطف، وفي كلّ جلال جمال. فأنت لا ترى الحقيقة. وإذا بقيت على هذه الحال فلن تقدر على رؤية الجنة ولو من بعيد، ولن تجد سوى النار موئلاً ومثوئاً لنفسك، وسيكون عذابها عذاباً عليك ومسانخاً لماهيتك. "وهذا الإنسان غافلٌ عن أنّ بعث الرسل وإرسال الكتب وانزال الملائكة والوحي والإلهام على الأنبياء والهداية إلى طريق الحقّ، كلّ ذلك من شؤون رحمة أرحم الراحمين، وقد اتسعت الرحمة الواسعة لجميع العالم ونحن على شفا عين الحياة نهلك من الظلماء". [مراج الشاكين].

يقول الإمام الخميني رحمته: "إنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجبلّة والفطرة متنوّعة:

فبعض منها عشقيّ ومن مظاهر الجمال، وتتوجّه إلى جمال المحبوب بحسب الفطرة. فهؤلاء إذا أدركوا في سلوكهم ظلّ الجميل، أو شاهدوا أصل الجمال تحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال فتصعقهم، لأنّ في كلّ جمال جلالاً مختفياً وفي كلّ جلال جمالاً مستورا. ولعلّه إلى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسالكين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين حيث قال: "هو الذي اتسعت رحمته لأوليائه في شدّة نعمته، واشتدّت نعمته لأعدائه في سعة رحمته"، فتغشاهم هيبه الجمال وعظمته، ويأخذهم الخشوع في حيال جمال المحبوب. وهذه الحالة في أوائل الأمر توجب تزلزل القلب والاضطراب، وبعد التمكن تحصل للسالك حالة الأنس، وتبدّل حالة الوحشة والاضطراب المتولّدة من العظمة والسطوة إلى الأنس والسكينة وتحصل له حالة الطمأنينة، كما كانت حالة قلب خليل الرحمن.

وبعض القلوب خوفاً ومن مظاهر الجلال، وهي تدرك على الدوام العظمة والكبرياء والجلال، وخشوعها يكون من الخوف، ومن تجلّي الأسماء القهرية والجلالية عليها! كما كان حال يحيى، على نبينا وآله عليه السلام. فالخشوع يكون

ممزوجاً تارةً بالحَبِّ وأخرى بالخوف والوحشة، وإن كان في كُلِّ حَبٍّ وحشة، وفي كُلِّ خوفٍ حَبٌّ". [معراج السالكين].

نعم، قد تكون البداية بالنسبة إليك انطلاقةً من ملاحظة الجَلالِ في التجليات والسواردات؛ لأنَّ قلبك اعتاد على رؤية الأمور من واقع النعمة والعقوبة. ولكن من طلب الجمال في الجلال سيدركه، ولو بعد حين. هذا حال أصحاب القلوب الخوفية التي تنشأ من معدن الجلال. لتكون لغيرها منذرة. وقد يكون الانطلاق من ملاحظة الجمال أولاً، لأنَّ قلبك اعتاد على مشاهدة الجمال في الأشياء، لكنّه لن يحرمك من مشاهدة المزيد من الجمال، حتّى تصل إلى الجمال الحقيقي الذي يسطع هيبَةً وجلالاً. أراد الله لقلبك أن يكون عشيقاً ومن معدن الجمال، لتكون لغيرك مبشراً.

وليفرح أصحاب القلوب العشقية، ولا يأسى أصحاب القلوب الخوفية لأنّهم عمّا قريب سيدركون ضالّتهم بشهود الاسم الأعظم وإدراك الجمال الأتمّ الأكرم دون أن يولّوا عنه أو يعرضوا. هذا، وإن كان مسير أصحاب قلوب العشق أقرب وسيرهم أسرع.

"إن قلوب الأولياء والسالكين مرآة تجليات الحقِّ ومحلّ ظهوره، كما قال تعالى: "يا موسى لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن". إلا أنَّ القلوب مختلفة في بروز التجليات فيها، فربَّ قلب عشقيٍّ ذوقيّ تجلّى عليه ربّه بالجمال والحسن والبهاء، وقلب خوفيّ تجلّى عليه بالجلال والعظمة والكبرياء والهيبة؛ وقلب ذو وجهتين تجلّى عليه بالجلال والجمال والصفات المتقابلة، أو تجلّى عليه بالاسم الأعظم الجامع. وهذا المقام مختصٌّ بخاتم الأنبياء وأوصيائه عليهم السلام. ولهذا خصَّ الشيخ الأعرابي حكمته بالفردية، لانفراده بمقام الجمعية الإلهية دون سائر الأولياء، فإنَّ كلَّ واحد منهم تجلّى عليه ربّه باسمٍ مناسبٍ بحاله: إمّا بصفة الجلال كشيخ الأنبياء والمرسلين

صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، فَإِنَّهُ ﷺ لَا سَتَرَاقَهُ فِي بَحْرِ عَشْقِهِ تَعَالَى وَهَيْمَانِهِ فِي نَوْرِ جَمَالِهِ تَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِالْجَمَالِ مِنْ وَرَاءِ الْجَلَالِ، وَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْخَلْسَةِ وَأَصْبَحَتْ حِكْمَتُهُ مَهَيْمَةً؛ وَكَيْحِي ﷺ، فَإِنَّ قَلْبَهُ كَانَ خَاضِعاً خَاشِعاً مُنْقَبِضاً؛ فَتَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِصِفَةِ الْجَلَالِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْكِبَرِيَاءِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَنَةِ. وَلِهَذَا اخْتَصَّتْ حِكْمَتُهُ بِالْجَلَالِيَّةِ؛ وَإِنَّمَا تَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِالْجَمَالِ كَعِيسَى ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ فِي جَوَابِ يَحْيَى ﷺ، حِينَ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ مَعَاتِباً حِينَ رَأَاهُ يَضْحَكُ، فَقَالَ: "كَأَنَّكَ قَدْ أَمَنْتَ مَكْرَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ؟"، بِقَوْلِهِ ﷺ: "كَأَنَّكَ قَدْ آيَسْتَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ". فَأَوْحَى إِلَيْهِمَا: "أَحْبَبْكَمَا إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْا ظَنّاً بِي". فَيَحْيَى ﷺ بِمُنَاسَبَةِ قَلْبِهِ وَنَشَأَتِهِ تَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَنَةِ، فَاعْتَرَضَ بِمَا اعْتَرَضَ، وَعِيسَى ﷺ بِمَقْتَضَى نَشَأَتِهِ وَمَقَامِهِ تَجَلَّى عَلَيْهِ بِاللُّطْفِ وَالرَّحْمَةِ، فَأَجَابَ بِمَا أَجَابَ، وَوَحِيهِ تَعَالَى بِأَنَّ "أَحْبَبْكَمَا إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْا ظَنّاً بِي" بِمُنَاسَبَةِ سَبْقِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْغَضَبِ وَظَهْوَرِ الْمَحَبَّةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي مَظَاهِرِ الْجَمَالِ أَوَّلًا كَمَا وَرَدَ: "يَا مَنْ رَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبُهُ". [شرح دعاء السحر].

أَجَلْ، إِنَّ "أَهْلَ الْمَعَارِفِ وَأَرْبَابَ الْجَذْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، إِذَا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا مَتَمَكِّنِينَ فِي الْجَذْبَةِ وَالْحَبِّ يَشَاهِدُونَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ جَمَالَ الْمَحْبُوبِ، وَفِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَالَ الْمَطْلُوبِ، وَيَقُولُونَ: "مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ فِيهِ وَمَعَهُ".

وَإِذَا قَالَ سَيِّدُهُمْ: "إِنَّهُ لَيُغْنَى عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَا سَتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً"، فَذَلِكَ لِأَنَّ مَشَاهِدَةَ جَمَالَ الْمَحْبُوبِ فِي الْمَرَاةِ، خُصُوصاً الْمَرَاتِي الْكُدْرَةِ، كَمَرَاةِ أَبِي جَهْلٍ، هِيَ بِنَفْسِهَا مُوجِبَةٌ لِلْكُدُورَةِ فِي قُلُوبِ الْكَمَلِّ".

[معراج السالكين].

فَالرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى نَفْسَهُ مَسْئُولاً عَنْ جَعْلِ كُلِّ شَيْءٍ مَظْهَرًا لْجَمَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَلِهَذَا شَقَّ عَلَيْهِ إِعْرَاضُ

الكافرين حتَّى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات. ومن شدة حبه لربه، يشقّ على نفسه الشريفة أن تتحمل موجوداً لا يذكر الله بجماله!

إن أمنية النبي الأكرم أن تشمل شفاعته كل الخلق. ولهذا دعاهم إلى حب الولي الكامل؛ وكان يقول: لو اجتمع الناس على حب علي لما خلق الله النار. فأبى أكثر قومه كفوراً.

وبسبب هذه الروح العظيمة، غفر الله له من ذنبه ما تقدّم وما تأخّر، فأسقط عنه مسؤولية هداية العالمين إلى الجنة، لأنه لا بد من جحيم. «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»؛ وفتح له باباً واسعاً إلى جنة الخلد تقرّبه عينه لكثرة من يشفع لهم.

إن صناعة القلوب تجري وفق التدبير الإلهي الذي يهدي كل شيء إلى اسمه الأعظم. فإذا نظرنا إلى القضية من الجهة الإلهية، فما ثمة إلا التجلي الإلهي الأعظم والفيض الرباني المقدّس الذي به يتحقق كل شيء.

وقد جعل الله تعالى لكل اسم من أسمائه مظهراً في الوجود العيني في مرتبة الاحتجاب، حتى إذا علم الإنسان موقع هذا المظهر، سهل عليه الاتصال بأصله ومعدنه الإسمي. فكان ترتيب عوالم الوجود يحسب الجلال والجمال: من الدنيا التي هي محل غلبة الجلال، إلى السماوات العلا التي يغلب فيها الجمال.

يقول الإمام: "ففي أولياء الله أيضاً طائفة بهذه الصفة (غلبة الجمال)، فكما أننا مستغرقون في البحر الظلماني للطبيعة وعن عالم الغيب وذات ذي الجلال غافلون؛ مع أن الحق تعالى ظاهر بالذات وكلّ ظهور شعاع ظهوره؛ فهم غافلون كلياً عن العالم وما فيه، ومشغولون بالحقّ وجمال الجميل. وفي الرواية: "إِنَّ لِلَّهِ خَلْقًا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَابْلِيسَ". [معراج الشاكين].

والإنسان الكامل، لآتة الكون الجامع والمظهر الأتمّ للاسم الأعظم، فقد

نال شرف جمع العوالم كلّها، وفيه انطوى العالم الأكبر.

ولكي لا يقع سالك طريق المعرفة، أثناء سيره العقليّ، في حجب الشبّهات النّاشئة من التّكثير المفهوميّ للأسماء، فيظن أن للذات صفات جلال مغايرة لصفات الجمال، يذكره الإمام الخمينيّ رحمته الله بمعدن الحقيقة التي جمعت كلّ الأسماء بنحو البساطة والصرافة، فيقول: "فحقيقة الوجود المجردة عن كافّة التعلّقات، وعين الوحدة وصرف النّورية، لما كانت بسيطة الحقيقة وعين الوحدة وصرف النّورية بلا شوب ظلمة العدم وكدورة النقص، فهي كلّ الأشياء وليست بشيء منها. فالصفات المتقابلة موجودة في حضرتها بوجود واحد مقدّس عن الكثرة العينيّة والعلميّة، منزّه عن التعيّن الخارجيّ والذهنيّ. فهي تعالى في ظهورها بطون وفي بطونها ظهور، في رحمتها غضب وفي غضبها رحمة. فهي اللطيف القاهر الضارّ النافع. وعن أمير المؤمنين عليه السلام : "هو الذي اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نعمته واشتدّت نعمته لأعدائه في سعة رحمته". فهو تعالى بحسب مقام الإلهيّة مستجمعٌ للصفات المتقابلة، كالرحمة والغضب، والبطون والظهور، والأوليّة والآخريّة، والسّخط والرّضا، وخليفته لقربه إليه ودّونه من عالم الوحدة والبساطة، مخلوقٌ بيدي اللطف والقهر، وهو مستجمعٌ للصفات المتقابلة كحضرة المستخلف عنه. ولهذا اعترض على إبليس بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾. مع أنّك مخلوقٌ بيدٍ واحدة. فكلّ صفة متعلّقة باللطف فهي صفة الجمال، وكلّ ما يتعلّق بالقهر فهو من صفة الجلال. فظهور العالم ونورانيّته وبهائه من الجمال، وانقهاره تحت سطوع نوره وسلطة كبريائه من الجلال وظهور الجلال في الجمال واختفاء الجمال في الجلال. جمالك في كلّ الحقائق سائر وليس له إلّا جلالك ساتر، وكلّ أنس وخلوة وصحبة من الجمال، وكلّ دهش وهيبة ووحشة من الجلال؛ فإذا تجلّى على قلب السّالك باللطف والموانسة تذكّر الجمال ويقول: "اللهم اني أسألك

من جمالك بأجمله"، إلى آخره. وإذا تجلَّى عليه بالقهر والعظمة والكبرياء والسلطنة تذكَّر الجلال بقوله: "اللهم إني أسألك من جلالك بأجله"، إلى آخره. فلأولياء والسالكين إلى الله والمهاجرين إليه والطائفين حول حريم كبريائه، أحوال وأوقات وواردات ومشاهدات وخطورات واتصالات؛ ومن محبوبهم ومعشوقهم تجلَّيات وظهورات وألطف وكرامات وإشارات وجذبات وجذوات، وفي كلِّ وقت وحال تجلَّى لهم محبوبهم بمناسبة حالهم. وقد تكون التجلَّيات على خلاف التنسيق والترتيب، اللطف أولاً، والقهر ثانياً، واللطف ثالثاً". [شرح دعاء السحر].

فبمعقلك المنور توجه القلب إلى حقيقة الحقائق، وتجعل قبة قلبك تلك الذات التي لا اسم لها ولا رسم، وأنت تعلم أنه تعالى سيتجلَّى عليه تارة بالجلال لتخاف مقام ربك، وأخرى بالجمال لترجو لقاءه. كل ذلك من أجل هدايتك إلى معدن العظمة. "والعظمة من صفات الجلال. وقد ذكرنا أن لكلِّ صفة جلال جمالاً. ولولا أن العظمة والقهر مختلف فيهما اللطف والرحمة لما أفاق موسى عليه السلام من غشوته، ولما تمكَّن قلب سالك من شهودهما، ولا عين عارف من النظر إليهما؛ ولكن الرحمة وسعت كلَّ شيء"، "وبعظمتك التي ملأت كلَّ شيء". [شرح دعاء السحر].

"إن الصفات المتقابلة - لا اجتماعها في عين الوجود بنحو البساطة والتنزه عن الكثرة - يكون الكلُّ منطوياً في الكلِّ، وفي كلِّ صفة جمال جلال، وفي كلِّ جلال جمال، إلا أن بعض الصفات ظهور الجمال وبطون الجلال، وبعضها بالعكس. فكلَّ صفة كان الجمال فيها الظاهر فهي صفة الجمال، وكلَّ ما كان الجلال فيه الظاهر فهو صفة الجلال. والبهاء وإن كان النور مع هيبة ووقار وجامع للجمال والجلال إلا أن الهيبة فيه بمرتبة البطون والنور بمرتبة الظهور، فهو من صفات الجمال الباطن فيه الجلال. ولما كان الجمال ما تعلق باللطف بلا اعتبار الظهور وعدمه فيه، كان البهاء محاطاً به وهو

محيط به. وما ذكر جارٍ في مرتبة الفعل والتجليّ العينيّ حذواً بالحدو. فالبهاء ظهور جمال الحقّ، والجلال مختفٍ فيه، والعقل ظهور جمال الحقّ، والشيطان ظهور جلاله، والجنة ومقاماتها ظهور الجمال وبطون الجلال، والنار ودركانها بالعكس". [شرح دعاء السحر].

تتحقق معرفة الأشياء بالحقيقة، عندما يدرك العارف آخر وأعلى مراتب وجودها. وإن معرفة الاسم، الذي هو مظهر ذات الحق تعالى، كما هو حقه، لا تحصل إلا عند بلوغ العارف في معرفته إياه أقصى مداه. وليُعلم أن أقصى مدى أسماء الجمال هو الجلال، وأن منتهى مدى الجلال هو الجمال. فمن لم ير وراء الجمال المطلق ذاك الجلال، فهو البعيد عن رؤية الجمال.

"ففي كل حال وشأن يظهر للسالك محبوبه باسم، ويتجلّى عليه معشوقه ومطلوبه بتجلٍّ، من اللطف والقهر والجلال والجمال". [شرح دعاء السحر].

"اعلم أنّ للحقّ تعالى صفات ثبوتية، وصفات سلبية في نظر الحكماء. وقالوا أنّ الصفات السلبية ترجع إلى سلب السلب أي سلب النقص، وقال بعض: أنّ الصفات الثبوتية هي صفات الجمال، والصفات السلبية هي صفات الجلال. وذو الجلال والإكرام جامعٌ لجميع الصفات السلبية والثبوتية؛ وهذا الكلام في كلتي المرحلتين خلاف التحقيق. أما المرحلة الأولى فالصفات السلبية ليست بصفات على التحقيق؛ بل لا سبيل إلى ذات الحقّ تعالى لا للسلب ولا لسلب السلب. والحقّ تعالى ليس متّصفاً بالأوصاف السلبية، لأنّ الاتّصاف بالسلب يكون في القضايا المعدولة، وعقد القضية المعدولة للحقّ تعالى غير جائز، لأنّه مثبتٌ للجّهات الإمكانية، ومستلزمٌ للتركيب في الذات المقدّسة؛ بل الأوصاف السلبية بطريق السلب المطلق البسيط وهو سلب الصّفة لا إثبات صفة سلب السلب. وبعبارة أخرى، النّقائص مسلوبة عن الحقّ تعالى بالسلب البسيط لا أنّ سلب النّقائص ثابت له بطريق الإيجاب العدوليّ. فالصفات التنزيهية ليست بصفات على الحقيقة،

وَأَمَّا الْحَقُّ تَعَالَى مَتَّصِفٌ بِالصِّفَاتِ الثَّبُوتِيَّةِ فَقَطْ.

وَأَمَّا الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ: فَإِنَّ صِفَاتِ الْجَمَالِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ صِفَاتٌ يَحْصُلُ مِنْهَا الْأَنْسُ وَالتَّعَلُّقُ، وَصِفَاتِ الْجَلالِ صِفَاتٌ يَحْصُلُ مِنْهَا الْوَحْشَةُ وَالْحَيْرَةُ وَالْهِيمَانُ، فَمَا كَانَ مُتَعَلِّقًا بِاللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ، كَالرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ وَاللَّطِيفِ وَالْعَظُوفِ وَالرَّبِّ وَأَمْثَالِهَا، وَمَا كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْقَهْرِ وَالْكِبْرِيَاءِ فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْجَلالِ، كَالْمَالِكِ وَالْمَلِكِ وَالْقَهَّارِ وَالْمُنْتَقِمِ وَأَمْثَالِهَا، وَإِنْ كَانَ فِي سِرِّ كُلِّ جَمالٍ جَلالٌ، لِأَنَّ كُلَّ جَمالٍ يَسْتَبْطِنُ حَيْرَةً وَهِيمَانًا وَيُظْهِرُ لِلْقَلْبِ بِسَرَ الْعِظَمَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَكُلَّ جَلالٍ فِي بَاطِنِهِ الرَّحْمَةُ. وَالْقَلْبُ يَأْنَسُ بِهِ بِاطْنًا، وَلِهَذَا كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ يَفْطُرُهُ مَجْذُوبٌ لِلْجَمالِ وَالْجَمِيلِ، فَهُوَ كَذَلِكَ مَجْذُوبٌ لِلْقُدْرَةِ وَالْعِظَمَةِ وَالْقَادِرِ وَالْعَظِيمِ، فَهَذَانِ النَّوعَانِ مِنَ الصِّفَاتِ ثَبُوتِيَّةٌ لَا سَلْبِيَّةٌ.

فَإِذَا عَلِمَ هَذَا الْمَطْلَبُ فَاعْلَمْ أَنَّ (اللَّهَ)، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ وَأَنَّ صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلالِ مِنْ تَجَلِّيَّاتِهِ وَتَحْتَ حَيْطَتِهِ، لَكِنْ رُبَّمَا يُطْلَقُ عَلَى صِفَاتِ الْجَمَالِ مُقَابِلَ صِفَاتِ الْجَلالِ، مِثْلَمَا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ وَالْأُلُوْهِيَّةَ رَاجِعَتَانِ إِلَى صِفَاتِ الْجَمَالِ نَوْعًا، وَخُصُوصًا إِذَا وَقَعَتَا فِي مُقَابِلِ صِفَةِ الْجَلالِ.

وَفِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ "أَحَدٌ" إِشَارَةً إِلَى إِحْدَى أَمْهَاتِ صِفَاتِ الْجَلالِ وَهِيَ مَقَامُ كَمالِ بَساطَةِ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ، وَ"اللَّهُ" إِشَارَةً إِلَى اسْمِ الْجَمالِ؛ فَفِي الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ قَدْ عُرِفَتْ نِسْبَةُ الْحَقِّ تَعَالَى بِحَسَبِ مَقَامِ الْأَحْدِيَّةِ وَالْوَحْدِيَّةِ وَالتَّجَلِّيِّ بِالْفَيْضِ الْأَقْدَسِ - وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ جَمِيعُ الشُّؤْنِ الْإِلَهِيَّةِ - بِنَاءً عَلَى الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ الَّذِي ذَكَرَ قَبْلَ هَذَا التَّنْبِيهِ، وَبِنَاءً عَلَى الْإِحْتِمَالِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا التَّنْبِيهِ، عُرِفَتْ نِسْبَةُ الْحَقِّ تَعَالَى بِحَسَبِ مَقَامِ الْأَسْمَاءِ الْجَمالِيَّةِ وَالْجَلالِيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ، وَاللَّهُ الْعَالَمُ". [مِراجِعُ الشَّاكِلِينَ].



"اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوُصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ
الْكَبِيرِ، إِنْ تُؤَمِّلْ فَخَيْرٌ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَعْ
فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ".



تكثر المظاهر
وأسماء الله

تكثر المظاهر وأسماء الله

إنَّ رحلة الإنسان نحو معدن العظمة تقتضي الاتصال ببحر العظمة المطلقة. وليست العظمة المطلقة سوى تجلّي الذات بما لا يتناهى من الكمالات. فهذه التجليات المطلقة التي لا تكرر فيها هي الأسماء. ولهذا، كانت أسماؤه تعالى من هذه الحيشة لا متناهية.

لكن لما اقتضت حكمة التدبير للإنسان أن ينطلق من بداية، على طريق التحرر من سجن الغفلة والهجران، وكانت اللغة والبيان من أوائل عوامل تحريك الفكر، وكان التفكير والبحث عن الحقيقة بالنسبة للمحجوبين أول منزل من منازل سلوكهم المعنويّ وعروجهم الرّوحانيّ، فإنَّ الله تعالى جمع كليّات الكمال في قوالب المفاهيم والألفاظ. حتّى إذا قام الإنسان لمهمة السير الفكريّ وجال بعقله في معاني ألفاظ الأسماء الإلهيّة، فأحكم مبانيه ورسّخ جذوره، فسوف ينفّث على قلبه باب المسير الشّهوديّ القلبّي بنور الحب الجاذب الذي يأخذه حتى يصل إلى مقام التحقق بحقيقة الأسماء. يقول الإمام الخمينيّ رحمته الله: "ففي البداية تكون تسمية السّالك عبارة عن الاتّصاف بالسّمات والعلامات الإلهيّة، ثم يترقّى عن هذه المرتبة ويصل

بنفسه إلى مقام الاسمية، وهذا أوائل قرب النافلة، فإذا تحقّق بقرب النافلة نال تمام الاسمية فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبودية، وإذا وصل أحد إلى هذا المقام تقع جميع صلاته بلسان الله. وهذا يتحقّق في القليل من الأولياء. وأما للمتوسّطين وأمثالنا الناقصين فالأدب أن نسّم القلب بسمه العبوديّة ووسمتها عند التسمية، ونخبر القلب عن سمات الله والآيات والعلامات الإلهيّة، ولا نكتفي بقلق اللسان. فلعلّ من العناية الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منّا، وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود". [معراج السالكين].

وإنّ من أهمّ علامات الانتقال من الفكر الصائب إلى القلب الثابت، التوجّه إلى العوالم والحضرات الإلهيّة لأنّها منصّات العروج في سماوات الارتقاء. وحينها، سيحصل له التعلّم الحقيقي للأسماء كلّها. وسيكون له شرف معرفة الأشياء بحقيقتها، وهو مقام ظهور الوحدة في الكثرة حيث لا بعد ولا احتجاب. "وسأل أحدهم أبا عبد الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا مَاذَا عَلَّمَهُ؟ قَالَ الْأَرْضِينَ وَالْجِبَالَ وَالشَّعَابَ وَالْأَوْدِيَةَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بَسَاطٍ تَحْتَهُ فَقَالَ: وَهَذَا الْبَسَاطُ مِمَّا عَلَّمَهُ". [بحر الأنوار، الباب 2].

وأنت لو تدبّرت في معنى التجلّي، لعلمت أنّه لا يمكن أن يحصل فيه التكرار والتشابه. فإنّ تكرار الإبداع من نقص الإبداع. وقد علمت أنّ الله تعالى ليس لعظمته حدّ ولا لإبداعه منتهى. فهو تعالى يتجلّى في كلّ مخلوق بكمال لا يكون في المخلوق الآخر.

لعلّ النّزعة العنصريّة الاستعلائيّة عند البشر وغلبة الحاجة والتملك قد حملتا الإنسان على التعامل مع كل الأشياء من حوله بعد وضعها في قوالب جاهزة وتصنيفها في خانات الأنواع والأجناس؛ فخسر بذلك فرصة التعرّف على الكثير من خصائصها المتباينة وفروقاتها المميّزة وهويّاتها الحقيقيّة.

تظهر آثار النزعة الاستعلائية في المعرفة في العديد من الأمثلة اليومية. منها عندما ينظر بعض الأقوام إلى الصينيين مثلاً فيرونهم متشابهين جداً، وبصعب عليهم التفریق بينهم. وقد يتعجب العربي من الصيني إذا نظر إلى العرب ولم يرههم متمايزين.

وتظهر آثار الحاجة في المعرفة على سبيل المثال، عندما يضطر الإنسان للتعامل مع مجموعة كبيرة من النحل دفعة واحدة. فهو غير محتاج لتحديد كل نحلة باسمها وصفاتها، كما يحصل مع مربّي الخيول مثلاً. ولهذا، قد يتعجب هذا الإنسان إذا قلنا له إنه لا يوجد نحلة تتشابه من جميع الجهات مع أية نحلة أخرى.

فكل مخلوق ذراه الله تعالى في كيان واحد وعبر مسيرة ولادة وموت خاصة به، يُعد كياناً مستقلاً عن كلّ الكيانات الأخرى، فيصيح عليه أنه تجلّ لله. فيكون بحسب هذا الفهم اسماً إلهياً. يقول الإمام عليه السلام: "ولعلك بعد التدبر في روح الاسم، والتفكر في حقيقته، ومطالعة دفتر سلسلة الوجود وقراءة أسطره، ينكشف لك بإذن الله وحسن توفيقه أنّ سلسلة الوجود ومراتبها ودائرة الشهود ومدارجها ودرجاتها كلّها أسماء إلهية". [شرح دعاء الشجر].

ولما كانت كائنات عوالم الوجود غير متناهية، فهذا يعني أنّ أسماء الله هي أيضاً غير متناهية.

وفي عالم التدوين، كان القرآن مظهر الكتاب الذي لا نهاية لآياته؛ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِداداً﴾، فأيات الكتاب هي آيات عظمة الله وأسمائه: "إِنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لَخَلْقِهِ فِي كِتَابِهِ وَلَكِنْ لَا يَبْصُرُونَ". ولما كانت كل آية مفسرة لغيرها من الآيات، كما جاء في الحديث "أن القرآن يفسر بعضه بعضاً"، فإن الآيات الحاصلة من عملية تفسير كل آية لغيرها من الآيات سوف تكون لا متناهية أيضاً.

أجل، إِنَّ السَّيرَ في عالم التكوين إلى حقيقة الأشياء وأسمائها (التي هي جهة انتسابها إلى الاسم الأعظم) لا يتحقق بتمامه إلا بقيادة ولي الله الأعظم الذي كان له مقام الخلافة العظمى؛ كما أَنَّ السَّيرَ في آيات الله التدوينية من أجل تلقي بيانها وظهور عظمة الله فيها، لا يكون إلا باتباع هذا الولي الذي كان له مقام شراكة القرآن وترجمانه. "وبالجملة، لا بدّ للسَّالك إلى الله في وقت التَّسمية أن يفهم قلبه أَنَّ جميع الموجودات الظاهرة والباطنة، وجميع عوالم الغيب والشهادة، تحت تربية أسماء الله، بل ظاهرة بظهور أسماء الله وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيوميَّة الاسم الأعظم". [مراج السالكين].

وعندما يهاجر السَّالك من عالم الخلق، ويخرج من هذه الدُّنيا الدنِّية، ويفكّ قيود الهوى، ويتحرَّر من سجن النَّفس، وينتقل إلى عالم الحقِّ، سوف يجد أمامه سفرًا لا نهاية له. وهذا هو أحد أسباب الخلود وأسراره. وما كان لهذا السَّفر أن يتحقَّق لولا تجلِّي الرَّبِّ المتعال على قلب العبد المهاجر، بحسب كل يوم هو في شأن، بعد أن اتَّسع هذا القلب الأمين، حين ضاقت السَّمَاوَات والأَرْض بتلك التجليات.

يقول الإمام: "فاعلم أَنَّ الاسم عبارة عن الذَّات مع صفة معيَّنة من صفاته، وتجلّ من تجلّياته، فَإِنَّ الرحمن ذات متجلّية بالرحمة المنبسطة، والرحيم ذات متجلّية بالتجلّي بالرحمة التي هي بسط الكمال، والمننقم ذات متعيَّنة بالانتقام. وهذا أوَّل تكثُر وقع في دار الوجود، وهذا التَّكثُر في الحقيقة تكثُرٌ علميٌّ. وشهود ذاته يكون في مرآة الصِّفات والأسماء والكشف التفصيلي في عين العلم الإجمالي. وبهذا التجلي الأسمائي والصفات انفتح باب الوجود وارتبط الغيب بالشهود، وانبسّطت الرَّحمة على العباد والنَّعمة في البلاد. ولولا التجلّي الأسمائي لكان العالم في ظلمة العدم وكدورة الخفاء

ووحشة الاختفاء لعدم إمكان التجلّي الذاتي لأحد من العالمين، ولا على قلب سالك من السالكين، إلّا في حجاب اسم من الأسماء وصفة من الصفات. وبهذا التجلّي شهد الكمل الأسماء والصفات ولوازمها ولوازم لوازمها إلى أخيرة مراتب الوجود ورأوا العين الثابت من كلّ حقيقة وهويّة، وكان التجلّي ببعض الأسماء مقدّماً على بعض، فكلّ اسم محيط وقع التجلّي ابتداءً له وفي حجابهِ للاسم المحاط فاسم - الله والرحمن - لإحاطتهما يكون التجلّي لسائر الأسماء بتوسطها، وهذا من أسرار سبق الرحمة على الغضب، وليكون التجلّي باسم الله على الأسماء الآخر أولاً، وتوسطها على الأعيان الثابتة من كلّ حقيقة ثانياً، إلّا العين الثابت للإنسان الكامل، فإنّ التجلّي وقع له ابتداءً بلا توسط شيء، وعلى الأعيان الخارجية ثالثاً، وفي التجلّي العينيّ أيضاً، كان التجلّي على الإنسان الكامل باسم الله بلا واسطة من الصفات أو اسم من الأسماء، وعلى سائر الموجودات بتوسط الأسماء. وهذا من أسرار أمر الله بسجود الملائكة لآدم عليه السلام، وإن جهل بحقيقة هذا الشيطان اللعين، لقصوره. ولولا تجلّي الله باسمه المحيط على آدم عليه السلام لما تمكّن من تعلّم الأسماء كلّها، ولو كان الشيطان مربوب اسم الله لما وقع الخطاب على سجدة ولما قصر عن روحانيّة آدم عليه السلام؛ وكون آدم مظهر اسم الله الأعظم اقتضى خلافته عن الله في العالمين". [شرح دعاء السحر].

العرفان الحقيقيّ هو الذي يعبر بالسالك من عالم الألفاظ إلى المفاهيم، ومن المفاهيم إلى شهود الحضرات من منصّة العوالم، فيتحقّق سفره الواقعيّ بطبيّة تلك المراتب الوجوديّة. والعارف الحقيقيّ هو الذي يقتفي أثر النبيّ الأعظم في معراجهِ ويسعى لرؤية ما رآه بفؤاده. فهذه هي الرّحلة العرفانيّة التي تشقّ أبواب السّماوات إلى قاب قوسين أو أدنى، والتي تتوجّ بالرجوع إلى الخلق لهدايتهم.

"لقد سقط موسى الكليم بحال الصعق نتيجة تجلي الحق، وأفاق بعناية الإلهية خاصة، ثم أمر بتحمل الأمر، وكذا فإن خاتم النبيين، الرسول الأكرم أمر بعد بلوغه القمة من مرتبة الإنسانية - وما لا تبلغه الأوهام من مظهرية الاسم الجامع الأعظم - بهداية الناس بعد أن خاطبه تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾". [وصفا عرفانية]

"اللهم صل على محمد وآله واجعلنا من الدعاة الداعين إليك والهداة الدالين عليك وخاصتك الخاصين لديك". (الإمام زين العابدين، الصحيفة السجادية).

ولا شك بأن عالم المفاهيم الذي ينقسم إلى التصور - وهو ابتلاء طلاب العلم الأكبر - والتصديق والحكم، إنما تطول مدة عبوره بمقدار ما يعيشه المرء من شكوك وأوهام؛ وقد تكاثرت هذه الشبهات في زماننا هذا، من كثرة القائلين وعبث الملحدّين: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لهذا، ينبغي إحكام الأصول وإتقان التفريع منها، فتشاد البنية المعرفية الأولى، ويرتفع بناؤها ليكون قاعدة لرحلة بلوغ العجز العرفاني عن إدراك الحقيقة الكبرى. هؤلاء هم العارفون بالله وقد سَمَّاهم الله الراسخين في العلم، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): "وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الْأَقْرَارُ بِجُمْلَةٍ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللَّهُ - تَعَالَى - اغْتِرَافَهُمُ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفَهُمُ الْبَحْثُ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تُقَدَّرُ عَظَمَةُ اللَّهِ شُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ". [بهيج البلاغة].

والأصل الأول في معرفة الأسماء والتجليات الإلهية هو أنها ليست أموراً زائدة على الذات المقدسة. "واعلم أن الأسماء والصفات الإلهية كلها

كمال بل نفس الكمال، لعدم النقص هناك حتى يُجبر، وكلّ كمال هو ظهور كمال الأسماء الإلهية وتجلياتها، وأكمل الأسماء هو الاسم الجامع لكلّ الكمالات ومظهره الإنسان الكامل المستجمع لجميع الصفات والأسماء الإلهية ومظهر جميع تجلياتها. ففي الأسماء الإلهية اسم "الله" أكمل، وفي المظاهر الإنسان الكامل أكمل". [شرح دعاء السحر].

والأصل الثاني، إنّ ذات الحقّ تعالى أكبر من أن توصف؛ وهو مقام نفى الصفات المعبر عنه بكمال الإخلاص لله الذي ينبع من كمال التوحيد. ويعني ذلك أنّ هذه التجليات مهما عظمت تبقى قاصرة عن إظهار ما في غيب الذات بمعزل عن مدى معرفتنا أو إحاطتنا بها. يقول الإمام: "اعلم يا حبيبي وفقك الله لمعرفة أسمائه وصفاته، وجعلك من المتدبرين في أسرار آياته، أنّ الأسماء الحسنی الإلهية والصفات العليا الربوبية حُجِبَ نورية للذات الأحدية المستهلك فيها جميع التعینات الأسمائية المستجنّ في حضرتها كل التجليات الصفاتية، فإنّ غيب الهوية والذات الأحدية لا يظهر لأحد إلّا في حجاب التعین الاسميّ، ولا يتجلّى في العالم إلّا في نقاب التجليّ الصفاتيّ، ولا اسم له ولا رسم بحسب هذه المرتبة، ولا تعین له ولا حدّ لحقيقته المقدسة، والاسم والرسم حدّ وتعین، فلا اسم ولا رسم له لا بحسب المفهوم والماهية ولا بحسب الحقيقة والهوية لا علماً ولا عيناً، وليس وراءه شيء حتى يكون اسمه ورسمه. سبحانه من تنزّه عن التحديد الاسميّ، وتقّدس عن التعین الرسميّ. والعالم خيال في خيال، وذاته المقدسة حقيقة قائمة بنفسها، ولا تنكشف الحقيقة بالخيال، كما هو قول الأحرار من الرجال. فالمفاهيم الأسمائية كلّها والحقائق الغيبية بمراتبها تكشفان عن مقام ظهوره وتجليه أو إطلاقه وانبساطه. فالوجود المنبسط ومفهومه العام لا يكشفان إلّا عن مقام إطلاقه.

قال الشيخ صدر الدين القنوي في مفتاح الغيب والشهود: فللوجود اعتباران أحدهما نفس كونه وجوداً فحسب، وهو الحقّ وإنّه من هذا الوجه، كما سبقت الإشارة إليه، لا كثرة فيه ولا تركيب ولا صفة ولا نعت ولا رسم ولا اسم ولا نسبة ولا حكم، بل وجودٌ بحت. وقولنا "وجود" للتفهم، لأنّ ذلك اسم حقيقيّ له، بل اسمه عين صفته، وصفته عين ذاته". [شرح دعاء السحر].

والأصل الثالث، إنّ الأسماء الإلهيّة لما كانت تجلّيات الذات المقدّسة، فهي دليل السالك نحو كمال الانقطاع إلى ذات الحقّ تعالى، وإن كانت قاصرة عن الدلالة عليها من حيث المعرفة والإحاطة. ولهذا كان السّير بالأسماء من أعظم الطّرق إلى الذات وإلى الفناء في التوحيد، بل هو الطّريق الوحيد الذي ارتضاه الله لنفسه.

والأصل الرّابع أنّ الأسماء الإلهيّة، لما كانت عين الذات من جهة، والذات وحدة صرفة، فهي عين بعضها البعض. ويشهد على ذلك شهادة حقيقيّة الاسم الله كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فالقدير في الصّقع الرّبوبيّ هو عين العليم، والحَيّ من منظر التجلّي الأعظم هو عين السّميع، وهكذا؛ بالرّغم من التّباین المفهوميّ بينها والاختلاف اللفظيّ فيها.

"فإذا أفاق بتوفيقات محبوبه عن هذا الهيمان والدّهش وصحاح عن المحو أمكنه التمييز والفرقة لتمكّن الشهود فيه واستقامته واستقراره وحفظه الحضرات الخمس يرى أن الصّفات التي يراها في الصّحو الأوّل بعضها أبهى وبعضها بهيّ وبعضها أكمل وبعضها كامل، كلّها من تجلّيات ذات أحديّ محض ولغات جمال نور حقيقيّ بحت. فلا يرى في هذا المقام أفضلية وأشرفيّة، بل يرى كلّها شرف وبهاء وجمال وضياء، فيقول: "كلّ بهائيك بهيّ وكلّ شرفك شريف"، لم يكن أشرفية في البين، وتكون كلّها

أمواج بحر وجودك ولمعات نور ذاتك، وكلّهما متّحدة مع الكلّ، وكلّهما مع الذات. فإثبات التفضيل في الصحو الأوّل، ونفيها في الصحو بعد المحو مع إرجاع الكثرات إليه". [شرح دعاء السحر].

والأصل الخامس هو أنّ انعكاس تجلّيات الأسماء في الحضرات الإلهيّة هو سر ظهور عوالم الوجود بحسب ترتيب التنزل والترقي، فتكون هذه العوالم منازل العروج. ولهذا صارت الأسماء من هذه الجّهة مترتبة؛ فمنها المحيط ومنها المحاط؛ لأنّ ترتيب عوالم الوجود إنّما يكون بالإحاطة والمحاطيّة، لا كما يتصوّر الجاهل بأنّها كدرجات السّلم إذا صعدت منه درجة جافيت الدّرجة السّابقة. يقول الإمام الخميني: "إنّ الخلافة والولاية بمقامهما الغيبيّ - الذي لا يتعيّن بتعيّن، ولا يتّصف بصفة، ولا يظهر في مرآة - لا يكون لهما هيئة روحانيّة أصلاً. وأمّا بمقام ظهورهما في صور الأسماء والصفّات وانعكاس نورهما في مرائي التّعينات، فهما على هيئة كرات محيطيّة بعضها ببعض. ولكنّ الأمر في الكرات الإلهيّة والروحانيّة على عكس الكرات الحسيّة: فإنّ الكرات الحسيّة يحيط محيطها بمركزها، وفي الكرات الإلهيّة والروحانيّة يحيط مركزها بمحيطها، بل المحيط فيها عين المركز باعتبار.. لا تتوهم أنّ الإحاطة بتلك الكرات، كالإحاطة بالكرات الحسيّة من كون بعضها في جوف بعض وتماس سطوح بعضها بسطوح بعض. فإنّ ذلك توهم فاسدٌ وظنٌّ باطل. فاخرج من هذا السّجن واترك دار الحسّ والوهم، وارقْ إلى عالم الروحانيات، وابعث نفسك من هذه القبور الهالك سكانها الظالم أهلها". [لطائف عرفيّة].

"إنّ من الصّفات الإلهيّة ما لها المحيطيّة التّامة على سائر الصّفات كالأئمة السّبعة، ومنها ما لم يكن كذلك، وإن كانت له المحيطيّة والمحاطيّة أيضاً. وبهذا يمكن تحصيل الفرق بين صفة البهاء والجمال، فإنّ البهاء هو

الضياء المأخوذ فيه الظهور والبروز دون الجمال". [شرح دعاء السحر].

والأصل السادس، إِنَّ للتجلّي الأعظم حضوراً مع ذرات جميع المراتب الوجودية والحضرات الإلهية، كل بحسب مرتبته. وله المعية القيومية لكل الأشياء. كيف لا وهو مربوب الذات بلا توسط شيء إلا الاسم المستأثر الذي له تلك المنزلة الرفيعة.

"إِنَّ الإنبياء والتعليم بحسب نشآت الوجود ومقامات الغيب والشهود مختلف المراتب. ولكنّ الجامع لها هو حقيقة الإنبياء والتعليم. فمرتبة منها حصلت لأصحاب سجن الطبيعة وأهل القبور المظلمة في عالم الطبيعة. ومرتبة لأهل السرّ من الروحانيين والملائكة المقرّنين. ومن ذلك تعليم آدم. ومرتبة الحقيقة الإطلاقيه من حضرة الاسم الأعظم ربّ الإنسان الكامل. ومرتبة الأعيان الثابتة من حضرة العين الثابتة المحمديّة. ومرتبة عالية لحضرة الأسماء في مقام الواحدية والنشأة العلميّة الجمعيّة من حضرة الاسم "الله" الأعظم بمقامه الظهوري لا الغيبي. وفوق ذلك لا يكون إنباء وظهور، بل بطون وكمون". [لطائف عرفانية].

وفي كلّ مرتبة وجوديّة يحصل لهذا التجلّي تكثر أسمائي. كما هو الحال بالنسبة للضوء المنعكس من المنشور سبعة أشعة ملوّنة منظورة وإشعاعات أخرى غير مرئيّة (كالأشعة البنفسجية والأشعة ما تحت الحمراء)، فالمرئيّ منها يدلّ عليه، وما خفي منها هو جهة الارتباط بالاسم المستأثر الذي هو باطن كلّ ظاهر والمطلق في كلّ مقبّد. "وأما حقيقة الاسم فإنّ لها مقاماً غيبياً وغيب الغيبيّ، وسرّاً وسرّ السريّ، ومقام ظهور وظهور الظهور، وحيث أنّ الاسم علامة الحقّ وفان في الذات المقدّسة، فكلّ اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة، وأبعد عن عالم الكثرة، فهو في الاسميّة أكمل، وأنم الأسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات حتّى عن الكثرة العلميّة، وهو التجلّي الغيبيّ

الأُحَدِيّ الأَحْمَدِيّ فِي حَضْرَةِ الدَّاتِ بِمَقَامِ الْفَيْضِ الْأَقْدَسِ". [معراج الشفّاقين].
والأصل السّابع، إنّ لمفاهيم الأسماء الإلهيّة، التي يعبر عنها باسم الاسم،
ويكون اللفظ الحاصل منها اسم اسم الاسم، ترتيبٌ خاصٌّ بحسب حركة
الدّهْن من الأصل إلى الفرع، ومن الكلّي إلى الجزئيّ. "الْأَسْمَاءُ الإِلَهِيَّةُ وَإِنْ
لَمْ تَكُنْ بِحَسَبِ الْمَنَاحِكَاتِ وَالْمَوَالِدَاتِ مُحْصُورَةً، وَلَكِنَّهَا بِحَسَبِ الْأُمّهَاتِ
مُحْصُورَةٌ: يَجْمَعُهَا بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَبِاعْتِبَارِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾
الآيَةُ، وَبِاعْتِبَارِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَمَا أَنَّ مَظَاهِرَ الْأَسْمَاءِ بِالْإِعْتِبَارِ الْأَوَّلِ
غَيْرِ مُحْصُورَةٍ ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: 34)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ
الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف: 109).
وبالاعتبار الثاني محصور بالعوالم الثلاثة أو الخمسة وقيل ظهر الوجود
ببسم الله الرحمن الرحيم. كذلك الاعتباران في الصّفات، فإنّها بالاعتبار
الأوّل غير محصورة، وبالاعتبار الثاني محصورة في الأتمة السّبعة أو
صفات الجلال والجمال. تبارك اسم ربّك ذي الجلال والإكرام. [نوح دعاء السحر].
والأصل الثّامن هو أنّ الأسماء بحسب التجلّي من الحقيقة لا حدّ لعددها
بل التعبير بالعدد في الإطلاق من ضيق الخناق. وليس بين المطلق والمحدود
سنخية حتّى يندرج ضمن المعدود.



"اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوُضْءِ الْجَمِيلِ،
وَالْتَّعَدَادِ الْكَبِيرِ، إِنْ تُؤَمِّلْ فَخَيْرٌ مَأْمُولٍ،
وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوءٍ."



العوالم
والحضرات الإلهية

العوالم والحضرات الإلهية

إنَّ رحلة الإنسان المعرفيّة وسفره العلميّ ما لم يكن سيراً في عوالم الوجود، فإنّه لن يصل به إلى الغاية المنشودة. فإذا نظرنا إلى هذه العوالم من جهة "يلي الخلقى"، وانطلقنا للتعرف على حقائقها في السير المعنوي، فإنّها ستكون المحلّ الذي تحضر فيه العظمة الإلهيّة، بحسب سعة كل عالم وقابليّاته؛ هكذا تتشكل الحضرات الإلهيّة.

وإنَّ الرابطة بين السالك والعوالم لا تنحصر في إطار الشاهد والمشهود؛ بل هي علاقة تفاعل وتكميل. ولهذا، كان لكلّ إنسان طريقه الخاص به بحسب ما يحققه في هذه العوالم. فكل سالك سيصنع منصّة عروجه بيده عالماً بعد عالم! وهذا هو أحد معاني "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق"، التي تمثّل الخطوط الكثيرة على الصّراط المستقيم والشرّيعه الواحدة.

إنَّ الإيمان بوجود العالمين شرطٌ أساسيٌّ ومقدّمة ضروريّة للتوجّه إليها والاستعداد للتّفوذ فيها. كما أنّ انكشافها أمام السالك ضرورة لسلوكه فيها. فقولُه تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ

أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ»، يكشف بعض أسرارهِ قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» حيث يبيِّن سرَّ وسيلته بقوله تعالى: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ».

وقد تحقّق بمصداق اليقين الأعظم رسول الله ﷺ، وظهر ذلك اليقين في إسرائهِ إلى المسجد الأقصى الذي هو في السموات السبع، من خلال السَّير في مراتب العبودية «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى». وعبور الليل إشارة إلى خرق حجاب عالم الطبيعة المظلم.

ولأجل تسهيل مهمة الإنسان جعل الله عالم الطبيعة مثال العالم الأعلى، وجعل العالم الأعلى مثال ما هو أعلى منه، حتّى ينتهي إلى أخيرة العوالم وهو جنة المقام، وفسّر بعضهم قول أهلها «هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوبُ بِهِ مُتَشَابِهًا» بهذا المعنى.

ولو لم يكن بين العوالم أي نوع من السنخية والتشابه والاشتراك، لما تمكّن أحد من عبور عالمه الأول، ولبقي الجميع قابعين فيه؛ لأنهم والحال هذه سينتكرون للعالم الأعلى إذا انكشف لهم، كما ينكر من عمي في هذا الحياة عن جمال ربّه سبحانه عندما يتجلّى له بجماله المطلق يوم القيامة. "إِنَّ كُلَّ عَظْمَةٍ وَجَلال وَكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزلت إلى هذا العالم، وإنّ عالم الملكوت في جنب العوالم الغيبية ليس له قدر محسوس.. فنفهم القلب أنّ العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحق، وأنّ الحق تعالى حاضر في جميع الأمكنة والأحياء". [مراج السالكين].

ولهذا، كان السير في هذا العالم مطلوباً، واستيفاء حظنا منه مرغوباً، حتى نتمكّن من الاستعداد للانتقال إلى الأعلى منه بشرط عدم الاستغراق

فيه. فإنَّ الاستغراق في أي عالم يعدّ من موانع السير والعبور إلى ما هو أعلى منه. سواء كان الاستغراق في كلياته أو جزئياته.

ولهذا نجد طائفة أصرّت على السّفر إلى الله في عالم الأفكار دون أن تعرف قيمة العوالم، ففرقت في عالم الكليّات واستغرقت حتّى أضاعت معانيها وحقائقها؛ وانقطعت رابطتها الوجودية معها، حينما جهلت تعليم الأسماء وتنكبت عن خلافة الأولياء.

وطائفة أخرى حرمت من حقائقها حينما أصرّت على نفي معانيها الكلية وغضّت النظر عن التفكّر في فلسفة وجودها.

ففي كل شيء من العالم الأدنى مثال من العالم الأعلى، لو تمكّنت من إدراك حقيقته الأولى لعبرك إلى عالمه الأعلى. وإنما تحصل هذه المعرفة لمن بحث عن سرّ ارتباط الأشياء بحقائقها وأسمائها التي هي أسماء الله تعالى، وعن معنى كونه آية له سبحانه.

إن جميع ذرات أي عالم تتصل فيما بينها ضمن خطة إلهية وتدير ربّاني، فمن عرف الروابط بينها وأدرك فلسفة وجودها في هذه الخطة الإلهية استطاع أن يناديها باسمائها، فتتصاع له وتنقاد لولايته، فيتحقق سفره بها عبر آفاق عوالم الوجود.

إن عالم الطبيعة كان في بدء الخلافة وسيلة للانطلاق في أقطار السماوات؛ لكنّ النَّاسَ جهلوا فلسفته وأسأوا تسخيرَه، فصعب السير منه والنفوذ في أقطاره.

وعلى سبيل المثال انظر إلى الماء في عالم الطبيعة، تراه محور حياتها. يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. والحياة على الأرض هي عبارة عن جهة انتساب هذه الأرض واتصالها بالسّماء التي هي فيض الحياة. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

لِقَادِرُونَ». ولو أدر كنا قيمة الماء على الأرض وأحسنًا استعماله ولم نبذلّه إلى ماء أجاج بذنوبنا وأخطائنا، لا نكتشف لنا ماء السماء الأولى وعالمها. يقول الإمام الخميني رحمته: "أهل المعرفة يعبرون بالماء عن الرَّحمة الإلهية الواسعة التي نزلت من سماء "رفيع الدرجات" لحضرة الأسماء والصفات وأحيى بها أراضي تعينات الأعيان. وحيث أن تجلّي الرَّحمة الإلهية في الماء الملكي الظاهري أكثر من سائر الموجودات الدنيوية. بل ماء رحمة الحقّ تعالى إذا نزل وظهر في كلّ نشأة من نشآت الوجود، وفي كلّ مشهد من مشاهد الغيب والشهود، يظهر ذنوب عباد الله وفقًا لتلك النشأة وبما يناسب ذلك العالم. فبماء الرَّحمة النازل من سماء الأحديّة تطهر ذنوب غيبة تعينات الأعيان. وبماء الرَّحمة الواسعة النازلة من سماء الواحديّة تطهر ذنوب عدميّة الماهيات الخارجيّة". [معراج السالكين].

فانظر إلى أهل السّماء من أبناء الأرض الذين عبروها بواسطة القتل في سبيل الله، كيف رزقوا الحياة الحقيقيّة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ﴾.

وقد جعل الله نومنا آية عظيمة لهذا العبور؛ فهو تعالى يتوفّى الأنفس بقطعها عن عالم الطّبيعة. وإنّما ترى النفوس من العوالم الغيبية أثناء عبورها بقدر سعة القلوب، وإنّما تتذكّر ما رآته بعد يقظتها بحسب قوة التوجّه وضعفه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وإذا تذكّرت ما رآته في منامها مجرداً ممزجاً بالقوالب الحسية، احتاجت إلى من يعبره لها. فلم تتذكّر منه إلّا المثل الأعلى. وحرمت من حقيقته الأولى ومثاله الأعلى.

إنّ اهتمام العارف بالكشف عن العلائق بين عوالم الوجود يرجع بالدرجة

الأولى إلى كونها ممرات عبوره وطرق سفره. وهذه العلائق تشبه مفاتيح رموز أفعالها: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾. وإن وجه ارتباط الأمثال في كل العوالم هو جهة ارتباطها بحقيقتها المطلقة وهو الله تعالى. وهذا هو معنى الآيتية في كل شيء، ويفضل ما يؤتى العبد منها تكون له ولاية التسخير وسلطنة التصرف وقوة النفوذ

"وأول استدعاء وسؤال وقع في دار الوجود هو استدعاء الأسماء والصفات الإلهية بلسان مناسب لمقامها وطلب الظهور في الحضرة الواحدة من حضرة الغيب المطلق، فأجابها بإفاضة الفيض الأقدس الأرفع والظلل الأبسط الأعلى في الحضرة الجمعية؛ فظهرت الأسماء والصفات. والأول من الأسماء هو الاسم الجامع ربّ الإنسان الجامع الحاكم على الأسماء والصفات الإلهية والظاهر بظهورها، ثم بتوسطه سائر الأسماء على ترتيبها من الحبيطة والشمول.

وبعد ذلك سؤال الأعيان الثابتة وصور الأسماء الإلهية. والأول من بينها هو صورة الاسم الجامع والعين الثابت الإنساني، ثم سائر الأعيان بتوسطه، لأنّها من فروعه وتوابعه في الوجود وكمالات الوجود في سلسلتي النزول والصعود، وهو الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء والأرض. ثم استدعاء الأعيان الثابتة الممكنة وهي الأسماء الإلهية في الحضرة العلمية لظهورها في العين والشهادة فأجابها بالفيض المقدّس والظلّ المنبسط على ترتيبها بتوسطه. ألم ينكشف على سرّ قلبك وبصيرة عقلك أنّ الموجودات بجملتها من سماوات عوالم العقول والأرواح وأراضي سكينة الأجساد والأشباح هي من حضرة الرحموت التي وسعت كلّ شيء وأضاءت بظلمها ظلمات عالم الماهيات وأنارت ببسط نورها غواصق هياكل القبايل" [شرح دعاء السحر].

وجاء ربك

إِنَّ الْعَوَالِمَ كُلَّهَا بِحَقِيقَتِهَا (التي هي مظاهر الأسماء الإلهية في الحضرات) إشعاعات نور الذات، فتكون من هذه الجهة الإلهية قديمة، وهذا هو معنى قدم المنّ. يقول الإمام الخميني عليه السلام: "وقوله "وكل منك قديم" أصرح شاهد على ما عليه أئمة الحكمة المتعالية وأصحاب القلوب من أهل المعرفة من قدم الفيض، وهو باعتبار كونه ظلاً للمقديم قديم بقدمه لا حكم لذاته أصلاً بل لا ذات له، وإن كان من جهة يلي الخلق حدث بحدوثها، فالحدوث والتغير والزوال والدثور والهلاك من طباع الماهيات وجبلة الممكنات وقرية المادّة الظالمة وشجرة الهيولى المظلمة الخبيثة، والثبات والقدم والاستقلال والتّمامية والغنى والوجوب من عالم القضاء الإلهي والظلّ النوراني الربّاني لا يدخل فيه تغير ودثور ولا زوال ولا اضمحلال، والإيمان بهذه الحقائق لا يمكن بالتسويات الكلامية ولا البراهين الفلسفية، بل يحتاج إلى لطف قريحة، وصقالة قلب، وصفاء باطن بالرياضات والخلوات". [شرح دعاء السحر].

ولهذا، فلا حدوث ولا تحوّل ولا تصرّم ولا زمان في الصّقع الرّبوبيّ. فكلّ المتفرقات في أوعية الزّمان والدّهر مجتمعات عند الله تعالى. وإذا نظرنا إلى العوالم من الجهة الإلهية فما ثمة إلاّ المشيئة الواحدة التي خلق الأشياء بها؛ والأشياء بمجموعها تجلّي هذه المشيئة الذاتية وظهورها؛ مثلما أن الأفعال الجزئية مجتمعةً وهي الفعل المطلق عبارة عن المشيئة الفعلية المطلقة. وعليه، فإنّ الله تعالى حاضرٌ باسمه الأعظم في كلّ الأشياء. ولا يكون هذا الفيض بعيداً حتّى يجي.

"وبالجملة، إنّ العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدّس الذي وهبه الحياة والعلم والقدرة. واللا بقبّيت دار التحقّق في ظلمة العدم وكمونه وبطون البطلان. بل من كان قلبه منوّراً بنور المعرفة يرى كل شيء غير نور جمال

الجميل باطلاً ولا شيء، ومعدوماً أزلاً وأبداً". [معراج السالكين].

وأما مجيء الربّ المتعال، ربّ محمّد (صلى الله عليه وآله) في قوله تعالى "وجاء ربك"، فهو عبارة عن تجلي الاسم الأعظم في عوالم الخلق وتحققها به. فإذا نظرنا إلى عوالم الوجود من هذه الجهة التي تلي الخلق، فهي في صيرورة وتحول، عبر أزمنة الدهور وأيام الله، طوراً بعد طور، حتى تصبح لائحة بمجيء التجلي الأعظم وتريبته، هناك حين تشرق الأرض بنور ربّها بيسط العدل وإقامة القسط. "ومع أنّ مالكيّة الذات المقدّسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السواء، مع ذلك يقول في الآية الشريفة ﴿مالك يوم الدين﴾. وهذا الاختصاص يمكن أن يكون إمّا لأجل أنّ يوم الدين هو يوم الجمع، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرّقات، والمتفرّقات في النشأة الملكيّة مجتمعات في النشأة الملكيّة، وإمّا لأنّ ظهور مالكيّة الحقّ وقاهرته تعالى مجده تكون في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات إلى باب الله وصعود الموجودات إلى فناء الله". [معراج السالكين].

إنّ مجيء الربّ والملائكة صفّاً صفّاً إلى الأرض، بإشراقها بالنور الذي يشقّ السموات، يدلّ على أنّ التحول والتبدّل النوعي سيتحقّق فيها بعد أن كانت مليئة بالظلمات.

يقول الإمام: "اعلم أيّها السالك الطّالب أنّ لله تعالى بمقتضى اسم ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ في كلّ أن شأنًا، ولا يمكن التجلي بجميع شؤوناته إلّا للإنسان الكامل، فإنّ كل موجود من الموجودات من عوالم العقول المجردة والملائكة المهيمنة والصفّات صفّاً؛ إلى النفوس الكلّية الإلهية والملائكة المدبرة والمدبّرات أمراً وسلطان الملكوت العليا، وسائر مراتبها من الملائكة الأرضيّة، مظهر اسم خاصّ يتجلى له ربّه بذلك

الاسم، ولكل منها مقامٌ معلوم، منهم رُكِعَ لا يسجدون، ومنهم سَجَدَ لا يركعون، لا يمكن لهم التجاوز عن مقامه والتخطي عن محله". [شرح دعاء السحر].
فعندما تخضع الأرض بسكانها لوليّ الله الأعظم، وتنقاد له في رحلة الرجوع، فإنّ كل مظاهر الأسماء ستنتجّه نحو المظهر الأعظم أيضاً.

"ولعلّك بعد التدبّر في روح الاسم، والتفكّر في حقيقته، ومطالعة دفتر سلسلة الوجود، وقراءة أسطره، ينكشف لك بإذن الله وحسن توفيقه أنّ سلسلة الوجود ومراتبها، ودائرة الشهود ومدارجها ودرجاتها، كلّها أسماء إلهيّة، فإنّ الاسم هو العلامة، وكل ما دخل في الوجود من حضرة الغيب علامة بآرثه ومظهر من مظاهر ربّه. فالحقائق الكلّية من أمّهات الأسماء الإلهيّة والأصناف والأفراد من الأسماء المحاطة، ولا إحصاء لأسمائه تعالى، وكلّ من الأسماء الغيبية مربوب اسم من الأسماء في مقام الإلهيّة الواحديّة ومظهر من مظاهره. كما في رواية الكافي بإسناده عن أبي عبد الله في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180)، قال: "نحن والله الأسماء الحسنی". وفي رواية أخرى: إنّ الله خلق أسماء بالحروف غير متصوّت، إلى آخره. والأخبار في أنّ لله تعالى أسماء عينيّة كثيرة. قال العارف الكامل كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني في تأويلاته: اسم الشيء ما يُعرف به، فأسماء الله تعالى هي الصّور التّوعيّة التي تدلّ بخصائصها وهويّاتها على صفات الله وذاته، وبوجودها على وجهه، وبتعيّنها على وحدته. إذ هي ظواهره التي بها يُعرف. انتهى كلامه". [شرح دعاء السحر].

ولا يحصل هذا التحوّل إلّا بعد اتّجاه النفوس إلى هذا المقام الأعظم بمعيّة الإنسان الكامل. ومن الجدير ملاحظة الأمور التالية:

1. ليست الأرض منفصلة عن نفوس العباد بل هي عالم متّصل بالنفوس اتّصلاً قيوماً. وإنما تخيلنا الفصل بينهما لأننا تصورنا النفوس

محصورة في قوالب الأبدان المحدودة.

2. طالما أنَّ النَّفوس الشريرة حاکمة على الأرض، فستكون وجهة الأرض نحو السَّفل، عكس الاتجاه نحو مقام الاسم الأعظم.

3. عندما يحصل الفصل التام بين النَّفوس الطَّيبة والنَّفوس الخبيثة، لا تبقى الأرض واحدة. فمنها ما يصبح سماء بفعل الحركة التكامليّة لأصحاب النَّفوس الطَّيبة. وما بقي منها يصبح أرضاً سفلى، بفعل الحركة التَّسافليّة لأصحاب النَّفوس الخبيثة.

4. لا يتحقّق الفصل التام إلّا بعد أن يجمع أصحاب النَّفوس الطَّيبة أمرهم على متابعة مظهر الاسم الأعظم ووليّ الله في العوالم، وتتمّ الحجة البالغة.

5. إنّما يبدأ الاتّباع الحقيقيّ بعد إقامة القسط وامتلاء الأرض عدلاً بفضل حكومة الوليّ الأعظم. وهو التعبير الجادّ المخلص عن نيّة أصحاب النَّفوس الطَّيبة سلوك طريق التّكامل بأنّجاه مقام الاسم الأعظم. فحينها تقام الصّلاة التي ارتضاها الله لنفسه، تناء بالاسم الأعظم: «الَّذِينَ إِن مَّكُنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»، يقول الإمام: "لأنّ نور الوجود وشمس الحقيقة مادام في السير التّنزليّ والنزول من مكان الغيب إلى عالم الشهادة، يتّجه نحو الاحتجاب والغيبية؛ وبعبارة أخرى، في كلّ تنزّل تعيّن وفي كلّ تعيّن تقتيد حجاب؛ والإنسان حيث أنّه مجتمع التعيّنات والتقيّدات فهو محتجب بجميع الحجب السّبعة الظلمانية، والحجب السّبعة النّورية، التي هي الأرضون السّبع والسّماوات السّبع بحسب التّأويل. ولعلّ الرّد إلى أسفل سافلين أيضاً عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع الحجب، ويمكن أن يعبر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النّور في أفق التعيّنات. ومادام

الإنسان محتجباً في تلك الحجب فهو محجوبٌ عن مشاهدة جمال الأزل ومعاينة النور الأول، وحيث أن جميع الموجودات في السير الصعودي من المنازل السَّافِلة لعالم الطَّبيعة بالحرَّكات الطَّبيعيَّة - التي أودعت في جبلة ذاتها من نور جاذبة فطرة الله بحسب تقدير الفيض الأقدس في الحضرة العلميَّة - إذا رجعت إلى الوطن الأصلي والميعاد الحقيقي كما أشير إلى ذلك كثيراً في الآيات الشريفة، فإنَّها تخلص مرَّة أخرى من الحجب النورانيَّة والظلمانيَّة وتجلَّى مالكيَّة الحقِّ تعالى وقاهرته، ويتجلَّى الحقُّ بالوحدة والقاهريَّة وعند ذلك إذا رجع الآخر إلى الأول واتَّصل الظَّاهر بالباطن، وسقط حكم الظَّهور، وتجلَّت حكومة الباطن، فيجبيء الخطاب من حضرة المالك على الإطلاق، وليس له مخاطب سوى ذاته المقدَّسة ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾.. وحيث أنه ليس ثمة مجيب فيقول نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.. وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة من حجاب أفق التعيَّينات هو يوم الدين بمعنى؛ لأنَّ كلَّ موجود من الموجودات في ظلِّ الاسم المناسب له يفنى في الحقِّ؛ فإذا نُفِخ في الصُّور فيظهر من ذلك الاسم ويقترن مع توابع ذلك الاسم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. والإنسان الكامل في هذا العالم بحسب السلوك إلى الله والهجرة إليه، يخرج من هذه الحجب وتظهر وتثبت له أحكام القيامة والسَّاعة ويوم الدين؛ فيظهر الحقُّ على قلبه بمالكِيته في هذا المعراج الصَّلَاتي ويكون لسانه ترجماناً لقلبه، وظاهره لساناً للمشاهدات باطنه، وهذا أحد أسرار اختصاص مالكيَّة بيوم الدين". [معراج الشَّكُوكِ].

إنَّ الذي يصلح العوالم ويردّها إلى أصلها ويضعها تحت تربية الاسم الأعظم، هو الفيض المقدَّس المعبر عنه بالروح والذي تكون الملائكة من شؤونه. والملائكة هم عمَّاله في مقام الفاعليَّة والتأثير. إنَّ مجيء الملائكة يدلُّ على سرِّيان هذا الروح المفعلي للجهات السَّوائِيَّة، حتى تتحقَّق فيها مظهرية الاسم الأعظم. وعندما تأتي الملائكة كلَّها، فهذا يعني أنَّ التبدُّل التام قد

تحقق. وهناك سيستوي العرش ويستقر الكرسي. يقول الإمام: "اعلم أن في باب العرش وحملته اختلافات، وفي ظواهر الأخبار الشريفة أيضاً اختلافاً، وإن كان الاختلاف منفياً بحسب الباطن؛ فإنَّ العرش في النَّظر العرفاني والطريق البرهاني يطلق على معانٍ كثيرة؛ وأحد معانيه، ولم أره في لسان القوم، هو الحضرة الواحديّة التي هي مستوى الفيض الأقدس؛ وحملته أربعة من أمّهات الأسماء وهي: الأوّل والآخر والظاهر والباطن. والمعنى الآخر، وما رأيته أيضاً في لسان القوم، الفيض المقدّس الذي هو مستوى الاسم الأعظم وحامله الرّحمن الرّحيم والرّب والمالك، ومن إطلاقاته جميع ما سوى الله؛ وحامله أربعة من الملائكة إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل. والمعنى الآخر، هو جسم الكلّ، وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الأنواع وقد أشير إليه في رواية الكافي. وربما أطلق على العلم، ولعلّ المراد من العلم، العلم الفعليّ للحقّ الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملته أربعة من الأولياء الكمل في الأمّ السّالفة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، على نبينا وآله وعليهم السلام، وأربعة من الكمل في هذه الأمّة، الرّسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام". [معراج السالكين].

فالروح تعبیر عن سريان التّربية الإلهيّة بالأسماء. والروح الأعظم تعبیر عن سريان التّربية الإلهيّة بالاسم الأعظم. وهذه التربية التي تتحقّق بواسطة الملائكة تكون بالنسبة لنا متدرّجة، ولا يمكننا شهودها دفعةً واحدة.

"وبالجملّة كلّ فعلٍ من الأفعال في كلّ عالم من العوالم كان من فعل الله بتوسّط الملائكة، بلا واسطة أو مع أعوانهم وجنودهم. قال صدر الحكماء المتألّهين وشيخ العرفاء السّالكين، رضي الله تعالى عنه، في "الأسفار الأربعة" ما هذه عبارته: "ولاشكّ لمن له قدّم راسخ في العلم الإلهي والحكمة، التي هي فوق العلوم الطّبيعيّة، أنّ الموجودات كلّها من فعل الله بلا زمان

ولا مكان، ولكن بتسخير القوى والنفوس والطباع، وهو المحيي والمميت والرازق والهادي والمضلّ، ولكن المباشر للإحياء ملكُ اسمه إسرافيل، وللإماتة ملكُ اسمه عزرائيل، يقبض الأرواح من الأبدان، والأبدان من الأغذية، والأغذية من التراب؛ وللأرزاق ملكُ اسمه ميكائيل يعلم مقادير الأغذية ومكاييلها؛ وللهداية ملكُ اسمه جبرائيل؛ وللإضلال دون الملائكة جوهر شيطاني اسمه عزازيل، ولكلّ من هذه الملائكة أعوانٌ وجنودٌ من القوى المسخّرة لأوامر الله، وكذا في سائر أفعال الله سبحانه. ولو كان هو المباشر لكلّ فعل دنيّ، لكان إيجاداً للوسائط النّازلة بأمره إلى خلقه عبثاً وهباءً، تعالى الله أن يخلق في ملكه عبثاً أو هباءً، ﴿وَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. انتهى كلامه. [شرح دعاء السحر].

ولما كانت الرّحمة أقرب الأشياء إلى الاسم الله الأعظم ﴿قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وذلك باعتبار سعتها وشمولها لكل الأشياء، وكون وجود الأشياء بالنسبة لها بمنزلة المسافرين إلى غايته، وحيث أن الرحمة عبارة عن إيصال المرحوم إلى غايته، وهي الاسم الأعظم، لذلك يقول الإمام: "اعلم أنّ للإنسان السّالك في الوصول إلى المقصد الأعلى ومقام القرب الربوبيّ طريقين على نحو كليّ. أحدهما وله مقام الأوليّة والأصلية، وهو السّير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرّحمة المطلقة وخصوصاً الرحمة الرحيمية، وهي رحمة توصل كلّ موجود إلى كماله اللاتق به. ومن شعب هذه الرّحمة الرّحيمية ومظاهرها، بعث الأنبياء والرّسل صلوات الله عليهم الذين هم هداة السبيل والآخذون بأيدي المتخلّفين بل إنّ دار التّحقّق في نظر أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي صورة الرّحمة الإلهيّة، والخلائق مستغرقون دوماً في بحار رحمة الحقّ تعالى ولا يستفيدون منها. وكما أنّ نعمة الرّحمة الرّحمانية بل الرحيمية منبسطة

على جميع النشآت الإنسانية القلبية والقلبية، ولكلٍّ من المراتب حظٌّ من النعم الإلهية الجامعة، لكلٍّ منها حظٌّ ونصيبٌ من ثناء الحقِّ وشكر النعمة الرحمانية والرحيمية للواجب المطلق". [معراج السالكين].

في بيان العوالم الكلية والخضرات الإلهية الخمس *

إنَّ العالم - لكونه مأخوذاً من العلامة لغةً - عبارة عما يُعلم به الشيء؛ واصطلاحاً عبارة عن كل ما سوى الله تعالى، فيه يُعلم الله من حيث أسمائه وصفاته. إذ بكلِّ فرد من أفراد العالم يُعلم اسمٌ من الأسماء الإلهية، لأنَّه مظهر اسم خاصٍّ منها.

فبالأجناس والأنواع الحقيقية تُعلم الأسماء الكلية، حتى إنَّه ليُعلم بالحيوانات المستحقة عند العوام (كالذباب والبعوض وغيرها) أسماء، تكون الحيوانات والحشرات مظاهرها.

فالعقل الأوَّل، لاشتماله على جميع كليات حقائق العالم وصورها إجمالاً، هو عالمٌ كليُّ يُعلم به الاسم الرَّحمن. والنفس الكلية، لاشتمالها على جميع جزئيات ما اشتمل عليه العقل الأوَّل تفصيلاً، هي عالمٌ كليُّ يُعلم به الاسم الرَّحيم.

والإنسان الكامل الجامع لجميعها، إجمالاً في مرتبة روحه، وتفصيلاً في مرتبة قلبه، هو عالمٌ كليُّ، يُعلم به الاسم الله الجامع للأسماء.

وإذا كان كلُّ فرد من أفراد العالم علامةً لاسم إلهيٍّ، وكان كلُّ اسم من حيث أنَّه مشتمل على الذات الجامعة لأسمائها مشتمل عليها، كان كلُّ فرد من أفراد العالم (أيضاً) عالماً، يُعلم به جميع الأسماء.

فالعوالم غير متناهية من هذا الوجه، لكن لما كانت الحضرات الإلهية الكلية خمساً، صارت العوالم الكلية الجامعة كذلك.

يقول الإمام الخميني رحمته الله: "وقال (الحضرة) باعتبار حضورها في المظاهر وحضور المظاهر لديهما، فإنّ العوالم محاضر الربوبية ومظاهرها. ولهذا لا يُطلق على الذات من حيث هي "الحضرة"، لعدم ظهورها وحضورها في محضر من المحاضر وفي مظهر من المظاهر. وأمّا مقام الغيب الأحدي، فله الاسم والمظهر والظهور حسب الأسماء الذاتية والرابطة الغيبية الأحدية "الموجودة" بينها وبين الموجودات بالسرّ الوجودي الغيبي". (التعليقات).

ويقول رحمته الله: "... وأول الحضرات: حضرة الغيب المطلق، أي حضرة أحدية الأسماء الذاتية، وعالمها هو السرّ الوجودي الذي له الرابطة الخاصة الغيبية مع الحضرة الأحدية. ولا يعلم أحد كيفية هذه الرابطة المكنونة في علم غيبه. وهذا السرّ الوجودي أعم من السرّ الوجودي العلميّ الأسمائيّ والعينيّ الوجودي. وثانيها، حضرة الشهادة المطلقة، وعالمها عالم الأعيان في الحضرة العلمية والعينية. وثالثها، حضرة الغيب المضاف الأقرب إلى الغيب المطلق، وهي الوجهة الغيبية الأسمائية، وعالمها الوجهة الغيبية الأعيانية. ورابعها، حضرة الغيب المضاف الأقرب إلى الشهادة وهي الوجهة الظاهرة الأسمائية، وعالمها الوجهة الظاهرة الأعيانية. وخامسها، أحدية جمع الأسماء الغيبية والشهادية، وعالمها الكون الجامع. وها هنا بيان آخر لترتيب الحضرات والعوالم لا مجال لذكره". (التعليقات).

وهذا الترتيب الذي ذكره الإمام الخميني هو الأوفق مع الذوق العرفاني، لأنه يرى الحضرات من زاوية مظهرية الذات وتجلياتها على قلب العارف. ويظهر ذلك من تعبيره بالوجهة. وانطلاقاً من المبدأ القائل بأن لكل شيء وجهه إلى الغيب ووجهه إلى ما دون، تتضح هذه القسمة.

أما التقسيم الذي اعتمده الشارح القيصرّي فهو على الترتيب التالي:
"وأول الحضرات الكلية حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة
في الحضرة العلمية. وفي مقابلها حضرة الشهادة المطلقة وعالمها عالم الملك
وحضرة الغيب المضاف: وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب إلى الغيب المطلق،
وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والمملوكية، أعني عالم العقول والنفوس
المجرّدة وإلى ما يكون أقرب إلى الشهادة، وعالمه عالم المثال. وأما انقسم
الغيب المضاف إلى قسمين، لأن للأرواح صوراً مثالية مناسبة لعالم الشهادة
المطلق، وصوراً عقلية مجرّدة مناسبة للغيب المطلق. والخامسة، الحضرة
الجامعة للأربعة المذكورة، وعالمها العالم الإنساني الجامع لجميع العوالم وما
فيها. فعالم الملك مظهر المملوكوت وهو العالم المثالي المطلق وهو مظهر عالم
الجبروت أي عالم المجرّدات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة، وهو مظهر
الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضرة الأحدية".
تبصرة: قد يعبر عن عالم المملوكوت بالمملوكوت السفليّ وهو عالم المثال،
والعلويّ وهو عالم النفوس.

تنبيه

يجب أن تعلم أنّ هذه العوالم، كليّتها وجزئيتها، كلّها كتب إلهيّة، لإحاطتها
بكلماته التامّات. فالعقل الأوّل والنفس الكلية اللذان هما صورتا أم الكتاب
(وهي الحضرة العلميّة) هما كتابان إلهيّان. يقول الإمام الخميني رحمه الله: "اعلم
أنّ أم الكتاب هي حضرة الاسم الله بالتجلّي التامّ الجمعيّ في الحضرة
الواحديّة. وأما صورة هذا الكتاب الإلهيّ الجامع فهي مقام الألوهيّة بمقامي
الجمع. أي الحضرة الرحمانيّة والرحيميّة. وكلّ من الرحمانيّة والرحيميّة
كتاب جامع إلهيّ: الأوّل أم الكتاب باعتبار، والثاني "الكتاب المبين". وأما
كتاب المحو والإثبات فهو مقام الفيض المطلق بالوجهة الخلقية. وإن شئت

قلت، الوجهة التي تلي الحقي أم الكتاب "الذي" لا يتغير ولا يتبدل. والوجهة التي تلي الخلق هي كتاب المحو والإثبات. وكيفية المحو والإثبات على المشرب العرفاني هي إيجاد جميع الموجودات باسمه الرّحمان والباسط، وإعدامها باسمه المالك والقهار. ففي كلّ آن يكون الإعدام والإيجاد على سبيل. وبهذا يظهر سرّ الحدوث الزمانيّ في جميع مراتب الوجود عند أهل المعرفة، فتدبرّ".

وقد يُقال للعقل الأوّل أم الكتاب لإحاطته بالأشياء إجمالاً. وللنفس الكليّة الكتاب المبين لظهوره فيها تفصيلاً. وكتاب المحو والإثبات هو حضرة النفس المنطبعة في الجسم الكلّي من حيث تعلّقها بالحوادث. وهذا المحو والإثبات إنّما يقع للصّور الشخصية التي فيها باعتبار أحوالها اللازمة لأعيانها بحسب استعداداتها الأصلية المشروط ظهورها بالأوضاع الفلكية المعدّة لتلك السذوات لتتلبّس بتلك الصّور مع أحوالها الفائضة عليها من الحقّ سبحانه، وبالاسم المدبرّ والمأحي والمثبت والفعال لما يشاء وأمثال ذلك. والإنسان الكامل كتابٌ جامعٌ لهذه الكتب المذكورة لأنّه نسخة العالم الكبير. قال العارف الشاعر علي بن أبي طالب القيرواني:

داؤك منك وما تشعر ودواؤك فيك ولا تبصر
وتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
فأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمّر

فمن حيث روحه وعقله كتابٌ عقليّ مسمّى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ. ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات. فهي الصّحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة التي لا يمسّها ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلا المطهّرون من الحجب الظلمانيّة. وما ذكر من الكتب إنّما هي أصول

الكتب الإلهية. وأما فروعها، فكلّ ما في الوجود من العقل والنفس والقوى الروحانية والجسمانية وغيرها مما ينتقش فيه أحكام الموجودات (سواء كلّها أم بعضها، كان مجملًا أم مفصّلًا) وأقل ذلك انتقاش أحكام عينها فقط. والله العالم.

يقول الإمام الخميني رحمته الله في تعليقاته: "عند التحقيق العرفاني، كلّها كتب جامعة مسطور فيها كلّ الأحكام الإلهية. كما أنّ الأسماء باعتبار، كلّها جامعة لجميع الأسماء، وهذا الاعتبار هو جهة استهلاكها في أحديّة جمع الجمع. كما أشير إليه في الدعاء. "اللهمّ إني أسألك من أسمائك بأكبرها، وكلّ أسمائك كبيرة". فباعتبار ظهور الكثرة، للأسماء أعظم وغير أعظم، والكتب بعضها جامعة وبعضها غير جامعة. وباعتبار اضمحلالها في الجمع الأحديّ كلّها أعظم وجامع".

تنبيه آخر

لا بدّ أن يُعرف أنّ نسبة العقل الأوّل إلى العالم الكبير وحقائقه هي بعينها نسبة الرّوح الإنسانية إلى البدن وقواه. وإنّ النفس الكلية قلب العالم الكبير؛ كما أنّ النفس الناطقة هي قلب الإنسان؛ لذلك يسمّى العالم بالإنسان الكبير، والإنسان بالعالم الصغير.

ولا يتوهم أنّ الصّور الموجودة في العقل الأوّل إجمالاً، أو في النفس الكلية تفصيلاً، هي غير حقائقها، بحيث تكون مفاضة من الحقّ سبحانه عليهما كصور منفكة عن حقائقها!! بل الواقع أنّ إفاضة تلك الصّور عليهما عبارة عن إيجاد تلك الحقائق فيهما. وكلّ ما في الخارج من الحقائق يكون كالظلال لتلك الصّور، إذ هي التي تظهر في الخارج بواسطة ظهورها فيهما - بل قل إنّ الحقائق الخارجيّة هي تنزّل تلك الصّور - أولاً، ويحصل لهما العلم بها بعين تلك الصّور الفائضة عليهما لا بالصّورة المنتزعة من الخارج.

وتلك الحقائق عين حقيقة العقل الأول، بل هي عين كل عالم بحسب الوجود المحض، وإن كانت من حيث تعيّناتها ومعلوميّتها غيرها. لأنّا بينّا أنّ الحقائق كلّها راجعة إلى الوجود المطلق بحسب الحقيقة، فكلّ منها عين الآخر باعتبار الوجود، وإن كانت متغايرة باعتبار التعيّنات. كما أنّه أوّل صورة ظهرت في الخارج للحضرة الإلهيّة. وقد بينّا أنّ الحقائق الأسماوية في هذه المرتبة هي عينها من وجه، وغيرها من وجه. فيكون مظهرها كذلك أيضا.

فاتّحاد الحقائق فيه كاتّحاد بني آدم كلّهم في آدم قبل ظهورها بتعيّناتها، وإن كانت بحسب هويّاتها مختلفة عند الظهور. بل هو آدم الحقيقي، أي الوجود المطلق. ويؤيّد قوله ﷺ: "أوّل ما خلق الله نوري". والاختلاف بالماهيات كالاختلاف بالهويّات. فإنّ كلّاً منهما عبارة عمّا به الشيء يكون هو هو، والفرق بينهما أنّ الماهية مستعملة في الكلّيات، والهويّة في الجزئيّات.

فلا يقل: إنّ بني آدم متّحدون بالتّسوّع، والماهيات مختلفة بذواتها، فلا يمكن اتّحادها لأنّها بينّا أنّ الماهيات وجودات خاصّة علميّة متعيّنة بتعيّنات كلّية. وكلّها متّحدة في الوجود من حيث هو هو. والتميّز العقلي بين العالم والمعلوم لا ينافي الوحدة في الوجود فإنّ الأشعة الحاصلة في النّهار أو في الليلة المقمرة واحدة، مع أنّ العقل يحكم بأنّ نور الشمس غير نور القمر أو نور الكواكب.

وأصل اتّحاد المعلومات بالعلم والعالم إنّما هو اتّحاد الصّفات والأسماء والأعيان بالحقّ لا غير (وبهذا التوجيه لا نحتاج إلى تطويلات الملا صدرا). وهكذا حال الصّور الحاصلة في كل عالم، سواء كانت منتزعة أم لا، فإنّها غير منفكّة عن حقائقها، لأنّها كما هي موجودة في الخارج، موجودة في العالم العقليّ والمثاليّ والذهنيّ، وحصول صورة الشيء منفكّة عن حقيقتها لا يكون علما بها، إذ الصّورة عند أهل النّظر هي غيرها.

والإنسان لكونه نسخة العالم الكبير مشتمل على ما فيه من الحقائق كلها، بل هو عينها من وجه كما مرّ، وما حجبها عنها إلا النشأة العنصرية. فيقدر زوال الاحتجاب تظهر فيه الحقائق. فحالها مع معلوماته كحالة العقل الأول. لأنّ العقل الأول هو حقيقة الإنسان. بل في التحقيق يكون علمه أيضاً فعليّ من وجه (وهو وجه مرتبته)، وإن كان انفعاليّاً من وجه آخر. بل هو أشدّ اتّصافاً بالعلم الفعليّ من العقل الأول، لأنّه الخليفة والمتصرّف في كل العوالم.

وحقيّة هذا الكلام، وما ذكر من قبل، إنّما تنجلي لمن تظهر له حقيقة الفعالة (التي هي وساطة الفيض) وتظهر له وحدة الوجود في مراتب الشهود وأنّ علمه تعالى عين ذاته، وأنّ الامتياز بتجليّاته المعينة فقط. والله العالم.

* [السيد عباس نور الدين، مقدّمات العرفان في تحرير مقدمات القيصري على فصوص الحكم].